

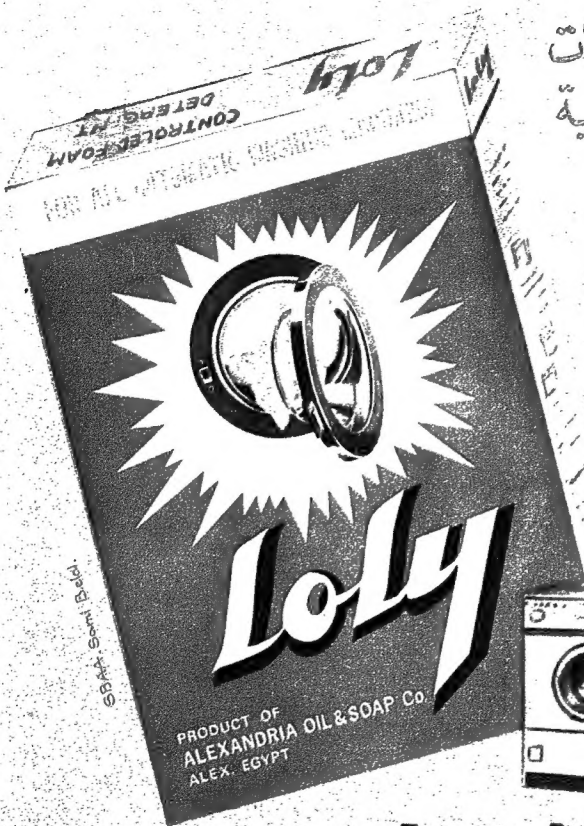
روایات (الهلال

اگرچه

خیری شلی



للغسالات
الأوتوماتيكية



- رغوة محدودة ممتدة المفعول
- الوحيد الذي يتميز باحتواءه
- على أنزيمات فعالة
- لها القدرة على إزالة
- البقع الباردة والساخنة

لولا

شركة الإسكندرية للزيوت والصابون

أسلوب عصري للتنظيف
ذو أداء فعال متميز

● الاشتراكات ●

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) فى جمهورية مصر العربية واحد وعشرون جنيها ، وفى بلاد اتحادى البريد العربى والافريقى والباكستان سبعة عشر دولارا او مايعادلها بالبريد الجوى وفى سائر انحاء العالم خمسة وعشرون دولارا بالبريد الجوى .

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج . م . ع . نقدا او بحوالاة بريديّة غير حكومية ، وفى الخارج بشيك مصرفى لامر مؤسسة دار الهلال ، وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة عليه عند الطلب .

اسعار البيع للعدد فئة ٢٠٠ قرش :-

لبنان ٧٠٠ ليرة - الأردن ٦٠٠ فلس - الكويت ٥٠٠ فلس - العراق ٢ دينار - السعودية ٧ ريالات - البحرين ١٢٠٠ فلس - الدوحة ٨ ريالات - دبي ٨ دراهم - ابو ظبى ٨ دراهم - مسقط ٨٠٠ بيصه - المغرب ٢٠ درهما - غزة والضفة ١,٢٥ دولار - لندن ١,٥ جك - عدن ٢ دولار .

الكويت : السيد عبد العال بسيونى
زغلول الصفاة - ص . ب رقم
13079٢١٨٣٣ - تليفون -
٤٧٤١١٦٤

شَرَك
فِي
رَوَايَات
الهلال

للحصول على نسخ من روايات الهلال
اتصل بالتلكس : 92703 HILAL. U. N.

الادارة دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب - القاهرة
تليفون ٣٦٢٥٤٥٠ - سبعة خطوط

روايات الهلال

Rewayat Al Hilal

سلسلة
شهرية
لنشر
القصاص
العالمى

تصدر عن مؤسسة
دار الهلال

العدد ٩٩٧ مايو ١٩٩٠
ش.ال ١٤١٠ هـ
No . 497 MA 1990

رئيس مجلس الإدارة
مكرم محمد أحمد
نائب رئيس مجلس الإدارة

عبد الحميد حروش
رئيس التحرير
مصطفى نبيل
سكرتير التحرير
محمود قاسم

الغلاف بريشة الفنان :
بهجت عثمان

أولنا ولد

بمقام

خیری شلبي



دار الهدى

البسملة

بسم الله الرحمن الرحيم ، والصلاة والسلام على سسيدينا
ونبيينا محمد بن عبد الله خاتم الانبياء والمرسلين . اما بعد فهذه
امالى الحاج « حسن ابو على » ، ولدخالى « عبد الباسط عواد » ،
الشهير بابى ضب . املاها على فى بضع ليال ونحن جلوس على مصطبة
من الحشيات الثمينة المبطنة بالفرو ، ومن خلفنا المساند القטיפنة
الملونة ، فى شرفة شقته المقامة فى الدور السابع فوق سطح عمارته
المهيبة الواقفة كالعروس الحورية فوق اعلى قمة من جبل المقطم
الأغر ، حيث يتربع « حسن ابو على » ولدخالى فى غاية من الاطمئنان
بعد اذ لم يعد مطلوباً منه اى شىء على الاطلاق ، وبعد ان تغفل فى
كل شىء فى البلاد ، وبات حاكماً بامرهِ يخطب الجميع وده ويتملقونه
ويمسحون له الجوخ فى كل مكان ، وبعد ان زهد فى كل شىء منذ
ان توفرت له كافة السلطات ، ولم يعد يطلب من الله غير السترة
ومفادرة هذه الحياة الفانية فى سر هادىء يمكنه من النظر فى امر
الحياة الباقية ، تلك التى لم يعطها من قبل نظراً على الاطلاق الا فى
اواخر ايامه .

القاهرة الكبرى تبدو امامنا كاطلال مدينة خرافية تهدمت ولم
يبق منها سوى اورام كالحة فى النهار كئيبه فى الليل رغم بريق
الاضواء المنبعث من خلال الهديم . وقد ضمن ولدخالى لاولاده كل
شىء واطمان الى ان مستقبل البلاد كله سيقظ فى ايديهم لقرون طويلة
من الزمن قادمة .

وكنت مشغولاً بالفرجة على التليفزيون الملون المفتوح دائماً
فى صدر البهو الكبير يعرض اذرعاً وسيقاناً وخصوراً ورقصاً وغناءً
وتهريجاً ونواحاً . ولكن ولدخالى كان يسخر منى دائماً وينهائى عن
الفرجة .

قلت له : يا ولد الخال لماذا لا تتركنى اتفرج على ما فيه من الافلام
وتصاوير ؟

قال : ولماذا الافلام والتصاوير يا ولدى ؟ انا عندى لك من الافلام
والتصاوير ما هو احسن من هذه وانفع !

قلت له : يا ولد الخال ولكن الحكاوى التى ستحكيها لى ليس
فيها تصاوير اللحم الأبيض المخروط فى قوالب زبد وقشطة !
قال بعفوية دون أن يدري : عندى من هذا اللحم أكثر مما
يشتهى الخلق كله ! ستشبع لحما وزبدا وقشطة !

ثم بان الغضب اللطيف على وجهه فجأة ، وبرق فى عينيه ذلك
البريق اللاهب . ولو لم أكن أعرف طبع ولدخالى فظننت من هذه
الفضبة الصامتة أنه سيفتك بى لا محالة . نفس الخديعة التى يقع
فيها كل من يرى هذه النظرة فى عينيه وهذه الشدة على وجهه
لأول مرة .

فوجهه مثلث الشكل منحوت يشبه مبخرة فخارية ، يشبه
الجوافية المتقيحة الناشفة . عيناه ثقبان عميقان يندفع منهما بريق
حاد كعمودين من الضوء مفتوحين على الشمس . فى عينيه ألف
قتيل وقتيل دفنهم ومشى فى جنازاتهم باكيا بحرقة بهاء ملفوف
فى براءة تصل إلى حد البلاهة أحيانا . لا يستطيع مخلوق - مهما
كان أربيا ذكيا ابن حرام - أن يفصل بين المجرم العتيد فى ولدخالى
وبين بلاهة الصعبدى القحف . العشرة الطويلة وحدها هى التى
تستطيع أن تريك الرجل الطيب فى ولدخالى . شيئا فشيئا سيقبل
رعبك من شخبطته ذات ألرنين الخشن القاسى ، ويخف انزعاجك
من التواء الشر فى ملامحه ولهب النار فى عينيه . ستتجاوز عن
تشويحة ذراعه فى وجهك بيد وأصابع سرحة وذراع تتبختر وسط
فتحة كم عريضة . لن يفرنك طوله الشامخ حين ينتفض واقفا
ليؤنب فى غضب جريح أو يصرخ فى رثاء الأدب والأخلاق والرجال
وأهل زمان .. لسوف تعرف أن هذه الفزعة الجبارة هى أخسر
ما تبقى له من سلطاته القديمة التى نبذها غير آسف عليها ، وآخر
ذبالة من ضوء سيادته التى أطفأها بنفسه زهدا واحتقارا منه
لسانها .

أشد حالات هياجه وعراكه ينهيا أذان الصلاة ، حيث يضطر
هو إلى الاستجابة الفورية بالرد على صوت المؤذن صائحا : الله
أعظم والعزة لله .. ثم يصلح عمامته الصعيدية الصغيرة كأنها
البرام الأبيض ، ويولى هامته العالية نحو المسجد رافعا حاجبيه عن
نظرة ثاقبة تتلصص تتبصر تتوجس تخاف تتجج تتجاسر كل ذلك
فى لمحة عين واحدة . وتلك هى نظرة ولدخالى « حسن عبد الباسط »
الشهير بابى صب ، نظرة تريد أن تخترق النفوس لتعصر

ما بداخلها على وجه الدقة واليقين . فإذا رأى كوب ماء في يد أحد سعاة الأذان انقضت يده عليه فرشفت منه وتمضمض ثم واصل الاندفاع نحو المسجد . وعند خروجه من الصلاة يترك مسجد السلطان برقوق ويدخل المقهى الذي تعود أن يلتقى فيه بصحابه الصباح عصر كل يوم ليدخلوا لهم ما يربو على خمسمائة حجر من الحشيش على قارعة الطريق ، وربما وجد من كانوا يتعاركون معه قبل الصلاة جالسين ، فإذا هو يجلس بينهم يبادلهم الحديث بود عميق كان شيئا لم يكن .

وأما أنا فلست أستطيع بل لست أمالك أن أرفض لولدخالى طلبا . لقد كان هو الحافظ الأكبر لأبى وأمى بان يرياني على التعليم أعطى أعيد الى الوجود شهرة أخوالى الفقهاء . فالحقنى أبى بالكتاب فى بلدتنا « كوم سعيد » ، فحفظت القرآن وجودته ثم التحقت بالمعهد الدينى فى أسيوط ثم جئت أخيرا لأتعلم فى الأزهر الشريف مثل رفاعة الطهطاوى ومحمد عبده وطه حسين وأخوالى . وهكذا قدر لى أن انتقل من « كوم سعيد » بالفنايم قبلى الى الأزهر الشريف طالب علم ، أسكن فى دار ولد خالى ولا غرو . وقد رجب بى إيما ترحيب ، فأفرد لى شقة خاصة أرتع فيها وحسدى كأولاد الباشاوات ، وتكفل بمصاريفى وكسوتى حتى بات أهلى لا يعرفون عنى أى شىء وان راونى فقد لا يعرفوننى من فرط ما طرا على من نعيم مقيم ، يكفى أنى أذهب الى الأزهر كل يوم فى سيارته المرسيديس وسائقه يوصلنى بحقيبة الكتب حتى محل الدرس ، ويعود ليحملنى الى الدار ، أقصد القصر المنيف .

ولقد بات ولد خالى يجد لذة عظمتى فى توجيهى والإشراف على واستحثائى على الجد والاجتهاد باخلاص عميق لا أظنه يتوفر فى أبى نفسه . ثم أننى درست ولدخالى عجنته وخبرته . عرفت عنه الكثير مما تقشعر منه الأبدان لكننى مع ذلك أحبيته . وكلما ضقت به وبإشرافه وثرثرته تذكرت أن الواقع دائما فى صفه . والغريب أننى كلما دقت فى الاستماع اليه وجدت حكما خطيرة وجنيت فوائد جمة لا تحصى . بصراحة وجدته على حق ، إذ اطلت المكوث أمام الشاشة الملونة فاصابنى التكرار بالكآبة والرغبات السفلية ، ونظرت فى كتب الدراسة فما وجدت الا علوما تتقعر فى الفراغ بعيدا عن مجربات الحياة ، علوم هذه الكتب كلها تسير فى واد وتسير حياتنا فى واد آخر ، وليس ثمة من صلة بينهما على الإطلاق فكل يعضى

في فلكه بعيدا عن الآخر ، والناس في بلادنا يتخرجون في الجامعات والمعاهد والاكاديميات ليصبحوا في النهاية مجرد موظفين ينفق عليهم امثال ولد خالي . وقد تبين لي خلال سنوات التحاقى بالتعليم العالي واحتكاكى بالقاهرة ام الاعاجيب امثال ولد خالي « حسن ابوعلى » ، ان امثال ولد خالي هؤلاء هم دائما وجوه المجتمع الحقيقيين بل هم اصلا به اصحاب راس ماله وعماتره السكنية ومحلاته التجارية الكبرى واعضاء مجلس شعبه وتاجرو مخدراته . امثال ولد خالي « حسن ابوعلى » هؤلاء هم الفائزون على الدوام ، وليس يصيبنا من التعليم سوى النفقات والعياء الشديدين . ولا اظن ان احدا يمارى في ان مجتمعا لا يطلب منك شروطا على الاطلاق لكى تصبح احد اثريائه في شهور قليلة ، او احد ملوكه او رؤسائه في قفزة واحدة يصبح من حقاك ان تتحدى كل شيء وتحصل على كل شيء وتشتري بنقودك بنفوذك بقوتك ما تشاء وتهوى .

لكل هذا فانا استمع - وادون - كل حكاوى ولد خالي « حسن ابوعلى » ، التى طقت في مخه فجأة فطلع في دماغه ان يملها على كصفحات من بطولاته الخارقة . وقد املأها على في استمتاع شديد ، ودونها في استمتاع اشد . ولم اضبطه متلبسا بالكلب في كلمة واحدة ، حتى لقد اعطاني درسا في الصفاء والتجرد والجرأة على الاعتراف والمكاشفة بما يشيب له الولدان . لقد ادلى بشهادته كاملة غير منقوصة لما راي ان الجميع في هذه الايام يهتمون بكتابة شهاداتهم ، كل من هب ودب يتطوع بالادلاء بشهادته .. فاراد ولد خالي ان يلقنهم درسا في نوع الشهادات التى يجب ان تكتب اليوم ، فاذا هو يكشف عن الجانب الدقيق المخفى من حياتنا المتفتنة فيعترف بكل مدهش ومثير ، واذا هي شهادة جذيرة بان يحفلها ضمير الامة كما قال .

وبعد فليس لي اى فضل سوى تسطير امالية هذه على الورق ، لعل من يهمهم معرفة جوهر الحقيقة - كما قال - ان يلتحقوا اعينهم ذات يوم . فاذا كانوا قد نظروا طول عمرهم يقرأون شهادات المثقفين ، فلعله قد ان الاوان لان يستمعوا الى شهادات العامة من افواه المواطنين ، او كما قال « طبق الاصل » .

الفاتحة

الله لا يعيدها من أيام . الفقر وحش ياولدى واكل العيش مر ،
والبطن لا ترحم . وهى ليست بطنا واحدة ، خذ عندك أمى ، وأربع
بنات كبار ، وطفل ، وأنا . كان لنا أب شد عن اخوته أهل العلم
والفقهنة . أتذكر ملامحه كنت أشاهدها الخالق الناطق على وجوه
أعمامى الفقهاء المحترمين ، وأتعجب : كيف يصير هؤلاء محترمين
هكذا ؟ وأبى على باب الله يعيش على ذراعه يشتغل يوما ويبتطل
عشرة ، حتى ليمشى يعرض الخدمة على الناس يتطوع بالمساعدة
دون أن يدعو أحد ، أحيانا دون لزوم . أنت وغيرك تتصور أن
المسألة مجرد شهامة من رجل يبدو محترما غير أجير ، فتكفى
برفع ذراعك فى الهواء بالشكر والتحية مثلما تشكر أعيان الناس
بينما تعطيه ظهرك متكلا على الله . واقعتك سوداء لو فعلتها
ربما مشى خلفك فى هدوء شديد لجذبك من أى مكان فى متناول
يده القليظة الخشنه ، ذراعك أو خناقك أو رقبك نفسها لا يهم :
تعال هنا .. حمار أنا يعنى اشتغل لله من غير أجر !! حتى الحمار
يعلفونه وينفقون عليه ! ..

الكل ياولدى كان يتقى شره ، يتركونه يساعدهم راقعين . لم
تكن المصادمات تحدث بينه وبين أحد الأيام السوق ، حيث ينخدع
فى شكله الغرباء ، يرون فى وجهه صلاح أعمامى وطيبة قلوبهم
ورجولتهم ، بعدها هو وبخته ، حسب نوع الناس الذين يرمى
بجشته عليهم ، مع أنه أزرق الناب ، عليه رحمة الله كان يعرف
الناس من أقفيتهم ، ومنها يتوسم فيهم الخير أو كلاحة الوجه .
العبد منا ليس معصوما من الخطأ ، ويرحمه الله كان يضرب فى
قلب السوق ينظر حواليه وعينه لائدة بكل شيء ، يرى جماعة
ينزلون أجولة الحبوب عن الركائب يعدون القرش ، يراهم فى حاجة
حقيقية لمساعدته لكنه يعطيهم ظهره وينصرف ، ليساعد بائع العجوة
فى نصب خيمته وأعداد موازينه وبعدها يقف يتلصق فيهم البسائم
هذه الإشارة يطبق يده على الواحد بأربعة أو القرش على سبيل
الهدية أو الحسنة التى يسره أن يقبلها ذلك الرجل الطيب المحترم

تلمه يكون بركة ، اما تجار الحبوب فاتهم كانوا سيسخرونه في تفرغ
وتكيبيل وتحميل طول نهار السوق وفي النهاية لن ياخذ سوى
القرشين ! ..

اتممت في الشهر الفائت أربعة وخمسين حولا بالتنام والكمال
ومازلت اذكر ايام كان يتركى اشبط في ذيله فامضى معه يوم السوق
كله ، كان يعرق بحق ، يصعب على ، من فرش الى فرش يحمل
يعتق يفرغ يجز العربات يتعارك في اليوم مائة عركة ، في كل عركة
يضرب وينضرب حتى يقع مفسيا عليه وولد خالك يصرخ لله مايفيشه
من كثرة الخوف على ابي الذي اراه يموت امام عيني في اليوم الواحد
عشرين ثلاثين مرة على الأقل ! اتعجب في كل عركة كيف كان يستطيع
النهوض بعدها متجها الى فرش آخر يبحث فيه عن مساعدة
يقدمها لاصحابه ، ان لم تكن موجودة اختلقها ، لربما فوجئت به
يكنس امام دكانك ويرش ، مما يجعلك تنتبه الى انك بالفعل كنت
محتاجا لمن يكنس لك المكان ويرشه ليصير نظيفا هكذا ، او تراه
قد تسال الى فرشك وراح يرتب اجولته وموازينه من الفوضى التي
احدثتها معانيات الربائن وفركشاتهم للبضائع ، مما يجعلك تنتبه
الى انك بالفعل كنت محتاجا لمن يقوم لك بهذه المهمة ، ولربما
فوجئت به واقفا امامك مائلا رهن الاشارة في ان تكلفه بشيء او تطلب
منه طلبا او تأمره بامر ، ومن هنا كانت تكثر خناقاته ياوولدي ،
وكان رأس ولدخالك الصغير ايامها لا يمكن ان يخطر له ان ابي هو
الذي يسمى الى العركة سميا . كنت استعيد بالله ويدب العرب في
كلما بدأ صوته يعلو في الكلام وترتمش شفاته وتبرق عيناه ، أروح
اقول لنفسي ياسايل الستر استر يارب ، رمشة عين والأخرى
تكون الخناقة قامت والضربة دوت على وجه ابي ، تنبهها
الشلاليت والبونيك وايي يفلص بين جمع من الناس يلتم عليه
لجاة ليخلصه ولكن بمزيد من الضرب ، بعدها يقف بعيدا وياخذ
في الصباح والاحتجاج على ضربه وهو ابن الناس الطيبين واخوة له
فقهاء مشهورون ، فيتخرج الذين ضربوه ، يبعثون له من يصلحهم ،
يراضيه بقرش يزيد عما كان سياخله بدون عراك ! ..

ولدخالك لم يعد يخاف . فهمت ان ابي يفعل ذلك من اجل
زيادة الرزق قرشا او قرشين . في يوم السوق لابد ان تطبخ كافة
الدور ، الدار التي لا يتساعد منها الدخان ليلة السوق هي دار
اليتامى ، ولابد ان يوجد الكانون في دارنا ويرسل دخانه ولهذا كان

أبى - بعد كل هذه البهذلة وألغى ضرب الميت - يبدأ فى الابتسام منذ انصرافه من أمام « سبية » الجزار ، حيث يكون قد تأكد من أن اللحم صار أخيراً فى يديه تنام اللفة الورقية الحمراء التخينة المبقعة بالدم على صدره وهو يركض مترنحاً ذات اليمين وذات اليسار كالسكران النشوان يلقي السلام على الناس بكل ود ، فيردون عليه بكل احترام للورقة النائمة على صدره يقولون : تفضل يا أبو عواد ، فيقول : عشت عشت ، وتزداد الابتسامة نورا على وجهه كلما اقترب من حارتنا ، فإذا بدأ فى دخول حارتنا يأخذ شكل الرجل المحترم يبدو بالفعل نسخة من وقار أعمامى الفقهاء فى مشيتهم لا فرق سوى الجبة والقفطان والعمامة والعصا . ولم أكن أعرف لماذا يفعل هذا فى هذه الحارة بالذات مع اننى أصرف ان أناسا كثيرين من أهل حارتنا هذه شاهدوه فى السوق وهو ينضرب بالصرمة القديمة ، هم أيضا كانوا يردون عليه السلام بكل احترام قائلين : تفضل يا أبو عواد ، فيقول : عشت عشت ، ويدلف الى دارنا ، من خلفه أنا ، متفاخرا ، محشو الجيوب بالمعجوة والبرتقال واليوسفندي والفلو السودانى . ينشرح وجه أمى وأخوتى من منظر الورقة . أمى تسمى بالله قبل أن تفتحها ، تقلب فيها قائلة لأبى وهى تشوح بيدها فى وجهه بحب : انشأ الله ما اشتريك ، تذهب الى الكاثون المشتعل تكاد تزعزعد من الفرح . أنسى فى الحال كل ما أصابنى من بكاء وصراخ وتكد ، أوزع على أخوتى وأمى وأبى كل واحد بلعة معجوة وفص يرتقال . يكون ريقنا قد بدأ يجرى والفرح بعننا كلما طلعت رائحة اللحم المسلوق من تحت غطاء الحلة مع الدخان ..

خالك ، يرحمه الله ، أشتغل فى أشغال كثيرة . الشغلة الوحيدة التى كنا نجبها ونتمنى لو دامت هى شغلة الخفارة ، حيث خفرنا ماكينة مياه كبيرة كانت لرجل من الأعيان طيب القلب مثل حالاتك وحالاتى ، كان له ثلاثمائة فدان تسهر عليها ماكينة المياه ونحن وأبى نسهر عليها وعلى الأرض طول الليل . أقمنا دارا لنا بجوار الماكينة وأقمنا فيها ، فبقيت دارنا تقطع المسافة بين البلدة والجبل ، الى الجبل كانت أقرب ، وكل العصابات التى تختبئ فى مغارات داخل الجبل كانوا أصحاب والدى وكانوا يستريحون عندنا أثناء تسللهم من الجبل ليلا الى البلد أو تسللهم من البلد الى الجبل . «على السايح» نفسه ، الذى هرب من السجن والقيد الحديدى فى

يديه ، كان يستريح عندنا ، ولقد سخرنى هذا الرجل مثلما سخرنى
الجبل ، هو الوحيد الذى بهرنى بعد الجبل وأوقف شعر رأسى
من الرعب والحب لهؤلاء الذين يدوخون البر كله يحتضنهم هذا
الجبل الهيب المخيف الملىء بالمفارات ..

اتعرفون كيف هرب « على السايح » ؟ تراه أنت وجيك لم
تسمع به . وهل رأيتم انتم شيئا ؟ انكم جيل الفقر والحروب
وعسكر الاحتلال واحتلال العسكر ، فمن اين تجيئكم المرجلة
عدم المؤاخدة ؟ من السمن الهولندى والقمح الأمريكى المدفوع فيه
شرفكم ؟ أم من الفرائخ الفاسدة ولحوم الكلاب المفرومة التى يوردها
عبد الحى وعبد الميت ؟! أم من الماء العكر المختلط بماء الجبارى
والهواء المختلط بعدام المكن والمواقد ؟! أم من ضرب العسكر فيكم
ومن تحكم النذل الخسيس فى الأصيل الجدد ؟! عليه العوض ومنه
العوض فيكم يا ولدى ! فى هذه البلاد شئ كبير غلط لا أحد يدري
ما هو لكننى أقول أنه نذرة الرجال !.

« على السايح » كان محكوماً عليه فى أربع تأييدات كلها اعتداء
على الحكومة وقتل أعيان من رجالها ، مع أن الحكومة هى التى
كانت تبدأ دائما بالعدوان ، وهل هناك من يتعدى على الحكومة
من الباب للطاق ؟ . الناس تعتدى على الناس ، وهيهات أن تجيء
الحكومة فى الوقت المناسب ، الميت يبقى فى مكانه ثلاثة أيام ربما
عشرة فى انتظار تشريف وكيل النيابة الى أن تتعفن جثته ولا يستطيع
مخلوق أن يقترب منها . وحتى لو جاءت النيابة فماذا ستفعل ؟
محاضر وأقوال ؟ طبيب شرعى يبيع التقارير بتسعة كبيرة ؟!
وحقوق تضيعها المحاكم بين قضاة يعوجون الطربوش على ناحية
ويحكمون بأربع وعشر ومؤبد وهم لا يعرفون أصل الحكاية من فصلها
ولا ظالم من مظلوم ؟! ومحامون متكلمون يخلقون الأوراق ويولدون
الكلام كلاما ومخارج وأوهاما تصفى دم الغلبة ؟! ..

يا ولدى الناس طول عمرها تعرف أن الحكومة لا ترد لأحد
حقوقه ولا تقتص من أحد لصالح أحد ! انها لا تدخل إلا لفض
المارك والفتك بالجميع . ولهذا تعودنا فى الصعيد أن نجنب الحكومة ،
فما تبدأ معركة إلا وتكون أول خطوة فيها هى قطع أسلاك التليفون
حتى لا تأخذ الحكومة علما ، لكى تتسع الفرصة لأن يأخذ الناس
حقوقهم بأيديهم يا بوى ، يقتصون لأنفسهم بأنفسهم يا بوى ، آمال
يا بوى ! انظننوا أنفسكم رجالا ؟! ..

« على السايح » برحمه الله كان يتعارك عراكا بريئا مع نفر من

عائلته : ازدادت المعركة اشتعالا بعض الشيء ، تطوع أبناء الحلال فسافروا الى بلدة مجاورة لبلدتنا وأبلغوا الحكومة من تليفون عمدتها ، فهبطت علينا العسكر والهجانة من كل مكان واشتغل الضرب فينا اعمال على بطلان . دخلوا دوزنا يابوى كما كان يفعل الفرنسيات والمفلول الذين يحكون عنهم في الراديو والتليفزيون ساعات . صاروا يمزقون الثياب من النساء بحجة انهن ربما يكن رجالا من الهاربين متنكرين ، ويفتحون حواصل المعيشة فيدلقون السمن والصل واللبن على الارض يدهسون به بالاحذية الميري ، وبأقدام الخيل وحوافر الجمال وعجلات البوكس فوردد يدهسون بطون الحوامل والاطفال والعجائز . فمن يرى هذا يابوى ولا يغلى دمه !! ..

كنت طفلا صغيرا ابامها وكان ذلك حوالي سنة الف وتسعمائة وخمسين او قبلها بسنوات قليلة ، ولازلت حتى هذه اللحظة اسمع الصراخ والصويوت الساكن في اذني من يومها . بعيني هاتين - قادر أن يخرسني لو كذبت - شاهدت اندفاع عسكر الحكومة بالمدافع الرشاشة يحصدون كل من في طريقهم ، ضرب عيماني . الدار المجاورة لدار «على السايح» ليس لها دعوى بأى شيء ، لكن العسكر أخذوا يصوبون نحوها مدافعهم ويضربون . خرج لهم من شباكها فتى وفتاة من عائلة «الجنيانة» ، الفتى اسمه «جنة» وعمره حوالي سبعة عشر ربيعا ، والفتاة اسمها «جنيانة» وعمرها حوالي خمسة وعشرين عاما . اخذ كل منهما يدافع عن داره وأهله مطلقا رصاص المدفع الرشاش على العسكر والهجانة فقتلوا منهم جملة ، وكلما وقع منهم واحد زغردت الأم في الداخل ، الى أن اندفعت رصاصة من مدفع أحد الهجانة في رأس الفتى «جنة» ، كانت عنيفة حتى انها نثرته من الشباك وألقت به خارج الدار في الارض ، فما كان من أخته «جنيانة» الا أن نزلت من الشباك ولقت من الحوش لانتفتح باب الشارع كي تجيء بجثة أخيها . وكان العسكري الهجان الذي ضرب أخاها قد نزل عن جملة وجاء نحو الفتى ليأخذ منه مدفعه الذي كان لا يزال يحتضنه ، فعاجلته الفتاة «جنيانة» مفرقة فيه كل حشو خزنة مدفعها ، وجرجرته حتى عتبة الدار ، وبجد الفأس قطعت رأسه وذراعيه وقدميه وصارت تفتت لحمه كأنه الردم !! ..

كل هذا و «على السايح» طائح في الهجانة والعسكر بفرسه

ومدفعه الرشاش وسيفه وخنجره ونبوته حتى قتل منهم جملة
وأصاب مجملهم اصابات خطيرة ، وحين فوجئنا بمجيء الجيش
المصرى بهرباته المصفحة ومدافعه وخيوله ليخمد المعركة وجدها قد
أخمدت تماما ولم يبق منها سوى « على السايح » وحده ، الذي
صعب عليه أن يهرب والجبل على بعد رمحين بالفرس الأشهب
وجث أهله وجيرانه وأصهاره مرمية على الأرض في كل ناحية ..
تسلمته الحكومة وحده فخرج مكبلا بالحديد في يديه وقدميه
ولكن تشييعه الزغاريد ! التي طفت على صوات الثكالى وجعير
اليتامى ! ..

رحلوه الى النيابة ثم محكمة جنابات اسيوط فحكمت عليه
بالتأبide الرابعة ، فقط ، لأن مجاميه « عبد الفتاح باشا الطويل »
أثبت أنه عند اشتعال المعركة كان هو مقبلا من عند أخواله في نجع
مجاور لبلدة « اولاد ألياس » وأنه وصل بعد انتهاء المعركة ولهذا
لم يشارك فيها ولو شارك لكان أمامه متسع للهرب كما أنه ليس
لدى الحكومة شهود لا من رجالها ولا من أهل البلدة لأن الجميع
كانوا قد ماتوا في المعركة وعددهم جميعا حوالى مائة وستين فردا
من الطرفين حكومة وأهالى ! ..

عند انتقال « على السايح » من المحكمة الى السجن تكفل بنقله
اربعة عساكر أشداء وضوءه في « البوكس فورد » مقيدا بالحديد
في يديه وقدميه . وفيما « البوكس فورد » يمتطى الطريق الزراعى
أشار « على السايح » نحو نجع أخواله وهمس في آذانهم بجدية
وصدق كبيرين - (الله يرحمه كان مهيبا) - قائلا أنه يدفن في هذه
الناحية الفى جنيه فى الأرض ، وهو الآن ذاهب الى السجن
المؤبد وخسارة طبعا أن تاكل الأرض هذا المبلغ ، حرام ، لكن لهم
ألف وله ألف يصرفه فى سجنه اذا هم مروا به على هذا المكان حيث
يشير لهم من قعدته هذه على موضع النقود فيفتحون بأنفسهم
ويستخرجونها . صنف عسكر الشرطة أدنياء وان تظاهروا بالعنف
الشديدة بل هم كذلك لأنهم كذلك .. وهكذا بدا عليهم أنهم
استحسنوا الفكرة ووافقوا عليها ، فألف جنيه على أربعتهم ليست
مبلغا بسيطا بالنسبة للقط الذى يعيش فيه خدم الميرى ومن
يتمرقون فى ترابه . أعلنوا موافقتهم بجسارة خاصة أنهم مسلحون
وهو أعزل مقيد فضلا عن أنه بعيد عن بلده وأعوانه . وبعد أن
انحرف « البوكس فورد » عن الطريق والتحم بالمنطف الواصل

الى الغنيمة همس لهم « على السايح » بأن منظر « البوكس فورد » سوف يلفت النظر ويشير الشبهة فإلتزم الناس ويعطلونهم عن كشف الدفينة وربما ادعى البعض انه صاحبها ! واقترح عليهم ان يركبوا « البوكس فورد » في دروة آمنة في سفح الطريق ثم يركبوا سيارة اجرة على حسابه توصلهم الى مكان الدفينة ثم تعود بهم الى مركز « البوكس فورد » بعد انتهاء مهمتهم ..

ركب هو بجوار السائق ليرشده على الطريق . سائق الاجرة عرفه في الحال وسلم عليه لكنه قفل ملامح وجهه اثر غمزة قوية من اصابع « على السايح » . المقصود ، ظلت السيارة الاجرة ترمح بين الحقول في طرق ضيقة حتى توقفت امام دار تغطس - وحيدة - وسط قطع من التخيل والجزورين والكافور وتحدها من جميع الجهات مساحات شاسعة من الاراضي الزراعية التي هي ملك أخوال « على السايح » وهذه دارهم . خرج منها ثلاث رجال يهتز من وقع خطوهم المهيّب جبين الارض لتقول هزاته لهؤلاء الذين نزلوا من السيارة الاجرة ان اخضعوا فانتم امام اسياد هذه الأرض، لكل منهم شارب يؤكد لك ان العيب كل العيب يكون عليه لو لم يصدق صاحبه في كلامه ، وعصا من الشوم تؤكد لك ان الويل ملائيك لا محالة ان ابدت لاجاة أو غباوة ، ووجه بشوش باسم عن سعة يؤكد لك انك بالكرم الغزير موعود ، وانك ، بحسن التصرف واللباقة - من ها هنا - مولود ! ..

وهكذا فوجى العسكر الأربعة انهم قد أحيطوا بالكرم والاحترام على أكمل وجه . غداء سريع شهى أعقبه شاي ثقيل . وقبل الغداء بقليل استأذن « على السايح » من أخواله في فأس فجاء له به فاصطحب اثنين من العسكر ومضى بهما خلف الدار مسافة طويلة حيث توقف عند بقعة معينة طلب الفحت فيها ففحت العسكران حتى عثرا على الدفينة بالفعل ملفوفة في قماط من جلد حذاء قديم ، فلما عاد ورأى العسكران الاخران البشاشة والرضى في عيني زميليهما شملهم الاطمئنان وجلسوا للغداء في قليسل من التردد والترقب ، لكن كوبة الشاي الثقيلة تكفلت بعديل آدمغتهم على الصهلة الزاعقة والانشراح المجلجل بروقان الافيون المزروع خلفهم مباشرة على مساحات لا يحدها البصر ، لهدأ سمحوا لعلى السايح - من اربحية وطيب خاطر - ان يدخل ليسلم على زوجة خاله خلف باب الدار مباشرة ..

زوجة خاله كانت في انتظاره داخل حوش الدار الواسع المبعد .
 بالفأس الصغيرة كسرت أقفال قيوده ، سلمته الحصان والمدفع
 الرشاش وصاحت فيه : انطلق . فاندفع من الباب الخلفي لا ينظر
 خلفه قاصدا الجبل ، ولو رفع العسكر رءوسهم وتلفتوا حولهم
 لراوا فارسا متكورا فوق حصان يشق الريح مندفعاً نحو ركن بعيد
 من السماء ، لكن العسكر لم يرفعوا رءوسهم لأن مخدر الافيون
 القوي الذي شربوه مذابا في الشاي بكمية كبيرة كسر رقابهم فارتمت
 رءوسهم على صدورهم كرءوس العصافير الذبيحة فلم يشعروا
 بانفسهم الا وسائق الأجرة يجر جثثهم واحدا وراء الآخر عند
 « البوكس فورد » ويتركهم واقفين متهدلين يتطوحن ، لينطلق هو
 الى سبيله مثيرا سحب الغبار خلفه ..

ان حلفت لك بالله العظيم اننى جلست مع « على السايح » هذا
 تقول عنى كذابا . الوكيل ربنا ، لقد ربت بيديه على راسي وكفى
 فيما هو يستريح في دارنا مع رجاله . كانت أمى تخبز عيشا
 ليكفينا جمعة بحالها فياكل رجاله الخبزة كلها وتضطر أمى للخبز
 ثانية من صبيحة ربنا وهى في غاية الانبساط لأن الذى اكل خبزتها
 هو « على السايح » ورجاله . غير أن سعادة أمى كانت تجيء من
 ناحية أخرى ، اذ كانت تعرف أن « على السايح » يتلأأ في الطريق
 حتى يغمق ستر الليل ليذهب الى داره كي يجامع زوجته ويستحم
 ويغير ثيابه ليعود الى الجبل ، وكانت تعرف أن رجاله البالغ عددهم
 عشرين والذين يأكل بعضهم خبزتها الان سوف يحوطونه طول
 الطريق وأن هناك مثلهم أكثر منهم عددا يتراشقون بالأرض في طول
 الطريق من الجبل الى الدار يؤمنون له الطريق يصنعون من انفسهم
 ستارا فوق ستار الليل ولا يبدؤون في مفارقة مواقعهم الا بعد
 أن يروه مارا عليهم في طريق العودة ! ..

العمدة كان ابن عم « على السايح » وكان ينوب عنه في رعاية
 مصالحه في قبيته . في يوم من الأيام ذهب اولاد « على السايح »
 الى عمهم العمدة يطلبون قمحا لفدائهم ، فقال لهم في جفاء :

— هل خلفتكم ونسيتمكم ؟ روحوا لابيكم !

ذهب الاولاد الى ابيهم في الجبل فقالوا له نص الكلام ، فحمل
 « على » رشاشه ونزل من الجبل الى دار ابن عمه فراه واقفا
 بالصدفة في فتحة الباب ، فصوب نحوه المدفع الرشاش وضرب ،
 فأسرع العمدة باغلاق الباب ولكن الضرب استمر فاذا بقفل الباب

ينخلع من .. مكانه ويدخل في صدر العمدة، مع ذلك تمكن العمدة من شد التليفون للمديرية ، فلحق به العسكر وهو خارج من البلدة في طريق الجبل بين رهط من أعوانه ، هجموا عليه فراح يبادلهم إطلاق الرصاص حتى كومهم جميعا ماعدا اثنين حاصراه من الخلف وصوبا عليه حتى جعل جسد كالفربال ! ...
بموته تسوح أبى ، خاف من الخفارة ، أصيب بالتعنية والرطوبة ، جاءه والعياذ بالله « فكر » في رأسه جفف عوده وكسر شوكته ، فاشتغل مع عمال الكهرباء في معسكر ستة وعشرين الانجليزى ، فلم يمض حول واحد حتى وقع عليه القصف الكبير الذى يركبون من فوقه المواسير ، فمات فى الحال . مات يابوى وتركتنا يا حصرة لا وراءنا ولا قدامنا .

الملك واحد أمرى هو المبتدأ والخبر

شهور طويلة ونحن جوعى ، اى والله يا بوى ان قلت لك ثلاثة شهور تقول كذابا . الحق انها كانت ستة ، بمائتى ليلة ويوم الا عشرين ، الذى نبيت فيه نصبح فيه . كل فتلة خيط كل قطعة خشب كل شيء فى حوزتنا يصلح للبيع بعناه بغدوة بعشوة نحزم البطون بعدها اياما وليال ..

تقول اعمامى الفقهاء ؟ لقد فعلوا الواجب طبعاً كثر خيرهم ، اكثنا على حسابهم اياما ، واكتسبنا من ثيابهم مرات ، لكنهم هم انفسهم كانوا محتاجين للمساعدة . كلنا على باب الله العبد وسيدنا معا ، لم يكن بقى منهم سوى عم واحد ضريب ، بعد ان كانت صينية الشاى والقهوة تمر على ضيوفه اكثر من مرة أصبح لا يقدم لهم حتى جرة ماء ، بل كان يتركهم يجلسون كيفما اتفق ، بل كان ينتظر منهم غمرة يد دائئة بالحسنة عند انصرافهم وكان يوحى لهم بحركات يديه ان يفعلوها فاذا فعلوها بحسن نية قُضِبَ واحتاج هياجا عاصفا ينتهى بان يعطيهم درسا فى احترام العلم ومن يحملونه ! فالعلم رسالة سماوية وليس هو الا مكلفا بها والاجر على الله يقبضه منه سبحانه عاجلا او آجلا وكلما تأجل الاجر عند الله زادت قيمته!! نفس الكلام الذى كان يقوله للعامة ايام كان الخير يجرى فى يديه ! .. المقصود ، تكومنا فى المدار لا يعرف بلوانا الا ذو الخيمة الزرقاء التى تظل كل عباده . امرأة خالك يا ولدى قلبها سخن دائما ، ودماغها ناشف لا يستطيع الزمن كسره ولو كان حديدا .. تذهب تساعد بعض الجارات فى بعض الاشغال ، فى الخبز لقاء بضعة ارغفة ، فى الطحين لقاء حفنة من الدقيق ، فى الدبح والطبخ لقاء طبق من الطعام ، كله ينفع ، ولكن لوقته فحسب ، فما العمل يا بوى ؟ .. البنات عندنا لا تشتغل ، نموت جوعا ولا نعرضهن للبهلة ساعة واحدة عند الناس . اخى الوحيد طفل رضيع باكبدى . الدور والباقي كله على انا ، هذا ما كنت اقوله لنفسى وانا اتكور على نفسى منحشرا فى القاعة بين اخوتى ..

اينا عشر عاما كان عمرى وقتها ، طويلا كنت كما ترى والبس

فوق رأسى لبدة مقصوعة للوراء وأبدو رجلا لا ينقصنى من صفات الرجال شيء فكى اشتغل مثلهم وأشقى مثلهم ، ولكن فيم أشقى وأتعب ؟ لقد كان أبى رحمه الله يملك القوة ويلف يبحث عن يستأجرها لقاء سيجارة . ها انذا - أيضا - املك الشباب ولا أعرف كيف أملا بطنى وحدها فمن ياترى يملأ هذه البطون التى ضمرت فىنا وسحبت البصر والضوء من عيوننا ؟ ..

امراة خالك تدفعنى فى كتفى قائلة فى غيظ : انزاح ، وليس من مكان انزاح اليه ، لكننى أعرف سر غضبها فاقول : حاضر ، ثم اذهب واقفا ، فأراها تشوح فى وجهى قائلة : الا تتحرك يا ولد ؟ الا تفعل ما يفعله الرجال ؟! ماتفيدنا حشرتك الآن بيننا ؟! يا اخى اسرح على باب الله فكل الرجال يسرحون كل يوم ويعودون بخير كثير ! اسمع يا ولد ! ارض النصارى قريبة من هنا وفيها زرع كثير ! اذهب اليها وهات منها شيئا ناكلك ! انها مزروعة قمحا ! خذ القفة واملاها عن آخرها بالسبلات وتعال ! واحذر ان يراك أحد وانت تفعل هذا ! لا يهم ان يراك وانت مقبل بها المهم الا يراك وانت تسرق ! فاتكل على الله ياجدع ! اتكل على الله ! »

هل أغشك ؟ اتكلت على الله ، حملت القفة وخرجت ، قصدت بلدة « أبو حجر » القريبة من بلدتنا قرب الأنف من الغم ، كل أهلها من النصارى ، وزرعهم واسع ، لا تحده حدود ، يستأجرون الأنفار للزراعة ولديهم ماكينات المياه تروى. الخفراء معدودون لا يستطيعون حصر هذه المساحات الشاسعة فى عين حتى ولو كانت بنظارة معظمة . اخترت منطقة مقطوعة منزوية عن الطريق ، أخذت أحصد السبلات وأعبء القفة حتى ملأتها لثمها ، خرمت عائدا الى دارنا، أفرغت القفة فصنعت كومة كبيرة شكلها مفرح . قالت أمى مشيرة الى القفة املاها مرة أخرى . قلت : حاضر يام ، وانطلقت متابطا القفة ، ومن منطقة أخرى ملأتها وعدت ، فلما أفرغتها استدردت من الفرح عائدا لأملا القفة مرة ثالثة . بعد المرة الرابعة صار لدينا حصيدا يصلح طحيننا لخبز عائلة ، مع ذلك قالت أمى : اذهب مرة خامسة . وكنت قد تعبت ، فقلت لها : كفى يام . فجعلت تتحابل على وتقبلنى وتستحلفنى برحمة أبى وانا أقول من الضيق : كفى يام . لكن الذى طلع عليها هو مرة خامسة . فقلت : أمى الله ، وحملت القفة وخرجت . الدار المجاورة لنا مباشرة لدى أهلها كلبة شرسة مخيفة ولدا يفلقون عليها باب الدار باستمرار ولا أحد

يستطيع دخول الدار الا ان امسك أحد أهلها بالكلية من جنزيرها .
لحظة خرجت من باب الدار وضعتني الخطوة الثانية أمام بيت
الجيران الذي كان مفتوح الباب في هذه اللحظة . ما أدري الا والكلية
قد هجمت على بالفعل واطبقت أسنانها على يدي اليسرى وأخذت
تجر جرنى وأنا اصرخ حتى خلصوني منها بالعافية وخرجت أمي
تلطم وجهها قائلة : أنا السبب ! أنا السبب ! آه من فراقة العين ! ..
ولم تقل أمي أن السبب هو الحرام الذي شجعتني اليوم على
ارتكابه ! ..

رقدت بهذه العضة شهرين كاملين يابوى لا حقنة ولا برشامة
ولا أى شيء سوى البصلة فوقها حتى طابت ولكن آثارها لا تزال في
يدي مخلقة عاهة مستديمة ..

طاب الجرح لكن جرحا في داخل النفس لم يطب ، تخرجت
الى الحقول من جديد أطلب الرزق في غلس الظلام والقي به في حجر
أمي أقول لها : كلى يام أنت واخوتي فالهم عندى رضائك يام .
لكن أمي بدات تخاف على ، وأنا أيضا بدات أخاف على نفسي
صحيح أن ربك يكرمى ويعيدنى الى أمي واخوتي سالما ولكن ما كل
مرة تسلم الحجرة على راي عمى الفقيه الضريب ..

في يوم كنت أرتب لسرقة مخزن غلال في دايير الناحية بجواره
مندرة حولها صاحبها لقعدة تبيع الشاي والسكر والدخان والحلاوة
الطحينية والخيط والابر ، يجلس فيها الرجال يشتركون في زردة
شاي ثقيلة ، الواحد بقرش تعريفة ، لكن لا يجلس في هذه القعدة
يابوى الا من لديه قرش تعريفة ، القرش لا يوجد الا في حنك سبع
ممن عندهم أراض او من قطاع الطرق ..

عيل مثل حالاتي لو جلس معهم يخدمهم طول القعدة اذا نابت
شفطة شاي من الدور الثالث تبقى بركة . هدفى لم يكن شفطة الشاي
هذه ، ولا قعدة الرجال ، انما كنت أتسقط أخبار المخزن من صاحبه
الذى يجلس في هذه القعدة على الدوام ، كنت أريد أن أعرف أن
كان نقى سيحىء على شونة تبين أم على بضاعة ثمينة يمكن بيعها
او أكلها ، ولقد عرفت أن في المخزن الكثير يابوى وأنى سساكل
الحلوى والشهد لو وفقنى الله ، والمسألة بسيطة ، فهذه القعدة
جزء من مندرة بقطوع مبنى ، وبقية المندرة هى المخزن ، وبينه وبين
القعدة باب خشبي لو دقرت فيه كفى دقرة واحدة لانفتح ، حينئذ
أدخل فأحمل تليسا من القمح او البرسيم ، التليس كما تعرف

زكية مصنوعة من صوف الماعز تسع ثمانى كيلات ، وكل الناس عندها تلاليس ، وليس يعرف أحد تليسه من تليس الآخر ، ساحمله وأخرج من باب هذه القاعة المظلة على الشارع بعد فتحه من الداخل حيث أننى لو نزعنا الشناكل الداخلية لاسمعت الفجوة بين لسان القفل وبيته فى ضلفة الباب ، فينفتح الباب ، مهمتى اذن هى أن أبقي جالسا هكذا حتى نهاية السهرة وأتسلل قبل الإغلاق لأنام بين الأجولة فى ظل التلاليس داخل المخزن ، فيفلقون الباب على وينصرفون ، وقبل اذان الفجر بقليل أفعّل فعلتى ، ومن يدري؟ ربما تمكنت من العودة الى المخزن مرتين أو ثلاثا قبل أن ينتبه أحد لآى شيء ! ..

تذكرت يابوى أن الرجل صاحب المخزن مسيحي ، وكل مسيحي فى بلاد الصعيد لابد له من « بدوى » يحميه ، حتى لو كان المسيحي رجلا أبهة من ذوى الأملاك الواسعة و « البدوى » جربوع شحاذ حافى القدمين . طلعت على الدنيا وأنا أرى هذا النظام فى كل بلد من بلادنا ، وكنت أحلم أن أكون ذات يوم « بدويا » لواحد من المسيحيين الأغنياء ، فهو العمل الوحيد الذى ليس عليك أن تتعلمه ، يكفى أن تكون ولدا بلطجيا. قتال قتلى ولك سمعة واسعة فى السفالة وقلة الأدب أو فى الشهامة والجدعنة والرجولة ، ففى الحالتين ستجد من يسعى اليك لتكون بدويه يطعمك ويكسبك ويعطيك مصروف يد وجعلا معينا من المحاصيل ، وليس المطلوب منك أن تفعل يابوى ، يكفى أن يعرف الناس أنك بدوى فلان الفلانى لكى يتجنبوه ويتركوه فى حاله ، أو يكون المعتدون أقوى منك فيفعلوا ما يشاءون تحديا لك وللمسيحي الذى يتحامى بك ! . المسيحيون عظمة زرقاء يابوى فهذه الطريقة امتنعت خناقاتهم مع الناس المسلمين من أهالى البلد ! الخناقات تحدث بسببهم فحسب ولكن بين المسلمين وبعضهم فحينما تكون أنت بدويا لأحد المسيحيين وأجىء أنا فاسرق داره أو زرعه أو ماشيته أو أعرض له فى الطريق بأى سوء فإن هذا لن يخلصك بالطبع وسوف تشعر أن العدوان موجه اليك وحلك ولسوف تنتقم منى شر انتقام ما فى ذلك شك خصوصا عندنا فى الصعيد ! ..

دوبت فى دماغى فعرفت أن « بدوى » هذا الرجل صاحب المخزن هو أقرب رجل فى « كوم سعيد » بل فى القنايم كلها : عم « عمران زهران » الذى لا شغلة له ولا مشغلة ، هو فى طول عرق

الخشب يابوى ، وفي تخن تليس ملان ، يقول الكبار والمجانز عنه ان عدد قتلاه في عدد شعر رأسه الغزير الموش تحت تليفة جرباء حيث لا لبدة ولا طاقة تستطيع ان تلمه تحتها ، غير انه اهتدى في اواخر ايامه منذ ان اختاره المعلم « ميخايل بطرس » بدويا له ، اذ بسطه وخصص له جلبابين في العام واحدة للصيف واخرى للشتاء كما خصص له دخان سجائر يشربه وتلايس قمع وذرة يأكلها هو وامه وشقيقته العاجزة . شغلته طول النهار ان يجلس تحت قرص الشمس يغلى ثيابه من القمل والبق والبراغيث المختبئة في خياطة الثياب ورقمها . عم « عسران زهران » هو تسلية كل عيال البلدة ، يجيئون له من اقصاها الى اقصاها ليتفرجوا على .. ايره !!

اي نعم يابوى ، فقد كان لهم « عسران زهران » اير عجيب مبروم كنخلة صغيرة وكان عم « عسران » يضطر للمشي مفرشعا يظل عم « عسران زهران » مرميا على الأرض وابره مرمى بجواره طول النهار عاطلين ، ذلك ان عم « عسران زهران » لم يتزوج قط ، لان فتاة من فتيات البلدة لم ترض به يابوى . جرب حظه في بلاد اخرى ، لكن دخلته على الناس في دورهم على هذا المنظر كانت تثير فزع الرجال وتذهب عقول السيدات ، ليس بمعقول ان يرضى به رجل زوجا لابنته ، فخير للرجل ان يظل هذا الابر العجيب خبرا يتناقله الناس من ان يكون حقيقة قريبة منه يمكن لحريمه رؤيته في اى لحظة ، ان اى رجل يابوى لابد ان يتخجل من ايره اذا رأى اير عم « عسران زهران » ولهذا طارده الرجال في كل زيجة حاولها حتى عقدوا نفسيته ، فبربت عليه بحنان شديد قائلا : « معاش لك رب يسمى الكريم ! » ، وتبدو الدموع في عينيه حقيقة تكاد تطفز ! .. اى والله يا بوى قادر ربنا يخرسنى لو كنت اكذب ! .

كنا نتذكر يابوى ان نصف قتلاه من النساء فوجيء الناس بجثثهن مرمية على الطرقات وفي الحقول عاريات ممزقات ، فترعد وتكاد تقع من طولنا . نتذكر ايضا ان عم « عسران زهران » اشتغل في كامب الانجليز سنوات طويلة بابره ، لم يكن يعمل اى عمل ، انما عليه ان يجلس في مكان ما في الكامب معريا ساقيه ليظهر ايره منحعسا ، وكانوا - يسألونه اسئلة كثيرة ويجاوب عليها يأخذ نقودا في نهاية الامر . تلك كانت احسن ايامه اشدها رواجا ولا يزال

الناس يتكلمون عنها على أية حال فإن عم « عسران زهران » كان دائما ينهى كلامه بأنه أحسن من كافح الانجليز وحاربهم وتكل بهم اذ هو لم يقتلهم فحسب بل هزا برجولتهم .

عم « عسران زهران » يابوى ليس له فى الخناق ولا المراك رقم ضخامة جسمه ، كل الناس فى الفنايم قبلى يعترفون أن عم « عسران زهران » أقوى مافيه ايره رغم انه لم يستفد منه فى الناحية التى خلق لها أصلا . والمعلم « ميخايل بطرس » حين اختاره بدويا له كان ذلك لخوف من ايره : أن يفكر عم « عسران » فى استخدامه ضده خاصة أن المعلم « ميخايل » وأسع الدرية معظمها فتيات يقرن لستنا « مريم » العذراء قومي لتقعد مطرحة ليس المعلم « ميخايل بطرس » وحده من كان يعمل حسابا لايه عم « عسران زهران » ، إنما البلدة كلها والبلاد المجاورة كانت تخشاه ، ليس لعدم ثقتهم جميعا فى حريمهم بل لعدم ثقتهم فى أنفسهم ، فلو أراد عم « عسران زهران » أن يكيدهم من الكيد فإنه - فقط - يمشى مشوارا فى شارع دابر الناحية وما يتفرع عنها من حارات ، يمشى فتراه وهو مقبل حيث يغوص الهواء بجلبابه بين ساقيه مجسدا ساقه الثالثة المتورة عند الركبتين فيصيبك بالجنون ان كنت شابا حرا ، لسوف يكون اول شعور يدهمك لحظتها ان هذا الفحل الجاموس جاء يتحدى أنوثة حريمكم وذكورة رجالكم على السواء . . .

صدقتى يابوى أن بعضهم فكر فى قتله ، لكن اغلبية كبيرة اقنعت الجميع أن قتله خسارة ! فهو شيء يستحق الفرجة ولكن فى مكان منعزل . صراحة يابوى كنت معجبا بهذا العم « عسران زهران » أعجبا شديدا . كان ثانى رجل بعد « على السايح » يخلب لى ويستولى على كل جوارحى وخيالى ، الاول لانه قاوم الحكومة وقتلها ، والثانى لانه قاوم الانجليز بايره . ولكن لما تذكرت انه البدوى الخاص بالمعلم « ميخايل بطرس » صاحب هذا المخزن خفت منه ، لا هو لابد أن يعرف يابوى ، لأن « عسران زهران » يسهر فى قعدته بين المخزن ودارنا ، يعنى لابد أن امر عليه من هنا ومن هاهنا ذاهبا أو آييا ، وهو رجل عكروت وضرس ، لو كان فى عز الشيخير ومر بجواره من يحمل شيئا اى شيء فإنه يصحو فى الحال وينظر فيه ، ولا بد أن يعرف من هو وما الذى يحمله ومن اى مكان هو قادم والى اى مكان هو ذاهب ، وان كان غريسا عرفه فى التسو

واستوقفه بشخطة واحدة . ويسألون هم « عسران زهران » كيف يتأتى له الصحو المفاجيء عند مرور من يحمل شيئا ؟! فإذا هو يقول : اعرفه من وقع خطواته على الأرض ! فمن يحمل شيئا تكون خطواته أثقل ودبها على الأرض أشد وقعا وصوتها أكثر رنيناً في أذنى التى أضعها فوق الأرض بدون مخدة ! .. فكيف أنجو من هذا الرجل يابوى إذا وفقتى الله وسرقت المخزن ؟! هل أقتله وهو نائم ؟! لا أريد ، بل لا أستطيع ! ..

دماغى أخذ يذهب ويحيى يابوى ، وإذا برجل قادم من عند دوار العمدة يقول أنه سمع الراديو يقول ان الملك فاروق الاول ملك مصر والسودان تنازل عن العرش لولى عهده « أحمد فؤاد » الطفل وأن الجيش المصرى حكم عليه بمغادرة البلاد قبل الساعة السادسة وأن هذا الكلام فات عليه أكثر من جمعة ونحن لا نعرف يابوى . بقينا أياما طويلة نجرى على الراديو فلا نسمع الا غثوة : « ع الدوار ع الدوار .. راديو بلدنا فيه أخبار » ..

وأخيرا وصلت الأخبار يابوى ، عرفتھا ممن يفهمون كلام الراديو . أخبار مفرحة يابوى وفيها أشياء لا يصدقها المرء ، حيث ان البلد انقلبت جمهورية وجاء العصر الذى ينفع الفقراء ، لم يعد هناك باشا ولا بك ولا اقطاع ، فلما سألتهم : « اقطاع يعنى ايه يابلدنيا ؟ » قالوا لى : يعنى أرض النصارى وأمثالهم من المسلمين ولسوف توزع على الفلاحين الذين يزرعونها !! وقالوا كذلك ان التعليم صار بالمجان وأن كل الناس مثل بعضهم امام مراكز البوليس والمحاكم والحكومة !! قلت يا أسيادنا قولوا كلاما غير هذا يصدق المرء ! قالوا : كنت بهيما وأذن الله أن تصبح آدميا فانهم يابجم . القصد انى بقيت شهورا طويلة لا اصدق هذا ، فى كل يوم أزداد جراءة فى الهجوم على الحقول وزرائب المواشى وقطعان الخنزير فلا أجد من يردنى ، بل كان يصادفنى من يرأى عائدا بالسرقة مضطرب الخطوات مبغثر النظر فلا يهتم بى . قد ينظرلى نظرة ذات معنى ثم يحول وجهه عنى ويمضى فى حال سبيله ..

وسمعت ان ملاك الاراضى يوزعون أراضيهم على اولادهم واقاربهم كتابة على الورق فحسب حتى لا يزيد ما يملكه الفرد عن مائة فدان . قلت : حلو . ثم لاحظت ان اولاد الاغنياء والباشوات والبكوات انكسرت شوكتهم والتوت وجوههم وهجر الابتسام شفاههم فقلت : يظهر ان كلام الناس صحيح وأن الله قد اذن بقيام العدل فى هذه

الدنيا على أيدي هؤلاء الذين يسمونهم بالثورة .
الى أن جاء يوم رأيت فيه بعض الخدم يصمون آذانهم عن
داءات أسيادهم ! وبعض الفلاحين يتبجحون في مواليتهم ! وبعض
الغلبة يرفعون وجوههم وربما السنتهم في وجه عسكري البوليس
بعد أن كانوا يلتمعون له أضرار سترته ! وبعض التلاميذ الفقراء
يتعاركون بجرأة مع أولاد الدوات ويشتمونهم ببساطة ! .. فقلت
في نفسي : الأمر أذن صحيح يا ولد . ومن يومها شعرت أن الدنيا
قد اتسعت أمامي والدار التي نسكنها بغير سقف صارت قصرا .
صرت أفعل مثلما يفعل الخلق من أمثالي ، اتباهى بأننى فلاح ابن
فلاح وأننى صعيدى ، ليس عبد الناصر كله من بلدتنا ؟ ..
المدى جاء في دماغى أيامها اننى يجب أن أسافر الى مصر ، ولم
أكن أعرف يابوى أن اسمها القاهرة ، لكننى منذ جعلت أهتم بسماع
الراديو كلما تواجدت بجواره ، كنت أسمع المذيع وليس في فمه سوى
كلمة : هنا القاهرة ! هنا القاهرة ! هنا القاهرة ! .. قلت وما القاهرة
هذه يا جدعان ؟ قالوا انها مصر يا بهيم ! التى فيها سيدنا الحسين
والهرم والسيدة زينب والامام الشافعى والازهر الشريف ! .. صحت
قائلا : الذى تخرج فيه أعمامى وأخذوا شهادة العالمية ؟ قالوا : نعم .
قلت : والله لآسافرن . قالوا : تسافر أنت الى مصر يا حسن يا ولد
حميدة ؟ قلت : أعمامى من قبلى سافروها . قال « برعى » ولد
الفرطوس : مصر لو رأتك انزاحت عن مكانها ورحلت . وقال « هادى »
ولد « مخيمر العيان » : والله لتفرق . فضحكوا حتى فرجوا على
الخلق . قلت لنفسى ! وهل هذه مشكلة ؟ وتركتمهم وانصرفت ،
ولكن صوت المذيع بقى في اذنى ليل نهار يصيح في تفاخر كبير : هنا
القاهرة ! فأكاد أضع ذيل جلبابى بين أسناني وأقلع عليها .. لكن
ذلك أخذ منى وقتا ، ذيل جلبابى موضوع بين أسناني على الدوام
وكنا في موسم القطن ، أهجم على مفارش الجمع فأدحرج زكية الى
مخبا آمن ثم أحملها وانطلق : أو أملا حبرى مرات عديدة . أكرمنى
الله وحوشت ما يزيد عن قطارين وفي إحدى الليالى جئت بتاجر
من بلدة بعيدة عابن القطن واشتراه بمبلغ حلو أغرانى بشراء محفظة
بسلسلة مشبوكة في عروة الصديرى ، فرحت بها أعظم الفرح وقلت
لها : ان شاء الله تظلين عامرة ، وقلت لنفسى : شيء ممتع أن يكون
في جيب الواحد محفظة والامتع أن يكون في المحفظة نقود ، وكل
الناس في جيوبهم محافظ ولكن ما كل المحافظ فيها نقود ، انما

النقود في اكياس التجار ، ومفروطة في جيوب ملاك الاطيان ، ومكومة في خزائن تحت الارض ! ..

جاءني الهاتف أن لى لقمة عيش مقسومة في مصر القاهرة التى فيها الثورة والجيش وفيها الخير كله والنعيم كله . دخلت على أمى قلت لها : كم يكفيك يام الى أن يخبز الله لى عيشا في مصر ؟ قالت : يكفيننا ما يرزقك الله به قل أو كثر . اخرجت المحفظة فمدت أمى كفها وسحبت زغرودة افزعتنى وفرحتنى . اخرجت من المحفظة جنيتها مددته نحوها واثقا أنها سترقص فرحا به وحده معتبرة أنه فضل وعدل . نظرت في عينيها فرايت هذا فسحبت الجنيه الاخر وشرعته نحوها : مالوش تانى . قلت باسسمه : الجنيه ؟ قلت ضاحكا : بل الله ياوليه . ورجت أعد حتى خمسة : كفى هذا يام ؟ . بسطت ذراعها رافعة كفيها نحو السماء صائحة : ان شاء الله بما اشتبهك ! الالهى يكتب لك في كل خطوة سلامة يا حسن يا ابن بطنى ! الالهى ما شمت فيك عدو ولا حبيب ! الالهى يرزقك برزق اليتامى ويوقف لك ولاد الحلال ! خذ من قلبى وصر ! ..

شعرت يابوى كان بدنى كله يرتعش ودمى يفور صاعدا نحو السماء برأسى . اخوتى البنات تحلقن حولى صرن ينظرن لى في فرح وبهجة وفي عيونهن رغم ذلك حزن كبير يابوى . اخى الرضيع يتسلق اكتافى يهبشنى بأصابعه الطرية ذات الرائحة اللبنية الحلوة فأخذت أقبله في فمه فصار بعضض فى انفى بضراضيره فشعرت كأننى الأب وهم جميعا ابنائى ففاضت الدموع من عيني فمسحتها ضاحكا بصوت عال وقلت لأمى : خذى يام ! ليس خسارة فيك ولا فى اخوتى ! .. صرت أعد حتى اكملت العشرة جنيهاات ، وتركت المحفظة تتدلى من سلسلتها كراس ذبيحة ذليلة ، ورفعت ذراعى وقلت لها ما كنت أسمعها دائما من عمى الأكبر الشيخ « عجلان » : اليد العليا خير من اليد السفلى يام ! هذا كل ما معى من نقود وهى لك ، لقد رزقك الله بها وكنت أنا مجرد وسيط وهالندا قد سلمت الامانة وما عليك الآن يام سوى أن تعطينى أجرة المسكة الحديد لاتوكل على الله من قد الى مصر ان أحيانا المولى الكريم وأعطانا عمرا . فتحت أمى فمها وصارت تفكر ومن فرحتها لم تدر ما تقول . وكانت أختى الكبرى « سلمى » جالسة ناسية نفسها فبان جزء كبير من وركها فرفعت عيني عنها منتفضا فسقط بصرى على جذعها الممتد وصدرها العريض المتلىء فوقف بداخلى مارد من

الخوف . نظرت برقمى الى اختى الثانية « مندوهة » فرايتها
هى الأخرى عروسا تكاد تتفوق على « سلمى » والى الثالثة
« سعدية » فرايتها تملأ القتل واقفة وتميل بالكوز لتغرفه من الزير
فتبدو وكأنها تشاغب خراط البنات الخبيث الذى يشكل مؤخرتها
فى كل ميلة باستدارة جديدة وينحت خصرها فى كل استدارة بسحبة
تفرق المسافة بين خصرها وصدرها النافر ويطل من رقبتها السرحة
المبرومة ويدهن وجهها البيضاء كما ندهن وجه الفطير بالزبد
والقشدة ويوسع من عينيها السوداوين تحت العصبة المشغولة
بالفل والترتر . وبحثت عن اختى الرابعة « هندية » فوجدتها
قابعة قرب الباب منهكة فى صنع عرائس الطين . وكانت الدموع
تريد أن تضغط على عيني يابوى ، لكن ولدخالك سيد من يكتم
الدموع . اعتدت اختى الكبيرة « سلمى » وقالت لأمى : اعطه خمس
جنيهاً بحالها يأم ! فسوف يتغرب وليس له من سند غير الله
والقرش الأبيض ينفع فى اليوم الأسود وليس أسود من أيام الغربة
يأم ! وقالت اختى « مندوهة » بصوتها الناعم الدافع الى البكاء
باستمرار دون أن يبكى : ليس خسارة فيه يأم ! انه الرجل وهو
الذى يأتى بها . وقالت اختى « سعدية » بصوتها الرجولى الجميل
ومن بين شفتيها الفليظتين : ربنا يخليه ! لسنا نطلب من الله غير
صحته ونفسه فى الدنيا . أما اختى « هندية » فقد استدارت نحونا
عائدة تمسح يديها فى ثوبها ووجهها كله عبارة عن بسمة لاهية كان
شيئاً لا يدور حولها ولكن فى عينيها بريق الانتظار لآى خدمة نطلبها .

يومها أكلنا ذكرا من الأوز المزغط من شهر مضى . ومن صبيحة
ربنا صررت هدمى كلها فى جعبة من الورق مكتوب على وجهها
شأى نوزو ولها مسافة من الطرفين من خيط مبروم ملون يمر خلال
كبسولات ، كنت قد اشتريتها من مولد القناتى بقرشين من خمسة
وعشرين قرشا نسلتها من فلاح شارد ذاهل داخل الملاحى . قمزنى
أمى بجنيهين مطويين أربع طيات وقالت لى : ربنا معاك يا ولدى ، ثم
احتضنتنى وقبلتنى . قالت أخت « سلمى » وهى تدارى الدموع
فى عينيها وتتمخط فى ذبل جلبابها : خل بالك من نفسك يا خوى !
لا تختلط بأولاد الحرام وأهل السوء ! فقلت لها : كله على الله
ياأختى ، ثم احتضنتها وقبلتها . وقالت اختى « سعدية » :
بالسلامة ياخوى ترجع لنا غانما ثم احتضنتنى وقبلتنى . وقالت
اختى « مندوهة » وهى تمقل صوتها وكلامها خوف الانفراط فى

البكاء : مع السلامة ياخوى ، وأغمضت عينيها وتركتني أقبليها على جيئها . وحملت أختي « هندية » جمعة المخلقات وقالت وهي لا تزال تبسم : سابقاك على المحطة ياخوى . فنزعت الجمبة من يديها قائلاً : والله ما يكون أبدا ! إن محطة المسكة الحديد بعيدة في بلدة أخرى ولست آمن عليك الرجوع وحدك ، ثم احتضنتها وقبلتها ، ووليت وجهي نحو الباب وخرجت ، وبقيت عيناى مسلطين على الهواء في الطريق لا ترمشان خوف انهمار الدمع ، لكننى كلما صادفت أحدا في الطريق رفعت ذراعى بالتحية دون أن أنظر إليه صائحا : اشوف وشك بخير ، فيقول لى : مع السلامة ربنا وبياك .

ألقيت نفسى على كرسى القطار بجوار الشباك وجمعة الهدوم على ركبتي ، فلما صفر القطار وزحف ، وزحفت الى الوراء كل معالم البلدة انهمر الدمع غصبا عني ، فأغمضت عيني وتركته يسبح كيف يشاء ، حتى نمت ، وكلما فتحت عيني ورأيت الأرض وأعمدة التليفون والشجر يتراجع خلفى دخت وغطست في النوم من جديد حتى صحائى واحد من الصاعدة قائلاً اننا صرنا في باب الحديد . قلت وما باب الحديد هذا يا ولد بلدى ؟ قال : بوابة الدخول الى مصر من المحطة . قلت : هل وصلنا اذن الى مصر ؟ قال : حمدا الله على السلامة . صحت قائلاً من فرحى : هنا القاهرة . ضحك كل من في عربة القطار وراحوا يتساقطون على الرصيف ويدفموننى بينهم وسط زئيط هائل وأرصعة عديدة وسقف من الحديد والجميلون وكمسارية وشيالين وباعة جرائد وفول سودانى وحلويات وشاى وكازوزة وماسحى أحذية وزبيلة وزنبليطة . فلما صرت في الخلاء كانت يدي قد أمسكت بالورقة المكتوب فيها اسم رجل بلديانى يعمل مقاولا للأنفار هاهنا ومقر عمله جبل المقطم .

ما لك من شأن الأولة . مقابلة شخصية مع الدنيا

دلتى اولاد الحلال على جبل المقطم ولكن احدا لم يستطع ان يدلنى على بلدياتى . غير اننى وانا اسال عنه بين المعلمين عثرت على بلديات آخرين كثيرين ، منهم رجل من بلدة « اولاد الياس » شغلته تكسير الجبل بالديناميت . قال لى : « تريد تشتغل ؟ » . قلت : « نعم » . قال : « كم تطلب اجرا ؟ » . قلت : « لا أعرف » . قال : « أعطيك عشرة قروش بحالها » . قلت : « تشكر » . قال : « تعرف هذه الشغلة ؟ » قلت : « اتعلم » . قال : « شغلتك معى ان تحمل قطع الحجارة فى قفة وتنقلها الى بريد ! » . قلت : « ماشى ! ربنا يعينى ! » ..

دور فالثانى فالثالث فالرابع عشر ، جاءت الظهيرة وتدللد لسانى من العطش ، وصرت أجزر قدمى وأتألم من ورم يبق على سطح دماغى ، والرجل ينظر لى ضاحكا . هات يدك يا ولد عمتى ، تحسس هذه البقعة فى رأسى ، هذه ، ضع أصبعك مكان أصبعى هذا فوق قمة رأسى بالضبط ، فما هذا الذى تلمسه يدك ؟ انها دماغك متجمدة فوق رأسى اليس كذلك ؟! انها من اثر الشيل فى يوم واحد فهو ذلك اليوم الذى أنهيته بالضالين ، ورحت أشرب جرعة ماء من عند رجل آخر مجاور ، شغلته نفس شغلة صاحبنا . قال لى : انت منين باشاطر ؟ قلت : من الغنايم يا آبا . قال : أحسن ناس ! تجيش تشتغل عندى ؟ قلت : وهذا الرجل الذى اشتغل عنده ؟ قال : لا بهمك منه ! ساعطيك اثنى عشر قرشا فى اليوم ولن تحمل ديشا ! ستمسك لى الفتيل أثناء ما اشتغل . قلت : ان كنت تحمينى من الرجل الآخر أهلا وسهلا . قال : خليها على الله . المقصود ، نمت فى محجرة ذلك المساء ، فى الصباح اشتغلت معه ، يوم يومان جمعة شهر أربعة أشهر ، ارى بين يدي مائة وخمسين قرشا ارقص من الفرح أجرى الى مكتب البريد ارسل المبلغ لأمى ..

تغير أن الرجل تعلمن يا بوى وساق اللؤم على ، بدأ يشيلنى قفف الدبش هو الآخر حتى انعجت رأسى . الرجل كان يسكن فى حى اسطبل عنتر بجوار دار السلام على خط المعادى من الطريق

الزراعى ، وقد احس اننى انوى التملص منه فاراد ان يستبقينى بصنعة لطافة ، قال لى : اليس لديك نية فى السكن يا ولدى ؟ قلت : لى . قال : تسكن فى اسطبل عنتر ؟ قلت : اسكن فى ابنى زبد الهلالى نفسه . قال : اليوم تذهب معى الى البيت ..

فى حارة تبعد عن الحارة التى يسكن فيها بحوالى خمس حوارى فرجنى على عشة مدفونة بين صف من العشش مليئة بالخشروم والشروخ ايجارها خمسون قرشا فى الشهر ، قلت : بركة ورثى ، ونقلت اليها جعبة هدومى ، وفى الصبح اشتريت حصيرا ومخدة وبطانية جيش قديمة وقلت لنفسى هانت ذا قد اصبحت ذا بيت فى مدينة الحسين والازهر والسيدة ..

كل يوم افوت على عربية من عربات الفول « اشط » ثلاث اربع ارغفة مع طبق الفول ابو زيت حار وحزمتى البصل فيخيل لى اننى قد صرت ابازيد الهلالى سلامة ، واتكل على الله صاعدا الجبل لا تقابل مع الشمس فى فتحة الحجر . وفى طريقى كل يوم امر على الكورنيش لكى اتفرج عليه فارى السماكين فى مصر القديمة يفرشون باسماكهم صانعين سوقا كبيرة منظرها يفرحنى . وكانوا كلهم يبيعون : وكنت فى الاساس افكر فى شراء سمك آكله ، لكننى صرت اذمن الفرجة ولا اشترى ابدا ، الى ان وقفت ذات صبيحة اتفرج على رجل وهو ينقل زنبيل السمك الى عربية نقل وكان يحمل وحده : فلما رآنى قال : بايدك معاية والنبي يابلدينا . فشمرت ثوبى وحملت معه الزنبيل ، ثم ساعدته فى غيره وقهره حتى انبسط منى وقال لى : تشتغل معى ؟ قلت : تعطينى كم ؟ قال : اعطيك ربلا فى اليوم ، قلت : قليل . قال خمسة وعشرين قرشا ولا ملين بعدها . قلت : على بركة الله . قال : فاركب . فركبت بجوار السائق وانطلقت بنا السيارة الى المعادى ، حيث يوجد لهذا الرجل محل كبير يبيت فيه الاسماك ..

لص انا قيراط ، اما هو فاربعة وعشرين قيراطا فى اللصوصية اى والله يا خال . تعلمت منه الكفت يا خال . مهمتى كانت الجلوس امام حوض السمك الذى يشبه قاربا من الالونيوم ، اتبصص على الزبائن وهم ينتقون الاسماك ويضعونها فى القراطيس قبل الذهاب الى الميران الذى يقف المعلم قصاده . وكنت اظن ان واجبى نهر الزبائن ومنعهم حين اراهم ينتقون السمكات المصاحبة كلها فى قراطيسهم ، حيث اصيح فيهم قائلا : ومن الذى سيشتري هذا

السماك الصغير بعد نقاضته البيع عندنا كله في رقاب بعضه الكبير
 يزن الصغير . فبعض الزبائن يصيح في محتجا ، وبعضهم لا يسأل
 في وينتهز فرصة الصباح فيملا قرطاسه باطيب ما في الحوض
 من سمك ، فاصرخ فيه منها اننى لست نائما على عيني ، واقف
 مسرعا فاخذ القرطاس منه وادلقه في الحوض . حاجات طريفة
 ومسلية كانت تعجبني فافعلها بلذة كبيرة . هنا يشخط المعلم في -
 لزوم الصنعة واثقان المعلمة - يامرني بان اترك كل واحد ينتقى على
 كيفه ، صحيح اننا سنبيع السمك المتبقى بالخسارة ولكن الزبائن
 في النهاية هم زبائننا والمحل محلهم ! ..

شيئا فشيئا بدأت اغفل عن الزبائن وانتبه اليه هو ، اراه
 ينتقى للزبون بنفسه ما يختاره الزبون ، وياخذ القرطاس ويستدير
 معطيا لنا ظهره العريض واضعا القرطاس على الميزان ، فاذا به
 رغم امتلائه يحتاج لسמكة صغيرة حتى يكتمل الرطل ، او معها
 أخرى كبيرة مغرية ليصير الوزن رطلين ونصفا في حين ان الزبون
 طلب رطلين فقط ، لكنه اكراما للسמكة الكبيرة يقبل الزيادة .
 يعطيني المعلم القرطاس لاضع عليه ورقة أخرى واطوى عليه حوافه
 أنظر في القرطاس فلا أجد السمكات الكبيرة الكثيرات التي رايت
 الزبون يحشرها في القرطاس حشرا ، فادمخول ، ويروح مخي يضرب
 يقلب .

المعلم لم يجد مفرا من تعليمي سر المهنة لكي اتصرف اذا ذهب
 هو الى السوق وقضاء المشاوير . تعلمت منه ان اول شيء افعله
 بمجرد دخول الزبون ، ان اسارع ببرم قرطاس كبير واسع . ثم
 أقف امام الميزان الموضوع على بنك عريض وحوله الصنج ، اترك
 الزبون ينتقى بيديه ما يشاء من الاسماك الكبيرة ، وبخفة يد الحاوي
 اكش جانبا كبيرا من الاسماك الصغيرة الميتة واملا بها قمع القرطاس
 جاعلا رءوسها في القاع وذيولها في الخلاء ، فلما يعطيني الزبون
 ما انتقاه من سمكات كبيرات اضعها بالعكس جاعلا ذيولها في القاع
 ورءوسها في الخلاء ، واذا يقول الزبون : كفى ، استدير نحو الميزان
 معطيا للزبائن ظهري فاردا كوعي قدر ما استطيع ، وفي لمح البصر
 تكون يدي قد سحبت السمكات الكبيرة من رءوسها وتركتها
 تسرب الى برميل كبير موضوع تحت البنك . اعرف طبعا ان
 الزبون عندما يصل الى داره ويرى السمك سرتاع لانه لن يجد
 سمكة واحدة مما انتقاه . فاذا فكر في الرجوع لي قلن بخلص مني ،

خلدوهم بالصوت لئلا يفلبوكم ، أصرخ فيه الهية وأدهيه أفرج عليه
أمة محمد ، مذكرا آياه بأننى وزنت ما أعطاه لى بنفسه . هو فى
الغالب لا يرجع ، وبعضهم قد لا يلحظ . وان تكشف لى أن الرجل
الذى استكردته مهم ويملك قدرة الاضرار بى فأننى بصنعة لطافة
أبيعه واشتريه ، أغسله واكويه ، ولكن بالأدب ، كله بالأدب يا آبا ،
أمال . تقول لى كيف أنشره وأطويه أغسله واكويه أبيعه واشتريه؟! .
الأمر بسيط يا بوى ، سر النجاح هو الأدب حتى لو كان أدبا مزيفا
لا أصل له ولا فصل : نعم يا سعادة البية ! أنا متأسف خالص يا أفندم !
لعله قرطاسك تاه فى قرطاس آخر فضل طريقه الى فارغ عين رضى
به على عياله ! .. وفى هذه المرة أزن له ما يختاره بالفعل وأعيد
فحصه عليه واحدة فواحدة ومع السلامة يا سعادة ألبية ألف ألف
سلامة يا أفندم دا محلك وانت تأمر والغالى يطلع لك ! .. سواء
لدى ان فهم سيادته أننى أكل بعقله حلاوة أو لم يفهم فإنه فى النهاية
يؤكئنى عقله بارادته بمزاجه ويكون على قلبه أحلى من العسل ،
البرايىز والشلنات تتدافع نحوى بغير حساب فى كل مرة يجيء فيها
وأنا نازل فيه اكلا بالطول وبالعرض وبالناكوسى قبة ومساحة !!
ان أعطيته ثمينتين اثنتين شيلته على شرفهما خمسة ستة أرتال
سمك لا يمكن بيعه وحده ولو بالمجان مع أننى بعته له بسعر الثمين
الغالى يدفعه صافرا وهو يقول سبحان الله والحمد لله ! .. الدنيا
يا بوى تحب الشطارة والأونطة وهذا ما بان لى فى القاهرة فاه منها
ومن أهلها آه ! ..

تعرف؟! هذا الدرس - صدقنى ياخال - هو الذى جبنى فى
هذه البلدة وكتب لى عيشا فيها . انه درس قويط ياخال ، قويط
من هنا لحد الصباح ، فهمته وحدى ، بالفهلوة قل ، بالبداهة
قل ، بالبركة والتكال على الله يجوز ، انما وجدتني ذات ليلة مكفنة
بالضباب الأسود القطيس ، وأنا داخل فى عشة فى اسطبل عتتر .
على مرسى النيل تبيع الشاى والدخان المعسل ، وكنت أشهد
النفس من الجوزة بعمق حين برق الدرس فى دماقى كأنه المعنى كأنه
الآية المنزلة ، وصوت كأنه صوتي بغمزنى فى جنبى قائلا : الحياة
لم تتغير يا أبا على ! لا تظن نفسك أنتقلت من حياة التشرد واللصوصية
الى حياة التحضر والمدنية والثورة الاشتراكية المباركة لا ! لا يا حسن
والف لا ! ان الحياة هى الحياة فى الصعيد أو فى القاهرة ، بل أنها
فى القاهرة انقطع ، السرقة فى الصعيد تتم فى ستر وتكتم وبقسوة

تهذر فيها الدماء وتطير الرقاب !! اما في القاهرة فالسرقة تتم في وضوح النهار عيانا بيانا على عينك يا تاجر - أقصد يا بوليس ! غير ان السرقة هنا في القاهرة يا خال سلاحها الاونطة والنعومة والميوعة! الخشونة لا تنفعك هنا ، سوف تجرح الآخرين وانت تنفذ بينهم الى اغراضك فليفظونك او يضغطون عليك يغطسونك ! نعمتهم كنعومة جدران المعدة قوية تهضمك تحولك الى خراء يتبرزونه في المجارى والطرقات وهلف آخر مثلك ينظف وراءهم ! ..

ولد خالك يا ولدى ابن ناس طيبين كما تعرف ، لا يفرك انه طول يده على بتاع الناس وسرق من غيطان الصعيد الطافحة بما يستحق ان يسرق . انا في النهاية ابن اعمامى الفقهاء وفي عروقى وقلبي الكثير منهم ، اعرف الله مثلهم وكنت صبيا اسرق وانا صائم في عز الحر ، واصون الامانة والله يا خال ، المعلم السمك يترك لى محله اليوم بطوله وحين يجيء بفرغ الحصاد في جيبه وينصرف . واع حضرته ، يعمل على واعيا ! ان كان واعيا قيراطا فانا افهمها وهي طارة . والامر على هذا النحو يا خال : ما الذى يدعو رجلا كهذا لان يثق في كل هذه الثقة مع انه لم يعرف اى شيء عن حياتي؟ انما هو بضرب عصفورين بحجر واحد كما يقول عمى الكبير ، يوهمنى انه يعطينى الامان لاكون محل ثقة ويوهمنى من ناحية ثانية انه لا يعد ورائى فيغرينى ان استغفله . حضرته لم يكن يعرف اننى موقن من انه ينزوى في ركن قصى ويفرغ جيوبه ويعد الفسلة بالليم ، مثلما انا موقن من انه سيجدها بالليم كما حسبها ..

« ذات يوم جبرنا الله وشطبنا في بحر ثلاث ساعات ، جاءت الغلة بفلات وفيرات وبقي من السمك حوضا صغيرا اعتبره المعلم زائدا عن الحاجة بيع ام لم بيع . فانصرف المعلم الى بعض شأنه واوصانى بان انصرف في هذه الاسماك كيفما اتفق باى ثمن ، فان تم لى ذلك أغلقت الدكان وانصرفت قلت : الله معى . جلست . هب للنبي هجمت الزبائن هجمة ثانية : عبيء ثلاثا! عبيء اربعا! عبيء خمسا! ..

اخذت ابيع بنفسى الطريقة التى علمنيها صاحب الدكان ، بنفسى السعر الذى بعنا به الثمين فى مطلع النهار ، حتى ادخرت فى النهاية حوالى عشرة اوطال من سمك متنقى جاءت من نصيب امرأة غندورة سحرتنى بعينيها فأبرزت لها ما أخفيه تحت ورق الشجر الأخضر، تجاهلت يدها الملاءة فانفرطت عن قوام كالفرس لهبنى فكشفت الورق الأخضر فبانت طبقات الاسماك مرصوفة بعناية كالوج المتلاحق قال : بكم ؟ قلت : بالصلاة على النبى . قالت اللهم صل

وبارك عليه . وكطفل يخشى من لبس لوحة معروضة في معرض
مدت اصبعها خلسة ولمست إحدى السمكات لمسة سريعة وقالت
زن . . فوزنت ، وأعطتني ما طلبت وتركت القروش المتبقية . الا
وصاحب الدكان قد أهدأ ، كانت تقود المرأة لا تزال في يدي
حين دخل صاحبنا الى الحصالة ، اذا به يفرغها في جيبه وبعضي
قائلا : بلا شطب بقى واقفل . غلى الدم في عروقي . وضعت نقود
الولية في جيبى وقلت : استنى عشان تاخذ مفتاح دكانك . قال
دهشا : مش حتفتح بكرة ؟ . قلت : ان أحيانا ربنا ورأى مشوار
لحد الصعيد . وأغلقت الدكان وسلمت له المفتاح ومضيت . .

في المساء جاءني في المقهى التي يعرف أنني بدأت أجلس عليها
في اسطنبول عنتر . صاحبها من بلدة مجاورة لبلدتنا ويعرف اعمامى
منذ صغره ، وكانت خطابات أمى تجيشنى على هذه المقهى ، وهى
مقرى الذى يسأل فيه الناس عنى ويستدلون منه على أصلى
وفصلى . أول ما شفت المعلم السماك مقبلا قمت اليه وطلبت له
الشاي والذى منه ثم قلت له : شوف يا حاج ! واجبك تاخذه لكن
شغل عندك تاني لا . . لماذا ؟ ما السبب ؟ قلت : « هكذا ! انا الان
خاضع للشيطان الأمر بعدم الشغل واى كلام في أمر الشغل لن
يفيد » . فسلم على وانصرف .

جلست منجمصا يابوى وأنا في اثم سعادة . وضعت رجلا على
رجل أخذت أطوحها في وجه الزمن . سرح دماقى لطشه الهواء نعنشه
شعر بلدة كبيرة لاني تخلصت من هذا الرجل اذ هو لص وحلوف .
لكن ماذا سافعل غدا ؟ هذا ما لا يريد دماقى ان يكلمنى فيه الآن ! .
عاندته ، قمت من لحظتى الى محل شكله خواجاتى في حارة قصبة
من حواري مصر عتيقة ، اشترى منه زجاجة صغيرة يسمونها
الخمسينة وفيها خمرة يقال لها الكونياك ، وعدت بها الى بلدياتى
حيث لزمت الظلام المتكوم في اقصى الرصيف في دروة كشيك
السجائر ، جلست منجمصا وكل حين افتح الزجاجة وارشف
منها رشفة واقترقز الفول السودانى . مادريت كم الساعة حين
انتهت الى أن الزجاجة الفارغة قد أخذت تكرر على الأرض رائحة
جائبة حسب اتجاه الريح ، كنت سكرانا بحق ولكننى منتهى الى كل
شئ ، أردت ان اؤكد انتباهى ويقظتى فنهضت واقفا ومضيت
بضع خطوات وامسكت بالزجاجة فوجدتني أقف بها حائرا في وسط
الطريق ، فالتفت بها الى بعيد وهدفى ان تسقط مباشرة باحكام

النشان في قلب صفيحة قمامة معلقة في عامود نور من خلف هديم ،
 الا انها اصطدمت بالعمود وهوت على الارض هشيما فجلست
 ارتعش كطفل صغير اتى ذنبا عظيما . لحظتها رايت المعلم « شندويلي »
 صاحب المقهى يرص كراسيه فوق بعضها استعدادا للتشطيب .
 وكنت قد رايت السماك اثناء انصرافه قد انتحى به ركنا وراح يحدثه
 في امرى وهو يهز رأسه . فلما لم يعد سوى الكرسي الذي اجلس
 عليه سحب هو كرسيا وجلس بجوارى ومد يده لى بسيجارة ،
 تقبلتها شاكرا واشعلت له ولى . شعشع النفس في دماغى ، عاجلت
 المعلم « شندويلي » بقولى : « الست بلدياتي يامعلم شندويلي ؟ »
 قال : « نعم » . قلت : « وتحب لى الخير ؟ » . قال : « وهل في
 هذا شك ياابا على ؟ » . قلت : « تعرف انتى ابن ناس طيبين
 ام لا ؟ » . قال وهو يغمزنى بعدساية افيون : « ربما لا تصرف
 اهلك اكثر منى .. اسالنى انا عنهم » . قلت : « يعنى اذا ميلت
 عليك ذات لحظة وقلت لك يامعلم شندويلي سلفنى عشرة جنيهاات
 فهل تاتمنى وتفعل ؟ » . قال مشوحا في وجهى : « لو عيل من
 عيالى ياابو العلم » . قلت - ولولا شعشة الخمر ماجرؤت :
 « أنا ياابوالم محتاج لسبوبة » . دب يده الخشنة في جيب المريلة -
 التى لم تكن تليق على شكله وقوامه الصعيذى ابدا - فأخرج ورقة
 بعشرة جنيهاات لكزنى بها صائحا بصوت جهورى : « على بركة الله
 لمحك تسكر بها مثلما انت سكران الآن » . قافقت في الحال
 يابوى واعتدلت ، قلت له : « من غلبى ياابوالم .. لكن اطمئن
 على » . قال : « انت حر » ، ثم اردف : « كل انسان في هذه الحياة
 معلق من عرقوبه » . قلت : « نعم كالديحة » . قال : « براوة عليك
 مادمت تفهم هذه وحدها .. عرقوب البنى آدم هو آخر عضة في
 كعب القدم .. وانت بكعب قدمك تصل الى مكان الخطاف .. انهم
 دى جيدا ياابوالم وبعدها توكل على الله » . وكنت قد فهمتها
 بالفعل حق الفهم .

في الفجر كنت واقفا في وكالة السمك بقمرة . تسوقت تشكيلة
 ثمينة من البلطى والبورى والبياض والقرايط . ملات سلتين
 وضعتهما فوق بعضهما ، استأجرت ميزانا بصنجة وضعت فوق
 السمك . حملت ذلك فوق راسى مضيت أبحت عن مركبة توصلنى
 الى الضواحي والمناطق البعيدة مثل المعادى وحلوان ومصر الجديدة
 وجاردن سيتى والهرم ، اختار الشوارع النظيفة ذات البيوت

المهية : « طازج ياسمك » .. هكذا أروح انادى . يطل على هذا ويتوقف ذاك . أوزن ياعم .. أوزن ياعم جبرنا والحمد لله ..

أحلو الحال ياخال . أخذ المعلم « شندويلي » جنيهاه العشرة عرفنى معلم فى الوكالة يدعى « الحياك » ، صار يمدنى كل يوم بما اشاء ، على ان اعود اليه عصر كل يوم لاحاسبه مختصرا عرقى ورزقى . كل شيء نصيب يابوى ، كنت ماشيا فى شارع من شوارع المعادى المتشابهة لا اسم له بل له كالمساجين رقم معلق على صدره بفائلة زرقاء ايضا . وكان الله قد جبرنى ولم يبق معى سوى حوالى عشرة أرتال صممت على بيعها بالسعر الذى ابيع به لسكان الفيللات والسرايات ، السعر «القرسطقراطى» للحي «القرسطقراطى» هكذا أفهمنى المعلم يابوى . طازج ياسمك ، صابح ياسمك .. هكذا كنت أواصل الصباح بصوت عال متحمسن لا يفيطنى فيه غير أنه صوت صعيدى لا يرن كأصوات العيال البياعين أولاد البلد ، المهم ، مادريت الا وبواب أسود مهيب يتكفن بالأبيض الشفاف الناصع ويتواجد البياض بين شفتيه وفى عينيه صاح بى وهو يقبل نحوى : « تعال ياولد » . ظننته يبغي الشراء فهرولت نحوه ثم أقعيت كاشفا الفطاء عن السمك ، فاذا هو ينهضنى بيد غليظة ويسلمنى لأفندى أجعد الشعر أشيب أصفر الوجه والعينين ذى شارب كثيف متمجرف . قبض على كتفى وراح يطوحنى فى الهواء صائحا : « ايه اللى جابك هنا يا ابن اللى واللى واللى » ، شتيمة منتقاة يابوى من بئر الوساخة النتننة لا أتوقع ان أسمعها فى الحي «القرسطقراطى» هذا . صرت خرقة فى يديه يفعل بها ما يشاء وأنا أصفق كفا على كف واقول : « ماذا فعلت بحق الله يارب .. فيه ايه ياسعادة البيه .. أنا غلطان ياسعادة البيه حقك على ياسعادة البيه » . وسعادة البيه الثثن رأسه والقف سيف أن يسلمنى الى البوليس! المغفريت الذى طلع عليه : البوليس ! . أبكى أنا بحرقة وهو يصيح فى البواب بغلظة : « اطلب البوليس قلت لك » !! ..

الله وكيل يابوى . ماكدت أتمها الا واقففتح شباك مواجه اطلت منه سيدة جميلة تطل من عينيها شخصية قوية ذات سيطرة صاحت فى الأفندى والبواب : « سيبوا الراجل فى حاله » ، فكانما قولها أمر حاسم مجاب ، انفكت قبضة الأفندى عن كتفى ، وكسكس البواب متواريا عن الانظار . رحت أعدل ثيابى والم بضماعتى ،

الا والسيدة تصيح بى : « تعال هنا يا راجل انت .. لف وتعال » ،
 فنظرت الى حيث اشارت فتعين على ان ادخل من باب الفيلا والى
 فاصعد السلم البعيد على اليمين . صرت على باب كبير مفتوح
 والمرأة واقفة فى فتحته تبارك الخلاق فيما خلق ، جعلت انظر
 اليها فى بلاهة البهيمية تفاجأ امامها بوليمة تبدو مباحة . نظرت
 هى فى عينى فكسرت نظرتى . قالت : « انزل » . فانزلت حملتى
 وكشفت الفطاء عن السمك . زامت فى رقة ثم قالت : « بكم ؟ » .
 قلت : « بكدا .. ولاجل خاطرك بكدا » . قالت : « زن » . فوزنت
 كل ما معى فأخذته وغابت فى الداخل ، ورحت ارقب ظهرها ياخال
 وهى تمشى ، الفتنة تمضى على قدمين ياخال . فقلت لنفسى عساها
 تكون النداهة التى اسمع عنها فى الحوادث تنادى الناس بأسمائهم
 فى الليالى الحالكة متكررة فى شخصيات معروفة لهم لكى توردهم
 موارد الهلاك ! ثم قلت لعلها الدنيا الفاتنة تزعم ان تربى نفسها
 بعد مر الشقاء !! ثم رفرف قلبى ورقص عليها لكنه خفق واهتز
 مع خاطر يقول لعلها العاهرة التى تطلع للصعابدة فى المدينة لتشتري
 ذكورتهم الفتية بكنوز الدنيا كلها ! .. اى وحق الله يابوى ماظننت
 ان امرأة فاتنة كهذه تطلع لى من تحت طقاطيق الارض لتنجينى من
 خطر قابض على وفوق ذلك تشتري كل ما معى بالسمر الذى
 طلبته ! .. ظلمت أتوقع مفاجأة عظيمة وهى تقبل من الداخلى
 حاملة ورقة مالية كبيرة ، فلما رفعت عينى عنها تأدبا اصطدم بصرى
 على الحائط المواجه بصورة كبيرة فى برواز كبير لجمال عبد الناصر
 وأخرى مثلها لعبد الحكيم عامر وتحتهما صورة لضابط بالملابس
 العسكرية لم اتعرف عليه ولكن على صدره وكتفيه تماثيل وتراويق
 وضبابير ونجوم كثيرة .. فررف قلبى من جديد كالطائر يستعد
 للهبوط على عشه الآمن ، تناولت الورقة المالية الكبيرة غير منتبه
 الى أن المرأة تقول لى : « خذ يارجل ولا تجيء هنا ثانية » ! .
 قلت : « حاضر ياست هانم » ، وكان يداخلى شعور يقين بأن هذه
 المرأة تتكلم لمصلحتى . اخرجت كيسى القلدة الزهرة وفردتها
 وجعلت ابحت عن فكة ، لكن المرأة مدت يدها بالبضعة المتختخة
 الحافلة بالاساور والخواتم نحوى قائلة : « مش مهم مش مهم ! » .
 رفعت بصرى اليها محاولا التلکؤ ، قلت : « كيف ياست هانم !
 الحق حق وحضرتك تستحقين ثلاثة اربعة جنيهات » شسوحت
 قائلة : « مش مهم ! خليهام عشانك بشرط الا تجيء هنا مرة

أخرى . حارت نظري والله ياخال تحاول اختسراق عين المرأة ومعرفة القصد الحقيقي من هذا الحادث الم هول . ولابد أن منظرى لحظتها كان مضحكا ، حيث اشتعلت البسمة على شفتيها فأضاءت كالكلوب على وجهها الجاد الحاد الناعم المنتفض . لمت نفسى بسرعة وصرت أخطو خطوة وأنظر ورائى منتظرا أن تغير المرأة الفاتنة رأيها أو ينقض على شرطى . صرت والله أجر خطواتى على السلم كأن قوة تشدنى بالأوناش الى الوراء ، فلما سمعت الباب يفتح من ورائى ضربت جبهتى بقبضتى وأيقنت أنها الدنيا وقد أقبلت على بالفعل طبقا للحلم لكنها فرقت بنطا واحدا انحرف شيء فى الزمن فى الأمر لا أدري ياخال ! لماذا غيرت الدنيا الفاتنة رأيها فى آخر لحظة بمد أن نادتنى بنفسها بعلو حسها طاردة عنى الوحوش المؤذية فتحت لى بابها على وسعه أرتنى لحما المقدس عاريا تحت غطاء شفيف أى على أهبة اتخاذ الخطوة الأخيرة التى كان يتعين على وحسدى أن أخطوها برفع هذا الفطاء الشفيف والدخول الى المدائن المسحورة لكننى من غياوتى وتخانة مخى لم أفعل !! الهذا صغر شأنى فى نظرها فاحتقرتنى وردتنى عن بابها بلطف واكتفت بجبر خاطرى مصحوبا بتحذيرى من الحومان حول سورها ثانية !! مخى تبرجل يا بوى ! لابد أنها كانت تنتظر منى أن ادخل وراءها بجراة أربها حقيقة نفسى التى تحت هذه الخرق الزفرة ، لم لا يكون لا ؟ لم لا يكون نعم !! ؟ فالدنيا فاتنة ، وكل فاتنة غانية ، وكل غانية دواؤها قوة الدرامين والشكيمين والعينين ، أن توفر ذلك فى رجل مثلى استطاع أن يلوى خزامها يركبها . الدنيا مهرة شرسة أن لم يكسر شرستها ركب حقيقى فارس حقيقى سابت وانطلقت تبحث عن يلوى منها الحزام بنفسها لا يتركها إلا مصاصة قصب ..

صدقنى ياخال أنتى حتى هذه اللحظة لازلت بكل نفسيتى وكيانى وربما جسدى واقفا على بوابة الفيلا معطيا ظهري للسلم الصاعد الى شرفات النعيم أخاير لذهنى ويخايرنى فيما يجب أن أفعله ، ولكن أفعل ماذا يا بوى ؟ أن صوتها الأمر ألناهى يمتنى من أى فعل .

أخترت جانب الأمان بالطبع ، حرمت على نفسى السير فى مثل هذا الشارع ثانية .

الثانية - كيف تردنى التسعيرة ؟ !

في صبيحة يوم بعد انصداد نفسي عن العمل اياما يممت شطرا حلوان بحمولة كبيرة تليق بسفر . اقممت فرشاً على تخوم سوق مجاورة لمحطة المترو . فردت موازيني ، فحضرت الزبائن وبدأت وفودها تتلصق عني وبدأت أزن وأقبض والحال آخر سهلة ، المفروض أن أبيع - حسب التسعيرة - الرطل بثلاثة عشر قرشاً ونصف للبطل الكبير ، وتسع قروش للمتوسط ، لكنني كنت أبيع بخمسة عشر قرشاً كله في رقاب بعضه الكبير يسند الصغير ..

رن الكف على مقربة مني فارتعب قلبي ، عرفت من صوت الرنين أنه سقط على قفا واحد من بنى عمومي ، فمثل هذه الرنة لا يصدرها الا قفا منهم ! ومثل هذا الرنين لا يحتمله الا قفا من اقفيتهم ! سبحان الله ! اللهم اجعله خيراً ! . سريت عيني الى جوارى خلسة ، رأيت معاون الشرطة والمخبرين يحيطون ببائع الفاكهة المجاور لي والمعاون لا يجد لغة للتفاهم مع الفاكهي سوى الضرب على الخف بكل هذه القوة . لو كنا في الصعيد ورن هذا الكف على قفا أي مخلوق لطارت فيه رقاب وقامت قيامات أما هنا فالدنيا كلها تنقلب عليك في لحظة وتحاصر الدبابات لو جحرت في وجه الحكومة . نظرت للزبائن الواقفين امام فرشي ورجوتهم بحق الديانة والأمانة أن يقولوا للمعاون اذا سالهم انهم اشتروا بثلاثة عشر قرشاً ونصفاً حسب التسعيرة فهزوا جميعاً رؤوسهم وقالوا في ثقة واطمئنان : « دع عنك لا يهمك ! » . الا والمعاون زاحف نحوي بموكبه الشعنون . « بكم تبيع يا ولد ؟ » قلت : « بثلاثة عشر قرشاً باسعادة البية حسب التسعيرة » . قرن الكف من جديد على قفائي هذه المرة ساخناً لاهبا تطايرت له شرارات النار من عيني . صحت داعم العينين : « كيف تضربني هكذا باسعادة البية ؟ » . زقذني رجاله وصاح هو قائلاً : « بع بتسع قروش يا ابن الكلب » . قلت : « حاضر بابيه » . ماكدت اثم كلمتي حتى كان الزبائن قد هجموا على السمك فعبأوه في قراطيس صنعوها لانفسهم بانفسهم ووزنوها على هواهم وراح معظمهم يرمى لي بضع قروش ويضع شلتك مقابل خمسة ارطال ! في لمح البصر كان « بتاع الناس » قد انتهى ، صرت أصرخ وأمسك

في خناق المعاود والمخبرين « بتاع الناس يا ولاد ديك الكلب ! هاتولى بتاع الناس ! خربتو بيتى ياكفره ! » ، وهم جميعا يضربوننى بالعصى والأحزمة والشلايت حتى سوونى على الجنين وتركونى جثة تفشخ حنكها باكية وأمامها بقايا متاع ويضع قروش واطلال فرش وصنج بعثرته الأقدام فى زحام السوق !! ..

عدت الى مسكنى فى اسطنبول عنتر ، حصرت خسائرى فوجدتها افدح مما تصورت . لقد أخذت من المعلم « الحباك » بضاعة بستة وثلاثين جنيتها والغلة التى معى كلها تسعة عشر جنيتها الا قروش فمن أين لى بالباقي ؟ ومن ذا الذى سيسطيع اقناع المعلم « الحباك » بأن الحكومة هى التى بعثرت رسماله على الرصيف وأباحت سلبه فباى وجه أقبله ؟! لابد أن أختفى عن نظاره نهائيا فلا أراه أو يرانى الا وفى جيبى حسابه بالتمام ! أما متى يتوفر لى مثل هذا المبلغ الكبير فأمر يطمه الله وحده .

القصد يابوى ، حودت على محل كان قائما على الكورنيش فى مصر العتيقة فيه بار وشرب خمر واكل . قلت لنفسى : ضرب الأعور على عينه قال خسرانه خسرانه ، وتوكلت على الله فدخلت هذا المحل ، طلبت دجاجة وطبقا من الأرز وآخر من الخضار مع تلك المسماه بالخمسينه . أبقظت بطنى ورحت اعطيها وأدلق فيها كل ذلك حتى قمت فى النهاية مدووشا امشى كالطاووس مع أن البكاء كان قد جفف عيني ودماعى ، والضرب فخص عظامى دهسها دفعت ثلاثة جنيها فى صمت وهرعت الى مقهى المعلم « شندويل » فطلبت قهوة وجلست ادخن فى ركن الظلام . الا وكاتب المعلم « الحباك » يهبط على كانما سقط من السماء ، اذ كنت سارحا ملكوت الله متمددا على كرسيين وميلت لأرمى عقب السيجارة فوجدته قد جلس بجوارى ! منذ متى جلس والله ما أدري ! لكننى حين نظرت فى عينيه خلل الظلام المترقق لقينى احساسه بالفرح لأنه استطاع أن يقبض على . أخيرا صرت مجرما وهناك من يتعقبنى للابقاع بى . اعتدلت على كرسي واحد وقلت : « أهلا وسهلا » . قال فاشحا حنكه : « ماجيتش تحاسب المعلم ليه ؟ خير ؟ انت سكران ولا ايه ؟ » . قلت باحثا عن صوتى « سكران نعم .. سكران من فعل الضرب والشمم والبهذلة » . قال وقد ظهر من صوته أنه لن يصدقنى فى أى كلام أقوله : « ليه كفر الله الشر حصل ايه ؟ » . انتفضت واقفا ونزعت الجلباب كشفت عن جسدى قائلا :

« شوف ياخى .. الحكومة كسرت عضامى يا بوى بعثت البضاعة يا بوى .. سابت الناس تهجم عليها وتنقيها بالتسعة الجبرية » .
أخذ يتفكر ثم زام وقال : « يعنى ضاع إبتاع الناس ! » . قلت :
« الله وكيل !! الذنب ليس بذنبى » . فمد يديه وتحسس جيوب صديرى ، أخرج محفظتى وفتحها أخرج كل ما فى جيوبها ، عده فإذا به ثلاث خمسات ويضع قروش وضعها فى جيبه وصار يلوح لى بأصبعه فى تهديد شرس : « اعمل حسابك !! رجلك ماتخيش ناحية السوق بحاله !! المعلم ممكن يضربك بالرصاص ويتساوى جثتك ولا من شاف ولا من درى ! » ، ثم انصرف .

أروح فىن يا ولدى ؟ اعمل كيف ؟ جاءت صورة أمى وهى تودعنى عند السفر قائلة : « الأهى ربنا يحب فيك المخاليق ورفاق الطريق » ، فاقشعر جسمى ، وهتف صوت فى دماغى : لسوف يحلها الحلال . وبالفعل ، حمل المعلم « شندويلى » همة . أخذنى إلى مقهى كبير فى مصر القديمة عليه وارد يحتاج لأكثر من صنايعى . قال المعلم « شندويلى » لصاحب المقهى الكبير : « هذا الولد يصلح نصبحيا نظيفا وهو من بلدياى وعلى ضمانتى » . قال صاحب المقهى الكبير فى هدوء : « وماله .. رزقه ورزقنا على الله .. خش يا ولد وربنا شطارتك » . وكانت رأسه غليظة منتفخة كراس ثعبان ابتلع بطيخة ، إلا أن الطيبة كانت بادية على ملامح وجهه . شمريت ذراعى وفردت الميلة ألتى أعارها لى المعلم « شندويلى » . لبستها فبدوت كأننى أقوم بتسميع الحركات ألتى يفعلها المعلم « شندويلى » فى شغله وألتى يظن من يراها أنه أمام صنايعى قرارى نشيط مفتوح ، لكن المعلم ابتسم ابتسامة لم أرتجح لها وقال : « وماله برضه .. كل شىء ييجى بالتمرين ان شاء الله » . يوم بعد يوم تعلمت الصنعة ، عرفت أن كل شىء بالفعل صنعة لها أهل ورجال . نجحت كعامل نصبة أصنع فى الساعة ألف كوب شاي وألف كنكة قهوة بدون عناء . لكن القروش ألتى يدقها لى صاحب المقهى آخر النهار لا تساوى العرق الذى ينشال منى طول النهار ، أعيش على البقشيش وأجمل اليومية فى الحوالة البريدية كل شهر لأمى . شحط فى المعلم مرة فشحطت فيه بالمثل فستمنى فخلعت الميلة رميت بها واتكلت على الله إلى اسطبل عنتر .

قال المعلم « شندويلى » وهو يفمزنى بعد ساية أفيون : « اسمع يا أبو العم ! أنت ابن حلال مصفى ! . وهذا هو بركة دعاء الوالدين

وبركة أعمامك الفقهاء الطيبين . قلت : « صدقت والله ولكن
 بختي كما ترى غير موات ! » . قال وهو ينقر بأصابعه الطويلة
 المخشنة فوق ساعدي : « الدكان المجاور للعجلاني على الكورنيش
 يريد صاحبه تأجيله وهو دكان يصعب أن يستنفع به شخص غريب !
 ما رايك لو أجرناه لك وفتحته قعدة شاي مختصرة على قدها ؟ ! » .
 قلت : « يوفيه تقصد ؟ » . قال : « عليك نور !! إيه رايك ؟ » .
 قلت : « يادار ماذلك شر » . قال : « معك كثير ؟ » . قلت :
 « سبع جنيهات وستين قرشا سارسل منها حوالة بست وأصرف
 على الحوالة من الستين قرشا » . قال : « لا حوالة ولا غيره هات
 مامعك !! حوله على أنا » . فدفعت إليه بالمبلغ .

الحق لله تمب الرجل معي آخر تمب ، استأجر لي الدكان واتفق
 مع البناء الذي أقام النصة بالأسمنت والقيشاني ، وخطفنا
 أرجلنا الى السوق فاشترينا ثلاث أربع دست من الأكواب
 والبرايض والمفلايات والكنك ، وأعارني ثلاث ترابيزات وعشر كراسي
 على سبيل الإيجار بمائة وعشرين قرشا في اليوم . هب للنبي
 فتحنا . من صبيحة ربنا حتى ما بعد منتصف الليل لا أفرغ من
 صنع الطلبات وتوزيعها . لكنني كنت اتعب يابوي ، بجيء الليل
 على فأنكفي من الأعياء مستندا على النصة لساعات طويلة .

الا وجاعني ذات ليلة أربع رجال أفندية آخر وجاعة تحلقوا
 ترابيزة بخامية وقالوا : « عندك كوتشينة يا حاج ؟ قلت : « عندي » .
 قالوا : « هاتها » . وكانت جديدة فقالوا في نفس واحد : « فل » .
 ومال أحدهم على قائلا في بساطة : « شوف ياعم الحاج .. حنلب
 عشرين ثلاثة - وغمز بعينه غمزة ذات معنى - ولك ياعم على كل
 دور عشرين قرشا أجر ترابيزة عندك مانع ؟ » . قلت : « لا » ،
 فأنبرى ينفط الورق في حماس ويطلب المشاريب .

أحلوت اللعبة يابوي ، ساعتان أو ثلاث في أواخر الليل
 بمقام شغل جمعة بحالها ، حتى صرت يابوي من فضل الله وكرمه
 أرسل لامي كل أسبوع حوالة وأدخر حوالة . أهملت أمر القهوة
 والشاي وطلت ابتعادى عن جحيم النصة إذ لابد أن أكون جالسا
 لنجوار اللعب أراقب الأدوار وأقبضها . هات واحد شاي ياعم حسن
 .. قم أنت عدم المزاخنة وأعجل لنفسك شايًا ثقيلًا كيفما تهوى .
 الشعب المصرى شعب مهاود يابوي ، كالبوصة الخيزران تطويها
 دائرة في أصبعيك فتتخيل أنه - أقصد أنها - ملك بديك ، فإذا

ماغفل أصبعك برهة وجيزة اندفع الطرف وارتدت البوصة عصا مستقيمة كأن شيئا لم يكن . هكذا كان يقول عمى الضرير لجلاسه في مندرتنا ، وكلما دعكنى الحياة في مدينة القاهرة أحسست أنني يجب أن أكون مثل البوصة المخيزران لكي أعيش في هذه البلدة دون مشاكل ووجع دماغ وكراهية . طب ماقولك يا بوى اننى كنت ارسل هذه الكلمة كلمة « قم أعمل لنفسك » الى رجال محترمين جدا والمفروض أن أقف أمامهم خاشعا مكسور الجناح ، كنت أقولها في تهيب شديد أول الأمر ، ثم على هيئة مزاح ، ثم بت أطلقها بلهجة أمر غليظ : قم أعمل لنفسك . . فيقوم سعادة البية ويعمل لنفسه دون أى غصاصة على رأى عمك المضرير ، اى والله يا بوالعم .

تفرغت لقبض الريالات المنهالة على كل مساء من التاسعة مساء حتى الرابعة صباحا . لم يعد يعنينى راحة أى زبون ، بل أصبحت أجد لذة في أهانتهم تزداد نشوتي منها كلما رأيتهم جميعا يقابلون أهانتى أنهم كانوا أمر طبيعى ! أصبحت أعمل على طرد خماثرهم ابتداء من بعد صلاة العشاء . .

غير أن الطوبة ليست تقع في المعطوبة كما يقول المثل بل تقسع دائما في السليمة . وهى طوبة تصيننى دائما كلما جرت النعمة بين يدي . دخل الضابط علينا فجأة وخلفه رجاله ، كان أفنديا وهم كذلك لكننى عرفت المضابط من دخلته ذات النفخة الكدابة ومن التفافه حولى في ثقة ثم أحاطة رجاله بنا . ليلتها حملت التراييزة فوق رأسى والكوتشينة في يدي وتقود القمار في جيبى تقلنا عربة الشرطة الزرقاء الى قسم مصر القديمة حيث أشبعونا ضربا وتلطيشا مما يحبه قلبك عدم المؤاخدة ، حرروا لنا محضرا ، وبعد أربعة أيام أفرجت النيابة عنا بكفالة عشرة جنيهات لكل واحد . في اليوم الذى خرجنا فيه اتجهت من فوري الى المحل ففتحته وكنتسته ورششته بالماء وبخرته ثم أشعلت النار تحت الرمالة وجعلت أغسل الاكواب أقصد الكريم مستفتحيا بواحد شاي لى . مع حلول المساء رزقنى الله بالعشاء في الموعد اليومي المعتاد جاء الصحاب الاربع لا يبدو على وجوههم اثر لما حدث بل لا يبدو عليهم أنهم يعرفوننى أصلا ، كأننا لم تكن سويا في الحجز منذ ساعات قليلة . سلام عليكم يا حاج ، قلت عليكم السلام . أردت أن أكل البصرة منهم بأن أرد عليهم فعلهم ، قلت بمجرد جلوسهم كأنهم أغراب عنى : « تشربوا ايه ؟ » . قالوا كوتشينة طبعيا . استأنفنا اللعب من جديد . ما كادت النعمة تسرى بين أصابعى حتى كبست علينا الشرطة مرة أخرى ، في هذه المرة شمعوا الدكان بالشمع الاحمر . أما نحن

فقد دفعنا كل ما كان معنا لامناء الشرطة ومع ذلك لم ننج من ركوب الصينية التي يقرزون فوقها من يتحرون عنه لمعرفة ان كان من ارباب السوابق أم لا ، الحمد لله كشفت الصينية اننا جميعا بلا سوابق وافرجت النيابة عنا على ذمة ان تطلبنا المحكمة بمسد حين .

قلبي شال من المنطقة كلها ياخال ، أصبحت لا أطيقها واسودت الدنيا في وجهي فقلت في نفسي ليس لك عيش في هذه المنطقة يا ابا علي ! ان الشمع الاحمر الذي ربط باب دكانى في الارض هو الانذار الالهى الذى يقول لى ابحت لك عن باب آخر في جهة أخرى .

فوالله ماكذبت خبرا ، كان المعلم شندويلي يفتح مقهاه عقب صلاة الفجر مباشرة ويبدأ في رص الكراسى ورش الأرض ففوجئ بى آتيا من مسكنى احمل جعبة الورق التى فيها خلقتانى كلها ، وكانت منتفخة . صباح الخير يا معلم شندويلي .. صباح النور يا حسن امسافر ياترى ؟ قلت : « حاجة زى كده » . قال : « كيف ؟ قلت : « ساقلب عيشى فى عتبة أخرى في منطقة أخرى غير هذه » قال : « من ورائى يا ابو العم ؟ » . قلت : « يمين الله ما اعرف حتى هذه اللحظة اين ترسو بى المركب ولا في اى مكان توجد لقمة عيشى قال والخواتم الفضية تتماوج في كفيه : « عليك بحى الزيتون لا تذهب شمالا او يمينا » . قلت : « خير ان شاء الله ما الذى في حى الزيتون يا معلم شندويلي ؟ » . قال : « تركب اتوبيس نمرأ كذا يوصلك الى محطة باب الحديد تسال عن قطار كوبرى الليمون بدلونك على محطته تقطع تذكرة من الشباك تركب القطار توصى الكمسارى ان ينزلك في محطة الزيتون ! تنزل في المحطة تنزل الرصيف عائدا الى الوراء حتى المزلقان ! تجد قهوة المعلم ظريف ! اسال فيها عن المعلم ابو القاسم شعيب تجد الف من يوصلك اليه ! ان ما قول قد الدنيا وكل بلدياتك يتوجهون اليه مباشرة وان شاء الله سيكتب لك الله لقمة عيش عنده ! فعنده انواع شغل من الفواعليا الى كل ماتريد وما تتخيل ! يعنى لابد ان يجد لك شغلا على قدك بالضبط » . قلت : « ابن اصل صحيح والله يا معلم شندويلي ! من الآن اى جواب يجي باسمى احفظه عندك حتى اعود » . قال مشوحا : « ولماذا احفظه ؟ ساضعه في مظلوف جديد وارسله اليك طرف المعلم ابو القاسم شعيب » . قلت : « على بركة الله » . عائقته وبكيت فبكى هو الآخر ومد يده في جيبه فاسرعت ممسكا بها قائلا : « مستورة والحمد لله » ، ثم تركته ومضيت .

المسدد ثلاثية الأولة - عرسان وعرايس

ما أن وقع يصري على باب الحديد حتى هاج صدرى من سبعة
أركانه . ما أدري إلا وأنا أقطع تذكرة الى الصعيد فسبحان الله أنها
أرادته ..

القطار يدب ساعات طويلة يابوى ومنى يضرب يقلب : ما الذى
سافعله فى الصعيد ؟ ما الذى أقوله لأمى ؟ أنى أجازة أنا أم أن هذه
هى الأوبة الأخيرة ؟ استفرح أمى بذلك أم ستقع من طولها ؟ سطلنى
الهواء فنمت من التعب ، وقد هيا الله لى من يصحبنى عند كل
محطة لينبهنى ..

يابو .. و .. و .. ي .. على الفرحة التى التقانى بها الأهل
من أول الحارة حتى دارنا . لم أفرغ من السلامات والأحضان
والدعوات حتى منعت مهرجانا ورأى . أول شيء مفرح التقيته
أننا قد صار لنا دار مستقوفة كلها ، ذات أبواب وشبابيك جديدة
.. فاحسست بكل الأمان ، وقلت فى نفسى : رفاك الله بأام فما هى
ذى تقودى التى أرسلها لك بالحوالة البريدية قد نفعت الآن وصار
لنا بيت بحق وحقيق أستطيع الجلوس فيه واستقبال الرجال
بلا حرج ! ..

هاهى ذى العائلة بريطة المعلم تطل خارجة من باب الدار ، أمى
تجرى نحوى مهولة ومن خلفها « سلمى » و « مندوه » و « سعدية »
و « هندية » التى أصبحت عروستا الرابعة فى زمن قببى جاءت
هى الأخرى بعزم المشوار نحوى لترضى فى حضنى ، خلفها أخى
« محمود » الذى كان رضيعا خرج يحبو على قدميه يحاول أن يصلب
حيله ييكى منزعا من هذا الانقلاب المفاجيء ، فكدت والله أتركم
جميعا وأجرى اليه لولا أننى لم أتمكن من نقل خطوتى ، حيث تعلقت
أمى بحضنى وهات يابوس وضم وبكاء ، فى حين تشعلت « سلمى »
برقبى و « مندوه » بكتفى أما « سعدية » فوقفت متدلة فى انتظار
أن أذهب إليها وأخصها بالسلام والتقبيل وأما « هندية » فتعلقت
بذليل جلبابى ، وصوت بكاء « محمود » يتصاعد ويطغى على ضجيجنا
ولولاه لبقينا فى الشارع هكذا وقتنا طويلا ..

اللقاء بعد الغيبة طو ياخال ، لا مثيل لحلاوته ، ولو ثوقل هذا اللقاء في كفة بمليون جنيه أكسبها من الغربة في كفة مقابلة لاخترت اللقاء اذ اننى واللقاء في كفة واحدة . صار الرجال يأتون للسلام على وصرت أحس باننى محترم فى وسطهم فشمعت بحلاوة الصعبد وكرهت القاهرة كره العمى ، وقال هاتف لعله من طرف الملاك المنوط بتسجيل الحسنات على أحد كتفى : « انا هنا رجل بحق وحقيق رب أسرة وصاحب بيت يؤمه الزوار اما فى الغربة فانت ريشة شريدة فى مهب الرياح » . قلبت هذا الصوت فى دماغى فحسته وقلت لانظرن فى هذا الامر .

لكننى نظرت ذات لحظة بعد خفوت دوشة مقدمى ، وكانت صينية الطعام الكبيرة مفروشة على الطبلية ونحن نتحلقها فى حوش الدار ومن حولنا بط واوز ودجاج ومعيز وخير كثير ، فرايت أختى « سلمى » و « مندوهة » و « سعدية » و « هندية » قد صرن حريما بمعنى الكلمة ، اى قد صرن فى حاجة الى ظل رجل يحمين من طمع ذوى النفوس الوسخة . ارتعد قلبى والله ياخال وانتفضت المعلقة فى يدى فتساقطت الشورية على ثوبى ، لمجرد تخلى لرجل من المطاريد معدوم التربية يقتحم دارنا هذه لخلوها من الرجل ويستبيح كل هذه الكنوز الغالية : ابجيك قلب يا حسن لتترك هذه الجواهر المعلقة تنوء بها امك وحدها؟! « سلمى » و « مندوهة » و « سعدية » و « هندية » يهون عليك فتتركهن شهورا أخرى وربما سنوات؟! كيف ياولد فكسرت فى هذا من الاول؟! الا قاتل الله الفقر . استحطيت البقاء لمصلحة رجوليتى قبل مصالحتهن ، استرحت لهذا فاكلت بنهم حتى شبعت وانجعصت متكئا على مسند صلب وجعلت ادخن السيجارة باستمتاع شديد وامى متربعة جوارى ، أختى « سلمى » تسوى الشاى على ركية نار متبقية من الكانون ، جاءت « سعدية » بصينية الشاى عليها البراؤ والاكواب الزنك فوضعتها امامى فاخذت امى تصب لى الشاى الثقيل فى الكوبة قائلة : « بالهنا والشفا ياخويه » ، جعلت ارشف . मिलت امى على اذننى وهمست : « ارايت نورك كيف ملا الدار ؟ قلت مداريا دمعى الوشيك : « انت صاحبة كل فضل يا ام » . قالت « لماذا لم تحدثنى عن احوالك يا ولدى ؟ » . قلت : « بخير والله يام » الولية لم تصدقنى فى هذه الكلمة ! لم تصدق ان حالى بخير ، قالت وهى تربت على كتفى : « اعرف انك تتعب ياقلب امك! » قلت محاولا اعتقال دموعى : « كله يهون من اجلك انت واخوتى

يا أم ! فمن لكم غير الله وغيرى ؟ من أجلكم أقطع من لحمى وارى
 فى حلة الطبخ « . ربت على كفى مرة أخرى ومرات ثم بسدت
 تشاء وانخرطت ترقينى وتملس على جسدى بورقة : « رقيتك من
 عين الحسود يندب فيها عود ومن عين المرة تنقلع بشرشرة ومن عين
 الراجل تنقلع بمناجل ومن عين كل الى شافوك ونضروك وماصلوش
 على الحبيب النبى » . وجاءت أختى « سلمى » بمنقد فيه البخور
 يتصاعد دخانه ذو الرائحة الزكية وصارت تلف يديها بالمنقد حول
 رأسى حتى صرت أنا الآخر اثناء ، ووضعتم أمى الورقة التى كانت
 تملس بها على جسدى فى نار المنقد وتركتهما تحترق على مهل ثم
 قالت لى : « شف يا ولدى ان كان القرش يجيئك فى الغربة من حلال
 فالغربة محتملة الى حين اما ان كان القرش يجيء فيها من .. » .
 فقاطعتها مرتشعا : « أقول لك الحق يام ! ان الحلال فى الغربة
 غير مباح ! يا أم لا تندهشى ! ان البلد التى كنت فيها يسمونها
 القاهرة أى أنها تقهر الناس من سكانها وكل من يلجئون اليها
 فى طلب ! تقهرهم على فعل الحرام عينى عينك وفى كل خطوة ! ومن
 لم يقدر على فعل الحرام تمرغ أنفه فى الطين وتفضح خرمته ! ..
 صدقنى يا أم ان الحرام الذى كنت تدفعينى لارتكابه هنا اخف
 بكثير من الحرام الذى يفرق اهل ذلك البلد ! ان حرامنا بسيط
 لن يحاسبنا الله عليه يا أم ! سوف يفره لنا سبحانه على أساس
 أنه لعب عيال ! نحن هنا نفعل الحرام الصغير فتقشعر أبداننا
 خوفا من الله من عذاب يوم القيامة أما اهل القاهرة فانهم يفعلون
 الحرام الكبير دون ان يشعروا انهم يرتكبون الحرام ! لو قلت لك
 انهم يتفاخرون ويتفشخرون بفعل الحرام تقولين كذبا !! » ..
 أخذت أمى تفك الطرحة وتعيد لفها حول رأسها عديد من
 المرات ، فتخيلت كأنها ترمم دماغها خوف الانهيار ، قالت كأنها
 تختم الصلاة : « على كل حال جئت فى وقتك ! الدار هنا محتاجة
 لك تنتظر دخلتك يديها الله علينا ، وراحت تصب لى الشاي الدور
 الثانى . فيما أرشف الشاي كانت هى شاردة سارحة فى اللكوث
 ولكن ظهر على وجهها أنها تدخر لى خبرا اشعر أنه شغلها بل أنه
 هو الذى جعل مسألة سفرى أو بقائى فى المرتبة الثانية من اهتمامها .
 بعد برهة ميلت رأسها صائحة : « اذهبى ياسلمى ونيمى البسط
 والفراريج .. وانت يامندوهة قومى تربي للمعيز وأحبسها ..
 وباسعدية اذهبى فنيىمى هندية وحمود » . لا اطمانت الى أننا صرنا

وحدنا ميلت على قائلة في غبطة : « صابر ولد صفوان أبو عدس تعرفه ؟ » . قلت : « طبعاً » . قالت في نبرة مرعوشة بالبهجة : « ما قولك فيه ؟ » . قلت : « لى عشر سنوات لم أراه يام » . قالت : « انه معك في مصر .. هذه البلد التى كنت تحكى عنها الآن .. يروح في الشوارع يبيع الفانلات والسرابيل والملايات ومعسه قرش ومبسوط وكل بضع سنوات يجىء ليشتري قراريط الأرض ! » . قلت : « ما خبره يام ؟ » . قالت : « يدور على أختك سلمى ! يرسل نسوان دارهم ليخطبوها منى ! سيعيشها فى مصر ويستتها ! سيشتري لها قرطا وكردانا ومشخلة وخلخال وينفنها فى العز ! » . سرح خيالى برهة فى اللاشيء وما لبثت حتى أرتعش قلبى من الفرح ياخال أو من الخوف لا أعرف ، لكننى قلت : « مارايك انت يا أم ؟ » . قالت : « الذى أراه أن الولد شارى ! بعث لنا ثلاث مرات وجاء بنفسه مرة ! وطلب منى أن أبعت لك جواباً لتحضر أو أعطيه عنوانك فى مصر ليقابلك ففضلت الا يراك فى بلاد الفربة وكنت ساكتب لك جوابا بالمجىء ولكن الله أرسلك ! انه سبحانه يعرف بخت البنية ولسوف يجعل بسترها ! » . قلت : « على بركة الله يام ! على بركة الله ! انه طول عمره ولد طيب ابن حلال وجدع » . قالت أمن كأنها تعلن موافقتها النهائية : « ربنا يكتبها من نصيبه ! » .

المسألة جاءت سهلة يابوى ومثل العسل ، لم تستغرق والله شهرا قرانا فيه الفاتحة وعقدنا القران وسافرت أختى « سلمى » الى مصر فى زبطة وزمبليطة كبيرة ، وكنت معها وأنا وأمى وأخوتى حيث اطمأنت نفوسنا وتأكدنا أن لابنتنا دارا وعفشا وسترا ، وعقدنا الى الصعيد بعد يومين اثنين .

صرفنا القرشين وبقينا كما خلقتنى يارب ترزقنى . سبحانه الله يابوى ، ففى نفس الشهر جادنا من يخطب « مندووه » ، هو الآخر ولد يعيش فى مصر منذ بضع سنوات ويشغل نفس المشغلة ولكن فى وكالة البيع ، حيث يجلس بعربة يد صغيرة يصنع منها دكانا متنقلا يتسع بكثرة تصريفه فى البيع اسمه « نصر الأقرع » وأعرفه ولدا أجده من سابقه ، فقلت : « على بركة الله » . عقدنا القران فى انتظار أن ينتهى العريس من بناء شقة بتملكها على أرض يضع يده عليها فى منطقة مهجورة خلف صحراء الماليك من

جبل المقطم . في شهر واحد علمت في دارنا الزقاريد مرتين وأضيئت
شموع الفرح مرتين وجلس على كرسي الكوشة هروسان مزوكتان
أحدهما سافرت والأخرى على وشك السفر . . « عقبال سمديّة
وهنومة يارب ! اللهم ارزقني عمرا حتى أراهن جميعاً في بيوت
أزواجهن وأمسح لهن جميعاً دماء شرفهن وخلاصنهن وفائظ
أولادهن ! اللهم أسعدهن ! اللهم استر عرضهن ! وبلغهن كل أمانيهن !
اللهم أرض عنك يا حسن يا ولد بطنى ! » ..

هكذا راحت أمى تبتهل بصوت مخيف راعش ، رافعة وجهها
نحو السماء باسطة يديها . أخذت والله أحبس دموعى حبسا .

الثانية - بصرة بالبصرة

قلت لأمي في لحظة صفاء : « يظهر أنه مكتوب لنا لقمة عيش في مصر يأم ! ولا بد منها ! » . قالت : « يفعل الله بنا ما يشاء فنحن أولاده وهو مسئول عنا ! وليس هو سبحانه بالذى يفرط في المسؤولية ! حاشا لله يا ولدى ! لا تكفروا ! » . رحت أفكر في أمر العودة الى القاهرة ، مخففا وقع الأمر على نفسى بأن الله قد ساعدنى من حيث لا أدري فخلصنى من نصف المسؤولية ولا بأس من الغربة سنين اخرى ، فاذا بأمى تقول : « من قد تتوكل على الله يا ولدى فتبحث لنا عن رزق نعتد على الله وعليه مدة سفرك الى أن يكرمك الله ويبحث لنا بالحوالة » . قلت : « فعلا يأم ! صدقت ! غدا يحلها الحلال الذى لا يفشل ولا ينام » ..

الليل بطوله وأنا مفنجل العينين ياخال ، مخى يضرب بقلب ، هاتف جوانى يقول لى : قم الآن يامفقل وأسرح في هذه الفلسفة قبل خروج المصلين من صلاة الفجر وانت ونصيبك قاله لن يردك خائباً !! وهاتف لعله من السماء يزعمنى قائلاً كيف بعد ان صرت رجلاً محترماً يوقرك الناس تفعل أفاعيل كهذه ؟! افترض أن الطوبة جاءت في المعطوبة وضبطوك متلبساً فماذا تفعل أمام فضيحة بهلجلى ؟! وهاتف ثالث يقول لى تفعل يا حسن فانت غائب عن الصيد لك مدة كبيرة وقد صرت كالغريب أعمى ولو كنت بصيراً .. الله أكبر نطق بها صوت المؤذن فدوى من خلفه صوت أمى زاعقاً يروج الأرض من شدة ما فيه من حرج واستعطاف : « الله أعظم والعزة لله .. لا اله الا الله محمد رسول الله » . فتأكد لى والله يا بوى أن الله لا يبدى قد تآثر من ضربة أمى هذه بصوتها هذا الذى يفتت الحجر . تقول كافر لو قلت لك أننى قد رأيت الدهول ينشق في دماغى فجساة بشرخ سرعان ما اتسع وبرزت خلاله دموع تتساقط من عين مجبولة في الملو على خد يشبه سحب السماء الصافية ! ..

سحبت جلبابى الكشمير فارتدته ومضيت نحو الباب . تقلبت أمى ، قالت : « رابع فين يا حسن ؟ » . قلت : « أصلى الفجر

يا أم . قالت كأنها قد أحست أن صلاة الفجر هذه مجرد اسم لشوار آخر أنوى القيام به : « الله معك يا ولدي ! ادع لنفسا بالستر ! » . قلت : « يصل باذن الله » ، وخرجت ، فقامت هي وأغلقت الباب من ورأى بالترباس .

شقت طريقى الى المسجد الذى لم اكن دخلته فى حياتى من قبل رغم انه على مبعده ذراعين من دارنا . خلعت صرمتى القديمة ودخلت فتوضأت وأندسست بين صفوف المصلين فجاءتنى راحة كبيرة ، هبط الفليان فى صدرى ، تيقنت من اننى قد وكلت الله حقا فى التصرف فى امرى . الله وكيل يا بوى ما فى ذلك شك ابدا . فونحن نختم الصلاة لاحظت أن رجلا محترما يطيل النظر الى من تحت لتحت يتأملنى حتى أوشكت على الخوف منه ، فلما سبق من يجاورنى الى الانصراف تزحزح هو جوارى حتى حاذانى ومد لى راحة يده قائلا : حرما ، فلامستها براحتى قائلا : جمعا ان شاء الله ، وقبلت راحة يدى . قال الرجل : « ألسن حسن ولد أبوضب ؟ » . قلت : « صدقت » . قال : « كيف لاتعرفنى يا ولد ؟ » . قلت : « العتب على النظر » . قال : « أنا الحاج دعدور صاحب الجنان » . صحت قائلا : « به .. به .. به .. أبى كان يخفر لك ما كينة المياه » . قال : « والجنان كلها .. رحمه الله كان شديد الحب للعمل » . قلت : « خلف لك طيلة العمر .. لقد كنت أيامها طفلا صغيرا فاعلذرنى » . خرجنا معا من المسجد وقد بدأت انتشى لظهور شدة الشبه بينى وبين أبى رحمه الله . كلمة منى وكلمة منه ، أنت فىن واخبار الشغل أبه ، وحمد الله على السلامة ومبروك ما عملتوا . لم تكد نصل الى نهاية الشارع حتى كنا قد اتفقنا على أن اخفر له الجنان لموسم العنب فى مقابل ثلاث تلاليس من الذرة العويجى ، خلاف كسوة واكل وشرب لمدة ثلاثة أشهر . بالصلاة على النبى طلعتنا من المسجد على الجنان فتسلمتها وتممت عليها وعلى المكان الذى سأبيت فيه وفهمنى أن من بين عملى الى جانب الخفارة أن اجلس امام الجنان بفرش كبير يضم اقفاصا مملوءة بالعنب الفرط المطلوب بيعه وأكله فوراً قبل فسادة .

الجنان قديمة ، لكن المبانى زحفت عليها حتى باتت الجنان كأنها فى وسط البلد . قصادها مباشرة دار صغيرة محندقة فيها فتاة جميلة تقول للقمقم لاجلس مطرحتك ، ويقول لى قم فلا تجلس ابدا . ذهبت بعقلى ياخال ، تقول سحرتنى ! برجلتنى ! لخبطت

تُزلى ! انستنى الخفارة وكل شيء ! الملعونة بنت الملعون تقف امامى
تركنى ابصيص لها فاعلا بعينى الافاعيل ! ولربما ينبهنى المارة الى
ان الميز والدواب الفاتنة قد حودت على اقفاص العنب ونزلت فيه
اكلا على راحتها فيما انا المنسحر مسمر فى مواجهة الفتاة الملعوب
ذات الوجه الوردى والبدن المتلعبط كالبلطية تحت ثوبها الواسع !
كانت تتعمد برجلتى واللعب بمخى اذ هى تكثر من المرواح والمجئء
على الدوام تنقصع تتلوى تشد كل العروق فى مفاصلى ، فأروح
أنادى على العنب واضعا فيه كل الصفات الحميدة ابته لواعجى
واشواقى اعب عليه تعذيبه لى وثقله على وتاريخى فى انصاص
الليالى .

المضروبة لم تهدأ . فوجئت بها ذات عصرية تدخل على الحاج
« دعدور » حاملة قفة كبيرة . ظننت والله انها دخلت تدس فى حقى
لديه وتشكونى ، فتسللت وراءها بصنعة لطافة وتلكأت بجوار
الحاج دعدور . فاذا بالبتت تطلب من الحاج دعدور أن يبيعها
خمسین رطلا من العنب على أن تدخل هى وتتقيها . قال لها الحاج
« دعدور » وهو يضع النقود التى أخذها فى محفظته : « ادخلى
فانتقى كيف تشائين ولكن هل تجيدين قطف العنب ؟ والا انفرط
منك » . قالت البنت : « ابعت معى بهذا يقطع لى » ، وأشارت
الى ، فرقص والله قلبى من الفرح ووقفت أنتظر ، فصاح الحاج
دعدور : « ادخل معها يا حسن وخذ معك المقص الحامى » . قلت
فى امتنان شديد : « حاضر يا حاج » ، وأشارت الى الفتاة أن تتبعنى .
ظلت أمشى داخل الجناب أكثر من ثلاثة كيلو مترات ، اختفى الحاج
دعدور وصرنا وحدنا لا عين ترقبنا سوى عين الله . توقفت الفتاة
عند تكعيبة مثقلة بالطيب الناضج وقالت : « اقطف لى من هنا ..
واقطف لى من هنا » ، فأشرعت المقص ورحت أنتقى من التكهيبية
أطابب العناقيد فأقطفها بحكمة وارصها فى القفة وهى واقفة ترقبنى
وتكتم ابتسامة شقية بين شفيتها . صدقنى ياخال أننى لم أعرف
حتى الآن سر هذه الخيبة التى حطت على ! لقد كنت انشال وانحط
فى سبيل أن تحن على بكلمة أو تنفرد بى لحظة فى مكان ! فما بال
ولد خالك يقف هكذا كاللوح اللطزان بعد أن جاءته الفرصة وصار
معه فى خلوة بعيدة ! . كل ما أدريه أن سهم الله قد أصابنى
فشل حركتى وأعجز لسانى وحول عينى فاندمجت فى قطف العنب
ورصه بحماس وجدية ، فلما امتلأت القفة أمسكت بطرفها وشيلتها،

فما استوت ألقفة على دماغها حتى نظرت لى نظرة فيها الهزء كله
والسم كله ، فانخفض بصرى الى الأرض ، فاذا هى تلفظها ، تلك
الكلمة اللعينة التى لم أكن أتوقع أن تنطقها : « ... أمك » ، ثم
دفعتنى بيدها دفعة واحدة تهاويت منها متطوحا اتساند على الهواء .
لحقت بها جريا وأنا أصبح : « الله .. الله .. طب حرك على ..
تعالى .. تعالى بس » ، لكنها لم تلتفت الى ومضت تتبخر تحت
القفة الثقيلة ومضيت أجرجر اذبال خيبتى ولو كان معى مسدس
فى تلك اللحظة لأطلقت كل رصاصه على نفسى . منذ تلك اللحظة
انزعت هذه البنت فى قلبى ولم تفارقه ليلا او نهارا كأن بينى وبينها
ثارا لايد من تصفيته !.

انتهى موسم العنب يابوى ، واوشكت التلاليس على الانتهاء
هى الأخرى . هم يضحك وهم يبكى !! تصور اننى وقد صرت
عاجزا عن شراء ورقة دخان لف أفكر فى خطوبة هذه البنت ؟! يظهر
اننى من لخمى وصلت متأخرا ، الأيام التى مرت لم تكن طويلة ،
لا تزيد عن جمعة ، غبتها فى مشوار أحصل من ورائه لقمة عيش ،
حيث قد لجأ الى نفر من المطاريد فى أن أساعدهم على بيع زريبة
مسروقة قوامها جاموسة وبقرتان عشار . وفقنا الله بفضلته وفضل
العبد لله فى تسريب البيعة الى بلد بعيد بسعر مربح للطرفين ولى
بطبيعة الحال ، أخذت حتى من الطرفين ورجعت عامر الجيب
والقلب تداخلى ثقة فى اننى سأجرؤ على تخطى عتبة دار الصبية
لأجلس فى حوشهم طالبا القرب من أبيها ، ومكسبى من السريقة
المباعة ليس بالذى يمكننى من قراءة الفاتحة وابتياح هدية ثمينة
للعروس والوعد بما لذ وطاب لكنه كان مجرد عتبة اتخطاها ولسوف
أعود من أجل خاطر عيونها الى مصر راغما صافرا وعلى قلبى أحلى
من الفحل . ليست جلابى الكشمير والبلدة الجيدة والمركوب
الوردي اللون ، وزودت علبه دخانى بكيف يزن أوقية ، وذهبت أخطر
نحو دارها آملا فى تلقفها وتبليغها انى قادم لخطوبتها فعليها أن تمهد
لى الطريق الى أبيها . لكننى فى ذلك اليوم لم أصادفها فى الشارع .
تلكأت فى كل مكان ظننتها تتواجد فيه ، كدت والله أطرُق البساب
وأنادى عليها بصوت عال وبلا حياء صائحا : افتحى ياحنة - ذلك
ان اسمها « حنة » - بل كدت والله ادفع الباب وأدخل كما فى
المواويل قائلا انا قتيل المحبة ..

تنطمت متوقفا جوار باب دارهم تحت شبابهم كأننى انتظر

رسولا منهم وكأنتي في نفس الوقت أقف في شارع الله الذي يحق لكافة الخلق الوقوف فيه . لفقت أكثر من خمس سحائر دخنتها في عجلة وعصبية ونسيان ، أذني قد غادرتني وتربعت . صحن دارهم من الداخل لعلها تلتقط لي من بين الأصوات صوتها فلم يبلغني طوال وقوفي أي صوت ، وعيني منتزعة من مرقدتها تحت جبهتي وراحت تمتد في كل مساحة خالية تبحث عن طيفي فكانما نظراتي اشعاعات كشاف ترنحه الرياح ، فلما لم يعلق بها طيفها انطفأت خزيانه خسرة . وهكذا أغمضت عيني وأشعلت سيجارة وأخذ دماغي يسترد نفسه ليفكر بهدوء في الأمر . دهمني والله احساس مفاجيء بأن الشؤم قد حالفني اليوم معها ! اذ أني لم اكن أصدق ان تختفي فجأة هكذا يا خال ، وهي التي كانت تروح وتجيء في الدقيقة الواحدة ستين روحة وجيئة وكأنت تبقى موجودة في الشارع كله حتى وهي داخل دارها . جاءني احساس بأنها الآن لابد أن تكون في خلوة مع أحد ، ففار دمي فورانا ، واوشكت أجرى في الخلاء بنبوت أشج به رأس كل من يلقاني . لم يسعفني الا طفل صغير من أبناء جيرانهم رائته يلعب بجواري ، لاطفته سرحت به ، عرفت منه ان « حنة » انتقلت هي وأمها برفقة ابها الى بلدة « اولاد الياس » المجاورة حيث ستبقى هناك طويلا الى أن يعود العمدة ! ..

سبحان الله يابوي . خطر في بالي أن « حنة » هي ابنة « أبوسكين » الخفير الخصوصي والمرافق للعمدة أينما ذهب . والعمدة له زرع عريض في النجع القريب منا ، يحلو له أن ينقل محل اقامته الى هناك ليكون ساهراً بحق على رجاله . لما تذكرت ذلك خفت لبرهة ثم حمدت الله أن نزل على سهم الله حين انفردت بها في الجنان . ثم قلت : ما من بد ، فلا بد أن أراها ، ولاخذن معي واحدا من صحاب عمري القديم أو بالأحرى من صحاب أبي وتقصد الكريم الى دارهم ..

في الصباح بحثت عن أحد يذهب معي فلم أجد . فانتظت أيما عَظِيط : فلاذهبن وحدي بنفسى من أجل نفسى الست رجلا يملا العين ؟ وقد كان .

أدركنى الضحى على الطريق وأنا اتنسم ريح « حنة » وعطرها كلما اقتربت من حدود « اولاد الياس » . الى أن امتلأت خياشيمي برائحتها النفاذة ، قتلت حولى ، فاذا بـ « أبوسكين » الخفير يخرج من عَظِيط القطن المجاور لي ، والعمدة يتحنجل أمامه متقافزا فوق

الزواريق منفوخا يكاد الكبير يفتركه ، وكان الشر باديا عليه حين أرسل نظرة سيئة الى جوارى فنظرت فاذا بولد صغير قد سرق ملء حجره قطناً وها هو ذا يقف مشلولاً بسريقته يتلبسه الذعر . انقض عليه العمدة فامسكه من كتفه وهزه بعنف ولعن آباء الذين خلفوه ، رمى به الى « أبوسكين » الخفير . ضربه « أبوسكين » بالكف على وجهه ونزع ما معه من قطن ثم تركه نظرت في الولد فعرفته وعرفنى ، انه ولد غلبان وعلى قد حاله ولكن يكفيه صبيتنا أن « عبد الرحمن ملك الموت » عمه لزم . .

عم الولد اسمه « عبد الرحمن » على اسم سيدنا عبد الرحمن عزرائيل الذى يقبض الأرواح بأمر من الله جلّت قدرته . ولأن عبد الرحمن كان قويا كحصان فتى عملاقا كميّدة ضخما كفيّس شرسا كحوت فانه كان اذا ضرب واحدا براحة يده يقل عليه يارحمن يارحيم فما بالك لو ضربه ضربا حقيقيا ؟ اذا نزل في عركة فلن يجرؤ مخلوق مهما كان جعيفا أن يقف قبالة . كان منظره يفض الخناقة في عزها ، يكفى أن يعلن أنحيازه - ولو بكلمة - لآى طرف ، فعلى الطرف الآخر أن يجمع رجاله وحطام خسائره ويفضها . « عبد الرحمن ملك الموت » كان جبارا مكارا خبيثا غيبا ، يبيع نفسه بيما وعلى المكشوف ، ياويلك لو خلفت معه اتفاقا تم بينكما باللسان لن يبدك اهلك ذات لحظة بكل بساطة ، واذا كانت الحكومة شاطرة تجيء بأى اثر لآى جريمة . وقد عجبت والله يا بوى كيف نسي « أبو سكين » كل هذا في هذه اللحظة ؟! كيف تهور وضرب الولد على وجهه بقسوة ؟! قلت في عقل بالى : حقا ان الخادم المذكور من سطوة سيده يبقى سلاحا اعمى في يد سيده . عذرت الرجل لما رأيت شحابة خوف وندم تمر على وجهه ، وقلت : ربنا يستر .

الهمنى الله بكلمتين طبيبتين هدأت بهما العمدة وانتهزت الفرصة فسلمت عليه وعلى الخفير فكرتهما بأعمامى الفقهاء ومضيت خلفهما حتى ما كينة مياه العمدة تحت مجموعة متكاثفة من أشجار التوت والجميز والمصفصاف والكافور ، حيث جىء بكرسى من حظيرة منزوية جلس فوقه العمدة ، واقعى الخفير « أبوسكين » تحت قدمي العمدة على الأرض . رميت السلام وشرعت أنصرف فقال العمدة على سبيل المجاملة : « اقمدا شرب الشاي يا أبوالعم » . قلت في امتنان : « تشكر يا عمده كلك واجب » . وقال « أبوسكين » في

ود صادق : « استرح يا ابوالعالم فالطريق طويل » قلت : « ابوالله حق الله » ، ثم أقعيت بجوار الخفير تحت قدمي العمدة منكساً رأسي في الأرض صامتاً . صرت كالغريق في بحر ياخال ، عقلي يقول لي تكلم يا عبيط هذه فرصتك جاءت لحد عندك ومن حسن حظك ان العمدة حاضراً ومخضراً قد يجيء خيراً لك . لكن عقلي يرجع فيقول لي اعقل يا ولد ! فضك من شغل الحب والفرام ولعب العيال ! أمعك شيء حتى تتشملل وتجيء لمخطب ! وابنة ابوسكين الذي يستطيع بقربه من العمدة أن يضرك وبمشيك على هواه ؟! وعلى فرض أنه وافق فمن يضمن لك أن ظروفاً ستعينك على تنفيذ ما تتفق عليه مع الرجال ؟ أحمد الله أنك لم تتكلم ولم يصدر عنك شيء يفضح صغر عقلك ! ..

لحظتها ياخال ، زحف أمام عيني المنكستين طيف على شكل ظل ملا الدنيا برائحة اللقاح والبذور ورائحة الحنطة ! في أسفل الظل كمين مستديرين كالريال الفضة يتسحجان على الأرض وتختفيان مع ظل الطيف ، إلا والعمدة يقول : « كتر خيرك يا حنة » انتفضت كالطفل الصغير يسمع زمارة بائع الحلوى ، ورميت بعيني في كل اتجاه لعلني أراها ، لكنها كانت قد اختفت . خفت أن أكون فضحت نفسي فنكست رأسي من جديد فاصطدمت عيني بصينية الشاي النحاسية عليها كوبات الشاي ..

يمين بالله ياخال ماكدت أضع كوبة الشاي على شفتي حتى سمعت ديباً عفياً فوق الأرض أرجف الكوبة بين أصبعي ، رفعت رأسي ، فتلبسني الدعر في الحال ياخال ، إذ رأيت « عبد الرحمن ملك الموت » مقبلاً يمسك بنبوته الشهير يجر خلفه الولد الذي انضرب . الناس في بلدنا إذا راوا « عبد الرحمن ملك الموت » ماشياً بنبوته إيقنوا أن طلعت له ن تخيب أبداً ولا بد أن تسفر عن قتيلين أو ثلاثة في لمح البصر ! ..

دخل « عبد الرحمن ملك الموت » نحونا فكان الدنيا قد غيمت قال في أريحية وبكل ود وطيبة : « السلام عليكم يا عمدة » ، ثم أقمى بجوارنا ، ونظر لولد أخيه المضروب قائلاً بابتسامة تشجيع : « شوف يا ولد من في هؤلاء ضربك » وأشار نحونا . كيف تم كل ذلك في لمح البصر يا خال ؟ يعلم الله كيف ولكنني فوجئت بنفر من ولد أخ « عبد الرحمن ملك الموت » قد صاروا واقفين بالنبايت حولنا من كل جهة . أشار الولد الصغير إلى « ابوسكين » الخفير وكانت

البندقية المرمى لا تزال معلقة في كتفه ، فإذا بالنبأيت تنهال عليه كالطير ياخال . فلنفس الخفير وانطلق يجرى في الطريق والولدان يجررون خلفه يلاحقونه بالنبأيت كلما طالوه ، الى أن سبقتهم بمسافة واستدار رأفا البندقية في وجوههم ثم أطلق عليهم الرصاص فأوقع بثلاثتهم على الأرض قتلى قارقين في دعائهم .

« عبد الرحمن ملك الموت » رأى جثث ولد اخوته مجندين على الطريق فانتفض واقفا يبغى اللحاق بالخفير ، فإذا بالعمدة - وكان هو الآخر غيبا كبغل استرالى - يطبق في « عبد الرحمن ملك الموت » بطوقه بذراعيه بكل قوته فصاراً يهزان بعضهما كجبلين ملتحمين والخفير واقف منهما على مقربة لا يعرف ماذا يفعل ، العمدة يصيح به : « اقتله ! اقتله هو الآخر ياغبيط » . وكان « عبد الرحمن ملك الموت » قد بهدل العمدة وأوشك بمرمغ به الأرض ، وكل منهما يدور بالآخر في دوامة ، والخفير يصوب ماسورة البندقية في جنب « عبد الرحمن ملك الموت » ويضرب ، فتخرج الرصاصات من الضلع الآخر مخترقة صدره بالعرض . وهنا تركه العمدة فوق ، لكنه نهض في الحال ، اندفع يجرى خلف الخفير والدم ينزف من جنبه ولا أعرف كيف التقط نبوته ثانية وأغلب الظن أن نبوته هو الذي طار اليه ، وكان العمدة يجرى خلفه ليحول بينه وبين الخفير الذي تمثر فوق في المصرف . بحركة بهلوانية استدار « عبد الرحمن ملك الموت » مرتداً في قفزة واحدة حيث هوى نبوته على رأس العمدة بضربة واحدة سقطت العمدة بعدها وشظايا من مخه تتناثر في الهواء كزبل الحمام . ثم ان « عبد الرحمن ملك الموت » قفز قفزة أخرى نحو المصرف مباغتاً الخفير بضربة أخرى فوق أذنه ، وكان لحظتها يحاول تخلص البندقية من ظن المصرف فسقط وأياها في الطين جثة هامة ، فوقها سقطت جثة « عبد الرحمن ملك الموت » هامة ، أما نبوته فكان من عزم الضربة وانفكاك اليد قد طار بعيداً ليصيب العمدة بضربة أخرى - عفوية هذه المرة - في صدره !! ..

واه يابو ..و.ي. : واه ، ست جثث مرمية على الطريق وفي المصرف الراكد تنتظر قدوم النياية أربعة أيام بخمس ليال تضرب فيها الشمس حتى تعفت . يمين الله ياخال ان الرائحة الكريهة بقيت كاتمة على أنفاسنا جميعا سنين طويلة ، والخوف

كله بات ساكنا عند ماكنة مياه العمدة وعفارت القتلى تتسلق
الاشجار والحظيرة تكيد للبشر ليل نهار ! ..
اندفنت الجثث ، والنيابة التى يهملها التصريح بدفن الجثث
لم يعد يهمها الامساك باحد ممن يعتصمون بالجبل ، كانوا الجبل
يخرج عن حدود مسئوليتها ، والواقع يابوى أنه يخرج عن حدود
طاقاتها وقوتها . وكان العمدة قد تكفل بتهرب زوج الخفير وابنته .
اهل الموتى دفنوا موتاهم فى صمت كان شيئا لم يكن ، حتى بدا كانهم
سلموا امرهم الى الله بعد سقوط زعيمهم . سبحان الله يا خال ،
على خطورة هذا الحادث الكبير فانه مر كما يمر أى حادث ، نسيه
الناس فى بحر ايام قليلة ! ..

ما أدري الا والعمدة الجديد ابن عمه يبعث خفيرا محترما فى
طلبى اثبت بقلبي من بين ساقى وقتل لابد أنه ينوى أن يستشهد
بى ويجر جرنى فى محاكم ونيابات وانا جسدى مثلبس بها من حاله
فلا يطبق منظرها . فكرت اتنى لابد لى من الهرب يابوى ! ابيضق
بى الصعيد هو الآخر واضطر للهروب منه ؟! لم يعد امامى انا
الآخر سوى الجبل اعتصم به ! ولكن هل انا قد الجبل ؟ طب وامى
واخوتى يابوى من يرعاهم ؟! وما لزوم الجبل ؟ وما لزوم الهرب ؟!
الصراحة حلوة ! الكلمة الطيبة احسن ! اطفى ! كلمة حاضر ليس
اربح منها ! قل حاضر لمن يلح عليك وافعل ما يحلو لك بعدها فى السر
او فى العلن فلن يعترض احد ! ! ..

بحلقت فى عيني الخفير فلم اجد فيهما عكارة تشي بان فى الامر
ضررا ، فتوكلت على الله وذهبت معه . خير يا عمده ؟

لدهشتى سلم على يدا بيد وقال : « اجلس »

فأقعيت على الأرض بجوار الكراسى الخالية ..

قال : « يا حسن يا بوضب » ..

قلت : « نعم يا حضرة العمده ؟ » ..

قال : « مابقى فيك من لبن امك ؟! » ..

قلت : « كله بعون الله يا عمدة » ..

قال : « اعرف والا ما بعثت لك ! » ..

صار قلبي كالشبوكة فى خيط مطاط يلعب به صبي . لكننى

استطعت أن أقول : « ملك يمينك يا عمده » ..

قال : « بحثت فى البلدة كلها عنى يكون قد بقى فى بدنه شيء

من لبن امه فلم اجد فبعثت لك .. هات شايبا يا خفير » ..

قلت لنفسى اهلا وسهلا ، وتوقعت أن يكلفنى يقتل احد
الاشقياء ، وبدأت افكر فى حيلة اخرج بها من المزنق . دخل الخفير
بالشأى فى الحال ، للعمدة ولى .

وقال العمدة وهو يشفط : « شف يا حسن .. الحكاية وما
فيها أننى ابحت عن يخفر لى ماكينة المياه طول الموسم .. وكل
من مرضت عليه الأمر يخاف من عفاريت الجثث !! » ..
قلت باسمها وقد هان الأمر على نفسى : « معهم حشق يا عمده
فماكينة المياه مسكونة » . قهقهه العمدة ضاحكا وقال مشوحا فى
وجهى : « عفاريت ايه يارجل ! أنت رجل ميت القلب وأبوك أحسن
من خفر المكن .. اسمع .. لسوف أجعلك مبسوطا على الآخر طوال
الثلاثة الأشهر مدة الموسم » ..

فى هذه اللحظة يابوى ، الله وكيل يابوى ، طقت الفكرة فى
دماغى لا أعرف كيف ! قلت له : « رقبتي فداؤك يا عمده لكن لى
طلب واحد فقط لو نفذته لى .. » . فhez رأسه فى قبول حسن
وقال مشجعا : « قل عليه » . قلت : « أريد أن اتزوج حنه بنت
أبوسكين » ..

انقلب وجهه فى الحال يابوى ، وظهر عليه الغضب الكبير حتى
خلت أنه سيرفسنى فى وجهى بقدمه ، إلا أنه تلطف فى الحال
قائلا : « زواج ماذا يا بوالعم !! نحن فى جناز ! هل هذا وقته
بدمتك !! » . خجلت من نفسى والله ياخال ، ومادت بى الأرض ،
فقلت : « ملك حق يا عمده ! كان يجب أن أميز ! » . قال :
« سأعطيك فى الثلاثة الأشهر ثمانية تلاليس من اللرة ! » ..

ثمانية تلاليس يابوى ، كمية كبيرة والله يا أبو العم ، أربع وستون
كيلة تستر جوعنا وعمرنا زمتنا طويلا ، فقلت : « موافق يا عمده !
ورينا معى بأذن الله ! » . فنادى على يخفره أن يرسل فى أعقابى
أربعة تلاليس من اللرة العويجى الى دارنا مقدم اجرة أحصل على
بأقياها قرب انتهاء الموسم .

الثالثة - عصف الريح

الليالى طويلة ياخال ، والشجر اشباح مقيمة تضاعف من عمق السواد الكاحل ، وقلبي واقف بين جنبى ياخال ، فلا ارى الا شبح « حنة » محفوا بعفريت عبد الرحمن ملك الموت الذى يتمها فى ضربة متهورة غشيمة ، اهو الشؤم ام قلة البخت ؟ ام انه موعظة من الله يسوقها لى كى اتمظ واصرف نظرى عن « حنة » ؟! وهل الامر بيدى يا بوى ؟! لو كان غيرى فى مكانى لضرب هذه البنت بالصرمة القديمة ورفض الزواج منها ، لقال انها سهلة المنال ترمى نفسها تحت اقدام من يرغبها وليس بالضرورة ان ترقبه !! عقى يقول لى هذا الكلام دائما ، وارد عليه مصدقا له ، مع ذلك ما ان تخطر « حنة » على بالى فجأة حتى ينتفض قلبى كمصفور معلق فى خيط من المطاط . تقول عنى كاذبا مجنونا لو قلت لك انى دخلت الحظيرة التى كانت تعيش فيها « حنة » قبل الحادث فتسنمت رائحتها قوية نفاذة مريعة ياخال . قلّ عنى ما يحلو لك لكننى لم يكن بهنا لى نوم الا فوق مصطبة تخيلت انها كانت تبست فوقها !!

انتهى الموسم على خير وبركة ، ورزقنى الله بحفنة جنيهات بعث بها سواقط من زرع العمدة ، وعمرت الدار بخزين يكفيها شهورا ، وعمر جيبى بعمد يكفينى للسفر ..

رات امى ان تعد لى لقمة طرية اكلها فى الطريق او بعد وصولى ، ما كان لها لزوم ولكن هل اقدر ان اقول هذا لامى ؟! .. بالامس اجلت سفرى حتى تفصل لى ثيابى ، واليوم توجله حتى تصنع لى لقمة ، وغدا يعلم الله اى سبب جديد يطرا عليها فتؤجل السفر من اجله !! . قمت امشى فى البلدة قليلا املا منها خواطرى قبل ان اودعها . كنا فى الضحى والجو كثيب ملئ بالرياح المتربة رايت جماعة من الرجال يجلسون على مصطبة بجوار دكان الخياط . سلام عليكم ، عليكم السلام .. جلست جوارهم . كان الراديو يرفع عقيرته بالفناء الحماسى ، وكل الأغاني تقول : مصر مصر مصر مصر وكلاما كثيرا

غريبا . قلت : « ما هذه الاغنيات ؟ » . قالوا : « مالها ؟ » . قلت : « فيها جر شكل كبير » . قالوا : « سمعنا الراديو منذ برهة يقول ان ثلاث دول كبيرة هي فرنسا وبريطانيا ومن تسمى باسرائيل قد هجموا على مدينة بورسميد - الباسلة - وان الله نصر ابو عبد الناصر عليهم » . وكان صوت « ام كلثوم » يغنى قائلا : صوت السلام هو الى كان واللى حكم !.. قلت : « يه .. يه .. يه مصر اذن بخير يعنى ام لا ؟ » . قالوا : « العلم عند الله » . قلت : « مسافر انا اليها فى الغد » . قالوا : « سلم لنا على ولد ابو عبد الناصر » . قلت كاننى سافعل : « يوصل » . ثم خفت يا بوى ، قلت لابد ان طيبة قلب امى هي التى عطلتنى من اجل فائدة لى ! فهل من المعقول ان ينتصر « عبد الناصر » على ثلاث دول ؟! اما اسرائيل هذه فلم اكن سمعت عنها من قبل يا بوى . واما فرنسا وبريطانيا فاعرف اننا كنا واقعين تحت احتلالهم حتى مجيء « ابو عبد الناصر » الجدع الأمير ! هو صحيح جدع وأمير وبطل ، ولكن هل من المعقول ان يحقق مثل هذه المعجزات يا بوى ؟!

عصفت الريح فجأة وأهالت علينا تلاليس تراب ، فأحسست والله ان الجو يندر بالخطر . مر اثنان من عائلة « عبد الرحمن ملك الموت » يضعان يدهما فى فتحى الجلايه ، وكانا مسرعين يبدو عليهما الاضطراب والبرجله ، لم يلقيا السلام علينا ، فنظرنا الى بعضنا وقلنا : « استر يارب » ذلك أن مشيتهم ذكرتنا بمشية « عبد الرحمن ملك الموت » . بعدها بقليل فات علينا اثنان آخران من نفس العائلة يمشيان نفس المشية السريعة الملهوكة ولكن فى الاتجاه العكسى . فى اعقابهما فاتت امرأتان تندثران فى ملسين أسودين ولا يبين من جسديهما اى شيء ، وكان يبدو من شكلهما انهما غريبتان عن البلدة . تابعنهما بعيوننا حتى اختفتا فى حودة الشارع . كفت الاغنيات فجأة وخرج من الراديو صوت « ابو عبد الناصر » بدات نفسه يهذر بكلام كثير فهمت منه انه يوجد فى مدينة السويس قناة حفرها اباؤنا وكانت فرنسا تضع يدها عليها وتبيع المرور فيها لخلق الله بأموال طائلة وان « ابو عبد الناصر » الجبار اخذ منهم هذه القناة قائلا : جحا اولى بلحم توره . فصفت والله لهذا الكلام ولما فهمونى معناه على الحقيقة تفجرت صياحا مع هدير السامعين ، هتفت : بحميك !.. بحميك يا ابو عبد الناصر يا جمال ..

الا وصياح شديد يجيء من يميننا ويقترب ، اذ نحن كلنا وقوف ننتظر . واذا برجل يجرجر جسد امرأة على الارض وخلفه بضع رجال وأطفال يصيحون ويذاطون ويجعمون فلما اقتربوا منا تبين لنا ان المرأة المجرجرة على الارض هي إحدى المراتين اللتين مرتا علينا من قبل ، وان الرجل الذى يجرجرها هو أحد رجال عائلة « عبد الرحمن ملك الموت » الذى مر علينا من قبل ، وكان يصيح من أعماقه : قل أنا امرأة يا ابن الكلب . والله ياخال لم تمض دقيقة حتى امتلأ الشارع عن آخره بناس من عائلة « عبد الرحمن ملك الموت » وأقاربه ، راح كل منهم ينزع عن هذه المرأة شيئا حتى عروها كما ولدتها أمها فاذا بالصياح يرتفع ساخرا مستنكرا واذا بنا ننظر رجلا كامل الرجولة واذا هو « عجرود » ابن العمدة كان متنكرا ليهرب من البلدة قبل أن يفكر ولد عم « عبد الرحمن ملك الموت » فى اصطياده ، ولم يكن يعرف أنه خرج من جحر الدار الى المصيدة نفسها . و .. يا زين صلى !!.

مجزرة يابوى ؟ جهنم الحمراء انطلقت ؟ فنوس وكريكات وبلط وسكاكين ومخارط ومناشير ، غير العصي والنبابيت .. كل ذلك راح ينهال فوق جسد « عجرود » ابن العمدة الوحيد ورفيقه الذى كان متنكرا فى رحلة الهرب . ! الناس الناس يابوى رات المنظر هكذا فأخذت تنصرف من كثرة البشاعة ، حيث سقط جسد « عجرود » المسكين على الارض راسه مفتت كراس الديبحة . جاءت نساء من عائلة « عبد الرحمن ملك الموت » يجرين نحو الجثة ، ملن عليها ورحن يشربن من دمها كما يشربن عصير القصب ، ويقمن يمسحن الدم عن شفاههن ، ونساء أخريات مررن فوق الجثة سبع مرات ، ثم انهالت السكاكين والبلط تقطع فى لحم عجرود ورفيقه وترمى للكلاب التى تكاثرت وانسعرت . ووالله لم يتبق من جثتهما سوى بقايا عظام وأظافر ، وحصيرة دم راحت الكلاب المستضعفة تلعقها فى سأم !!.

كل ذلك ونحن جلوس فى أماكننا يابوى . فى العصر جاءت عسكر الحكومة واستجوبت من لقيته من الناس ، فلم يفتح احد فمه بكلمة ، فانصرف العسكر دون ان يقبضوا على أحد مروا فى طريق عودتهم بدار تنبعث منها الزغاريد العالية والطبول والدفوف الراقصة ، ولو سألوا عن الدار التى ينبعث منها هذا الفرح لقال لهم انها دار « عبد الرحمن ملك الموت » ، ولو فكروا فى الفرجة على هذا الفرح

لأروا صيوان الغزاء قد اقيم وبنا الرجال يرشون الأرض ويرصون الكراسى ويعدون الميكروفون .. فالיום فقط يحق لهم تقبل الغزاء في قفدهم .

امتلا جو البلدة بالغباب السود ، ولم تتمكن أمي من صنع لقمة طرية او فعل شيء بعد الذي رايناه رؤية العين في قلب شارعنا في قلب الظهيرة والشمس مخترقة سقف السماء . وجاء خبر الحرب في بور سعيد فكسر مقاديفي يا بوى وصور لي مصر القاهرة كأنها ماسورة مدفع كبير . قل ان يدي تطاولت على اجرة السكة ، اخذت منها ثمن ورقة دخان لف ، وفي ثاني يوم ورقة ثانية ، وثالثة في ثالث يوم . آخر قرش اشتريت به سيجارتين مكن فرطتهما ولففت خمس سجاائر رقيقة وجلست في حوش دارنا افكر في « حنة » . قلبى هذا العلق اللعين يريد ان يربطنى بمصرها ! لا يريد ان يبرح البلدة ويتركها ! أجد نفسى جالسا في عز الليل وحدى أقول لنفسي ما الذي ستفعله هذه المسكينة الغلبانة التي لم يعد لها احد في هذه البلدة ؟! هل يعوضها العمدة المنكوب في امر مخلوقين لديه ؟! هل يستطيع اى عوض ان ينسيها بشاعة ما حدث لابيها ؟ صدقت ياخال اذا قلت لك اننى الوحيد الذي يستطيع ان ينسيها لو اخذتها ممي الى مصر بعيدا بعيدا وأريتها من فنون العشق والجنون الكامن في مصر ما ينسيها أهلها وحتى اسمها . آه — فقط لو أراها !!

الأيام تجر بعضها ومزاجي معكر يا بوى ، ليس في جيبى سيجارة ودمى السخن يمسكنى عن طلبها من أى خسيس . دخل علينا شهر رمضان ، أهلا وسهلا شهر مبارك ، هو ونصيبه . أول يوم كنت جالسا ساعة العصر افكر في ما عسى ان تكون أمي قد أعدته لنا في الإفطار . في شهر رمضان جند الإفطار تخرج الصوتانى من دور كل فروع العائلة لتمتد في المندرة ، حيث يتجمع رجال العائلة ويستقدمون معهم من يلقونه في الطريق او من يعزومونه من قبل او من يشدونه عنوة للإفطار من أبناء السبيل . دارنا هي آخر دار في الصف منعزلة قليلا لكنها — شأن بقية دور العائلة — متصلة بالمندرة ، فاذا كنت جالسا في مندرتنا ساعة الإفطار تلاحظ ان للمندرة بابا داخليا يفتح على دهليز مستطيل كأنه شارع داخلى تحفه الجدران وتفتح عليه أبواب الدور على الجنبين ..

تخيلت نفسى جالسا في المندرة بين الرجال أرقب الصينية القادمة

من دارنا اتخيل منظرها وما سيكون عليه من تعاسة . توهت نفسي بعيدا عن شارعنا ، غامدا متعمدا ، حتى أدركني أذان المغرب في جامع في ناحية أخرى من البلد .. فامسك بي رجل كنت أعرفه من زمن ولم أكن قابله منذ سافرت الى المخروبة مصر ! . رأسه والف سيف ان اذهب للافطار معه . ذهبت يابوى ، فاذا بالرجل يقدم الصينية امامى عليها فضلة خيزك أربع فردات من الحمام السمين وسلطانية الشورية التي لا مثيل لها في تعمير الدماغ . بالهناء والشفاء أكلنا وشربنا الشاي والذي منه ثم اتكلت على الله مروحا الى دارنا ..

ثاني يوم في رمضان عدى على خير هو الآخر واستقضيته كلشئكان . ثالث يوم فات هو الآخر لا أعرف كيف . رابع يوم كان يوم اثنين وهو يوم سوق بلدتنا . في يوم السوق لابد ان تشتعل الكوانين في كافة الدور حتى دور القلاية والأرامل ، فالشحاذ نفسه لابد أن يستقضى في هذا اليوم لحما ويطبخه ، والبلدة كلها من اجمص جميعص لافقر فقير لا تاكل اللحم الا في يوم السوق هذا اللهم الا بعض الايام المفترجة وهي لحسن الحظ معدودة على الاصابع كل عام ، وفيما عدا ذلك من أيام فلا احد يذبح او ينصب سببة لحم .. في الضحى دخلت على أمى : « ممك نقود لنشترى لحما يا أم ؟ » ..

قالت : « لا .. ولا ملیم » ..

انكسفت وسكت ، ثم خرجت . صليت العصر وضيعت وقتنا عند دكان الخياط ، الا وصاحبى الذى عزمنى على الافطار اول يوم مقدا الى الحمام يلتقى بى وجها لوجه على غير انتظار . اندفعت بحماس أعزم عليه أن يتفضل اليوم للافطار عندى ، شددت في العزيمة فاستنাম مرة واحدة ولم يترك لى فرصة للتراجع ، بل مضى جوارى نحو دارنا . تركته وحده في الحوش ودخلت على أمى ، وقعت فى عرضها :

— « دبرينى يا أم .. أحفظى لى ماء وجهى .. الرجل جالس فى الحوش بالفعل ولا مفر من تناوله الفطور معنا ! » ..
لوحث أمى بكفيها فى يأس ، قالت فى شفقة :

— « ربى اقطنى .. والله يا ولدى ما أحتمك فى دارى الا على سمن وبيض .. ان شئت ملات لكما الطاسة بيضا مقليا فى السمن

مع جبنة قديمة ولفت وفجل وجرجير ..
أمسكت بطوق جلبابى استعدادا لشقه من قرط الشعور بالعار،
قلت وأنا على وشك البكاء :

- « بيض ولفت ؟! الرجل يؤكلنى حماما .. وأنا أعزمه على
بيض ولفت ؟! يا للهوان ! .. »
قالت أمى بكل بساطة :

- « كل واحد على قد حاله يا ولدى »
شدت طوقى حتى تمزق بالفعل مقدار عقلة أصبع ، وصحت
سيحة مكتومة من القل :

- « اليوم سوق ! وكل شحاذا يطبخ اليوم لحما ! وأنا أقدم
لضيفى بيضا مقليا ولفتا ؟! أين اضع وجهى يا أم ؟! » ..
تحيّرت أمى ، وفى تسليم بالهزيمة فكت عقدة مندليها المحلاوى
الصدىء من اثنى عشر قرشا خلقت بالختم الشريفة أنها لا تحتكم
من حطاء الدنيا سواها كانت تدخرها لأمن ذى خطر . لهفت القروش
منها و- ريت متشعما أنفاسى ، معى ثمن رطل من اللحم نحمد الله
عليه فضل وعدل . ييمت نحو السوق فلم أجد سوى بقايا عظام
وفضلات نروشات الباعة . عدت كاسف البال ياخال . لففت على
دور الشارع دارا دارا أسأل صاحبة كل دار :

- « عندكيش حمام يا خاله ؟! » ..

- « لا والنبي يا ابنى » ..

فعدت الى الدار أجرد ساقى . جلست بجوار ضيفى كانى فى
محزنة اتلقى العزاء ، فتارة يخيل لى أن جلبابى مثقوب من فوق
مؤخرتى بالضبط ، وتارة يتخيل لى أننى قد تبولت على نفسى
فجأة ، وتارة نالته اتخيل أن ضيفى قد رأى كل شىء وأحس
بكل شىء . الأرض راحت ترتفع امام عينى وتنخفض يابوى ، وتلف ،
فرايت من مكائى فى الحوش نسوان الدار وقد انتهين من المندرة
ووضع المساند وتجهيز الطباالى وطشوت الفسيل والأباريق النحاسية
والقوط جوارها وصوانى القل ، والشمس صرقت لونها الأصفر
ولبست الأحمر المشتعل وهامى ذى قد بدات تتفحم وتذبل جمرتها
المتقدة ، وأخذ ضيفى ييسمل ويحوقل فى انتظار صلاة المغرب .
خلاص يعنى ؟ ساقع فى هذه الوحلة يارب ! .. تخيلت نفسى ساحبا
ضيفى داخلا به المندرة على الرجال والحيرة تفرقنى تلخمنى لا أعرف

من شدة الحرج على اى طبلية احوذ لتتطفل عليها معا متجاهلين طبليتي !! .. فكادت الدموع تفر من عيني ، وسمعت صوت الطشطشة فتيقنت ان امي قد سيحت السمن وطقشت البيض وقلبتة فيه . شيء الهى ذكرنى بابنة خالتي « نيمسه » وهى امرأة تحبني وتعزني كثيرا لاننى احمل شبيها من امها المرحومة ، وهى متزوجة فى قبلى البلد وكلما راتنى عزمتنى على الافطار وهددتنى بالغضب ان لم الب دعوتها ، وكنت - تهرىبا من الحاحها - قد خلفت لها لاحضرن ذات لحظة طالبا الافطار بنفسى ..

الله وكيل ! ما ان تذكرتها حتى رايت ابنتها الصبية مقبلة علينا توسع وربة الباب بردفها وتدخل صائحة : « سالخير يا خالتي » . فنهضت مسرعا اليها . كانت تحمل على راسها سلة كبيرة من البوص مغطاة بشاش ، ميلت نحوى قائلة : « امى تسلم عليك وتقول لك ما دمت لا تريد ان تجيء لتفطر معنا فافطارك يجيء لحد عندك » . وتركت السلة فى يدي وانصرفت . قلت : « ياما انت كريم يارب » ، ودخلت اجرى الى امى . رفعت الشاش فرايت حلة كبيرة ، فتحتها ، وجدت فضلة خيزك لحوما وطيورا وازرا فاخذت السمن المقدوح من يد امى ودلقتة فوق الشوربة وقلت لها : « جهزى الصينية يا أم » ، وعدت الى الحوش وقد احساسست ان قامتى قد انعزلت يا خال ، وجرت الدماء فى لحمى الناشف ، وقلت لضيفى بكل ثقة : « تفضل معى الى المندرة » ، ومشينا فى الدهليز المستطيل نحو المندرة اكاد اقول يا ارض اشتدى ما فوقك قدى .

فى تلك الليلة ظللت ساهرا حتى شروق الشمس يا خال ، غير انها اشرفت على فى الطريق وانا متوجه الى مصر بدون نقود لتذكرك وبدون اى شيء . وكنت واقفا وآله ياخال اننى سوف اصل بسلامة الله ، كيف .. لا ادرى .

الجماعات أربعة الأولة - فى الليل البهيم

شريط السكة الحديد يخترق بلداننا يفصل الغرب عن الشرق .
الغرب فى بلادنا أقوى من الشرق ، لكن الشرق اغنى من الغرب .
السبب ان اهل الشرق مجاورون للنيل مباشرة ، يزرعون الارض
اكثر من زرعة ، وهى أجود ارض فى الناحية كلها ، طما ، باقور ،
ساحل سليم ، المطيعة ، أبو تيج ، النخيلة ، شو ضب ، اولاد الياس ،
البارود ، المعصره ، العصاره ، البدارى ، كوم المغربى تحت الجبل
الشرقى ، وغيرها يابوى اراض يحلف الزرع بحياتها ، واهلهم كلهم
مبسوطون وعال الحال . الدور والباقي على اهل الغرب مثل :
صدفة ، ادرونكا ، الزاوية ، السعودى ، الزرابى ، المشايعة ،
الدوير ، كوم سفحت ، ابو حجر ، كوم سعيد ، الوعاضل سلون ،
الشنانية ، النجع ، الريانة ، البرية ، العامرى ، المزايرة ، الفنايم ،
دير الجنادلة ، كردوس ، بنى فير ، القطنه . . بلاد كلها
يكثُر فيها الفقر كلما كثر عدد الرجال وما اشد ما يكثُر يوما بعد
يوم ، فكل بضع سنوات تمتلئ البلاد برجال جدد ، بلا عمل ولا
املاك ولا اى شيء ، فمن اين تاكل يابوى ؟

اراضى الشرق وملاكها يستخدمون البعض بتراب الفلوس انفارا
وتملية وخفراء ورزايبية ، وباقي الرجال يعيشون على الخطف
والنهب والسرقة والاعتصاب . شئ فظيع يا خال ، لم ينقذ بلادنا
كلها من جحافل الصعيد الزاحفة سوى بدء السفر الى البلاد
العربية ، حيث هاجر الى السعودية والكويت والامارات وليبيا
والعراق اعداد لا حصر لها من المتعطلين الذين يشيرون لىالى الصعيد
ويهزونها . كانوا يثيرون الرعب المتواصل فى عز الظهر الاحمر لكنهم
- صدقنى - كانوا يؤنسون وحشة الليل . آلاف المتعطلين المجرمين
تقذف بهم البطون الخصبة والدماء الساخنة فى الصعيد ! بلادنا
تحب سيدنا محمد وتريده يتباهى بهم يوم القيامة بحق ! . وان

شاء الله يوم تقوم القيامة الحقيقية يا خال قسوف تكون في مصر !!
فمنذ طفولتي وأنا متأكد ان الناس ستاكل بعضها بعضا في يوم قريب
صار على الأبواب ! مثلما حدث ذات يوم في بلدة « بنى قيز » ،
حيث تقاتل رجالها حتى أفتوا بعضهم قناء تاما !! ..

يبدأ موسم الخطف حينما تكبر الدرة في الفيطان . كل واحد
يخطف له خطفة واحدة كبيرة يعيش عليها بقية العام الى أن يدبر
لخطفة جديدة . تجيء له جواسيسه من الشرق قائلة له أن فلان
الفلانى من ذوى الأملاك سوف يخرج في الساعة الفلانية في اليوم
الفلانى متوجها الى المكان الفلانى . لا يقع تحت طائلة الخطف الا
الناس المهمون التخاين ، الذين يجيء من ورائهم خير كثير مضمون .
يكون الرجل ماشيا في حاله تحت جناح الظلام أو رداء القمر لا بهم ،
فاذا بالاشباح تخرج له من بين عيدان الدرة منقضة عليه ممسكة
به تحت وأبل من الرشاشات الهوائية المرعبة . ان كان فى حراسة
أحد فان مصيره معلق بنفاد الدخيرة من أحد الطرفين ، وان كان
وحده فانه سيسلم نفسه حتى لو أصاب رصاصه . يتكلمون به
على الله الى مخبأ بعيد . يرسل الخاطف واحدا من طرقة يبلغ عائلة
المخطوف بشكل ملفوف ، كان يكون هذا المرسال بائعا سريحا مثلا
ويقول امام رهط من القوم انه سمع كذا وكذا في البلدة الفلانية .
اهل المخطوف ما ان يسمعوا الخبر حتى يتكتموه ويكفون فوقه
ماجورا ، واذا ما سألهم أحدهم عن مخطوفهم فانهم يزعمون انه
مسافر في مشوار وسوف يعود ، انهم بالطبع لا يجراون على تبليغ
البوليس ، لأن الخاطف بمجرد ما يبلغه جواسيسه أن الخبر وصل
الى الحكومة يكون عليه العوض في المخطوف ، سوف تختفى جثته
فى مكان لا يعرفه أحد . ومن هنا فأول شيء يفعله اهل المخطوف
ان يبدعوا فى البحث عن أحد يعرف الخاطف لكي يتفاهم معه . كل
مخطوف على قدر مستواه تقدر ديتة .. مطلوب ألف ، الفان ، ثلاثة
عشرة .. يأخذها الخاطف حتى يطلق سراح المخطوف ، فى لحظة
يختارها الخاطف ، يفاجأ اهل المخطوف بمخطوفهم يدخل عليهم
الدار ذات لحظة ، وان سالوه فلن يستطيع أن يصف لهم أى شيء
عن المكان الذى خبىء فيه ولا وجه أى أحد ، لانه من لحظة اختطافه
للحظة الافراج عنه يظل معصوب العينين مكتوف اليدين يدخل له
بالطعام والشراب أطفال صفار مجهولون فى أماكن مجهولة ، وقد

يحدث الاتفاق على الافراج في بلدة غير التي تم الخطف فيها ، وقد يتم الافراج في بلدة اخرى بعيدة في ساعة دامسة الظلام ...
مثل كل الامهات في بلدتنا كانت أمي تحفزي دائما للمشى مع هؤلاء الولد ، تقول لى :

« قم فامض معهم مشوارا او مشوارين بدلا من قعدتك هذه يكرمك الله بالعشاء »

ولم اكن جريت المشى معهم من قبل يا خال . وكنت أمشى قاصدا المحطة اركب منها القطار الى مصر ولم يكن معى نقود اركب بها لكن عشى في الله كان كبيرا ، ان انحشر في الزحام ، ففي الزحام تتحرك يدى بكل حرية والناس ملهية في كتمة الزحمة . دخلت محطة القطار، انحشرت بين الواقفين امام شباك التذاكر كان معى ثمن التذكرة . لمحت رجلا عفيا يمسك بيده جنيها كاملا ، يدفع الناس بقوة لطيفة يزيجهم من امامه يتقدم نحو شباك التذاكر يكاد يلامسه التصقت به مباشرة يابوى كائننى بقيته ، ما كاد يصير امام فتحة الشباك حتى ناداه ولد عمه من بعيد ، وكانت ذراعه لحظتها قد تسربت بالفعل من فتحة الشباك رامية ورقة الجنيه على الرخامة في حين استدار هو ليتكلم مع ولد عمه الذى راح يأخذ ويعطى معه في الكلام . لحظتها كنت قد صرت امام الشباك مباشرة ورأسى الصغيرة تطل على موظف التذاكر من خلال الفتحة ، الذى نظر لى وللجنيه المرمى امامه قائلا : « فين ؟ » قلت بسرعة : « سيوط » ، فقطع التذكرة وجاء ببقية الجنيه ازاحها امامى فاخذتها وزرقت من بين الانفاذ والارجل وانطلقت أجرى كالريح . وكان الزحام قد لفظ صاحب الجنيه فصار يحاول الدخول فيه من جديد والوصول الى الشباك ثانية ، فيما يصيح جاعرا : « تلاته سيوط يايبه وبقية الجنيه ! تلاته سيوط يايبه وبقية الجنيه ! » . قلت لنفسى : فرجت يا ولد، وفتحت رجلى فى المشى متدحرجا نحو سفح الطريق .

الثانية - الوقوع فى عرين النار

غصبا عنى وجدتنى بحذاء الجبل . كنت خرمانا فاشتريت ورقة دخان وتشوقت لكوبة شاي ، فقلت للرجل الذى باعنى الدخان : « الا يستطيع المرء ان يشرب كوبة شاي فى هذا الطريق القفر ؟ » . فنظر فى عينى مباشرة وراح يتفحصهما ، ثم قال بهدوء العاهر : « يستطيع ! طالما فى الطريق ناس فانك لابد ان تجد فيه ما تحتاجه ! » . قلت : « ربنا دائما يوقف لنا اولاد الحلال ! » . قال : « تفضل ! لف وادخل ! » ..

وكنت اظن ان العشة المربعة التى يجلس فيها على الطريق وبييع السكر والشاي والدخان وابر الوابور والخط والحلوى هى مجرد هذا المربع الصغير ، فلما لففت فى الاتجاه الذى اشار لى عليه وجدتنى فى دار اخرى يا بوى ، بل وجدتنى فى مملكة : مثلث كبير من الارض فى منحدر خادع ، مسور بالحديد والسلك ارضه تأخذ فى الانحدار شيئا فشيئا حتى تفوص تماما تحت فتحة سرداب تبدو عالية واطنة فى نفس الوقت فى نفس النظرة غير انها تأخذ فى العلو كلما اقتربت منها . فلما دخلتها خيل لى اننى ادخل تحت الطريق فى سرداب متصل بالجبل الشرقى يمر من تحته لمسافة طويلة لابد انه يكون من شق الفراعين انفسهم ولا احد سواهم يفوت فى قلب الصخور هكذا . ثم فوجئت باننى فى مغارة محفورة فى جدر الجبل على شكل فسقية مهولة تصلح ان تكون سامرا تحت الارض وتصلح ان تكون مدفنا للقوم كلهم . عشرات الرجال والنساء رايتهم يجلسون جماعات او اثنين يشربون الشاي والقهوة والقرفة العطرية ويدخنون الحشيش على الجوزة ، وثمة من يقوم بخدمة هؤلاء جميعا من ولدان متحركين نشطين . ما هذا المولد يا بوى ؟ . الرجل الطيب ظن بى خيرا ، لابد ان منظرى خدعه فتصور اننى اريد ما يريده هؤلاء ! اين انا من هؤلاء يا بوى !

استقرت صخرة مربعة جلست فوقها ، رحت اتأمل فى هذا الخلق الذى لم اكن رايتنه من قبل ابدا يا بوى ولم اكن اعرف انه

موجود في هذا المكان . جاءني أحد المولدان : « يا أبا المم
 مساء النور أهلا وسهلا . تشرب إيه . قلت : كوب شاى من فضلك
 واحسانك . ما مرت دقيقة الا وجاءتنى الصينيه عليها براد خارج
 لتوه من صهد الرمل تفوح منه رائحة شاى طازج ومعه كوبة مع قطع
 من السكر . وضعت القطع فى الكوبة وصرت ادلق من البزبوز فى الكوبة
 فوق السكر وأعود فادلق فى البراد واكرر حتى صار الشاى مربوبا
 مرغيا وآخر حلاوة . صرت اشربه وادخن ونفسى مفتوحة لنفسين
 من الحشيش الذى بدأ يدخل فى نخاشيشي وينملها . شفقة شاى
 والثانية رايت ظلا يقف على دماغى ويصيح : « حسن ولد ابو ضب »
 فرمت ناظرا اليه ، قلت : « خدامك .. أهلا وسهلا .. يا ثلثمائة
 مرحبا » . جلس بجوارى . منظره جدع محترم ، يلبس الكشميرة
 والصديري الشاهى ، من الواضح أن جنبيه منتفخان بالمسدس
 وخريطة الذخيرة والمحفلة ، عمامة كبيرة بشال ناصع البياض حول طاقية
 بيضاء ، جبين عريض مبيض وجهم ، شارب مستنفر على الدوام
 بأصبعين يحركهما فوق شفثيه الرفيعتين باستمرار قلت :

« من الكريم ؟ » ..

قال :

« تهت عنى يا حسن يا ولد أبى ضب ؟! » ..

قلت :

« العتب على النظر ! لا تؤاخذنى ! » ..

« محسوبك زناتى » ..

صحت فيه مقاطعا :

« ولد مخيمر ابونا هيه »

تبسم قائلا :

« براوه عليك » ..

قلت :

« اجاويد بنى فيز » ..

قال :

« الله ينور عليك .. كيف حال الجماعة ؟! » ..

قلت كأننى الماكينة :

« بخير »

ثم تذكرت ان الجماعة الذين يقصدهم هم اولاد عمى الكبير ،
 إذ أن « زناتى » هذا ولد عم زوجة عمى لزم ، صبت كوبة شاى

قدمتها له : « تفضل الشاي » . قامسك الكوبة بيد كبيرة تلمع في أصابعها الخواتم الذهبية وقال : « تشكر يا ابوالم » ، ثم شفت وهز يده الكبيرة باسمها فيما يقول :
- « لكن كيف وصلت الى هذا المكان يا ابو الم ؟! انك اذن لشقى خطير !! » ..

رفعت كفى مشهدا الله صائحا :
- « مظلوم والله .. انما حودت لاشرب كوبة شاي وهذه اول مرة اخطو هذه العتبة ! صدقنى يا ابو الم ! » ..
قال ضاحكا :

- « طبعاً طبعاً .. والا كنا رايناك وعرفناك !! » .. ففهمت انه من اعيان هذه القعدة ، واخرجت علبة دخاني وقدمتها له قائلا :
« لف لك واحدة » ، فتناولها ، ولاحظ أن شيئاً كان لصيقاً بها قد وقع منها على الارض بجواره فمال واخذه ، فاذا هو تذكرة القطار . نظر فيها وقدمها لى قائلا :

- « كنت مسافرا سيوط ولا ايه يا ابو الم ؟ » ..
خفق والله قلبى يا خال ، قلت بلجلجة :
- « لم يحصل نصيب يا ابو الم .. قطعت التذكرة وجريت لكن القطار كان اسرع منى وما نابنى الا ان انطرشت فى الارض ! .
فحلفت الا اسافر اليوم ! » ..
قال مشوحا بيده فى بساطة :

- « ولد عمى عمل اليوم مصيبة من اجل تذكرة كهذه .. كاد يروح فيها قتيلاً لولا أن ربنا سلم ! » ..
زلاطة خشنة انحشرت فى حلقى يا بوى ، وانا احاول ان اندهش قائلا فى استنكار :

- « اليوم اليوم !! » ..
قال :

« منذ دقائق ! .. جاءنا الخبر انه يتعارك فى المحطة .. جئنا نجرى .. لم نجده .. لكننا وجدنا جثة وهبه افندى موظف التذاكر بالسكة الحديد .. معددة على رصيف المحطة مشجوجة الراس متورمة الوجه تشن تشاؤه بين الحياة والموت .. وبض رجال آخرين من زملائه منهم من تهشمت أضلاعه ومن تكسرت أسنانه ومن جدد انفه ومن انفتح حاجبه !! .. سألنا ما الامر ياناس ؟ .. قالوا ان ولد عمى أعطى جنيها لوهبه افندى وطلب ثلاث تذاكر لاسيوط وبزعم

وهبه أفندى أنه لم يعطه شيئا .. كلمة من هنا وكلمة من هنا ..
هاج ولد عمى واشتغل ضربا في الجميع ونط هاربا نحو الجبل ..
فظننت أنه ربما يكون قد جاء الى هنا فجئت أسأل عنه !! » ..
غاص قلبي في ضلوعي يا خال ، صغر وتلاشت دقاته ، قلت فى
صوت مرتعب فى ولوله :

« .. به .. به .. لا حول الله .. له فى خلقه شئون » ..
وصرت أتصيد عين محدثي باحشا عن شيء فيها يكون قد وشى
بى ، فلما رأيته يستغفر معى فى واد بعيد عنى وجدتنى أقول :
« .. أمن المؤكد أنه قد يجىء الى هنا الآن !! أم تراه يهرب فى
مكان بعيد !! »

قال ناظرا الى كأنه يستعبطنى ولكن بلطف :
« .. لا مكان للهرب سوى هنا يا ابو العم ! » ..
قلت برعدة خفيفة :

« .. نحن أذن فى قلب الجبل الآن !! »

قال كرجل يعلم ابنه خطوط الطريق :

« .. نحن الآن فى مقهى الجبل .. هذا هو المكان الوحيد الذى
يعيش فيه المطاريد حياتهم الطبيعية بعيدا عن الإعداء ! .. هذا المكان
الذى يشبه الفسقية بسراديبيها هو الخلاء الذى يعيش فيه المطاريد
بحريتهم .. هو مكان اللقاء المضمون بين المطاريد وحریمهم وعشيقاتهم
ومصادر دخلهم وتموينهم .. أصحابه المطاريد أنفسهم وكل الولاد
المشتغلين ها هنا من أبناء المطاريد ولدوا هنا وربما القيت بذرهم
ها هنا أيضا ذات فجر بعيد !! .. وليس لغيره أن يقتحم حصار
هذا المكان مهما كانت قوته ودباباته وطائراته ، لأن المكان له عشرات
السرايب السرية لا يعرفها الا عدد محدود من عتاة المطاريد المعتقين
فى الجبل ، وليس كل من يعرفها يستطيع او يجرؤ على السير فيها
وحده لأن بعضها يشبه بطون ثعابين خرافية متعرجة لا نهاية لها ! .
بعضها موصل الى خلاء بين سفوح وبعضها موصل الى عنق زجاجة
مسدودة حيث لا سبيل للتقدم أو للقهقري ! . وأما إدارة المكان
فيتولاها عشرة من عتاة المطاريد يصرفون على مونتيا ويتقاسمون غلتها ! .
يرأسهم عن جدارة ذلك الرجل صاحب كشك البيع الذى ذلك على
هذا المكان ! .. لقد أرسلك وهو واثق أنك سيد ثمين لاتباعه الجالسين
ها هنا !! .. فكل من يجلس أمامك وحوالك الآن هم من عتاة
المطاريد ! . رجالا ونساء ! .. هذه الحورية الملقوفة فى جلياب أسود

وطرحة سوداء اكبر مهربة مخدرات في الصعيد الجوانى وهاربة من احكام تصل الى قرابة مائة عام !. وهى تعيش حياتها ها هنا على اكمل وجه وتدير املاكها وربع اراضيها على اتم ما يكون !. لا ينقصها من متع الدنيا اى شىء !. وبعد قليل سوف تنصرف من هنا الى عشة مجهولة بين سفوح الجبل الشرقى تفوق سرايات الحكام فيها مراتب والحفة ووسائد واسرة ودواليب وارائك واطباق وحلل ونار ولحوم ودواب !.. وهؤلاء رهط من رجالها اما زوجها فعوضو فى البرلمان يزورها كلما اكله ايره !.. وكل من يجلس هاهنا بينه وبين الحكومة ثارات لا تنتهى !.. حتى انا نفسى كما لعلك تعرف لى بين المطايرد مكانة سوف تلمسها ، فلقد هربت من السجن ثلاث مرات بثلاثة جرائم قتل وفى كل هروب قتلت حارسا !.. امك والله داعية لك !.. لعله كرم اعمامك الفقهاء هو الذى القى بى فى طريقك قبل ان يكتشف امرك ها هنا فيجردونك من كل شىء ويحكموا عليك بالسجن فى الجبل مدى الحياة يسخرونك لخدمتهم تحت حراستهم فان تمردت قتلوك او توهوك فى الجبل شريدا لا تعرف لك رأسا من ذنب حتى تأكلك الوحوش والطيور الجارحة والحشرات السامة او يلتف حولك ثعبان من ثعابين الجبل المتوحشة !! » ..

اعطنى عقلك يا بوى ، فان عقلى قد ذهب . لا ادري كم لبثت من زمن غائبا عن الوجود يحملنى صوت « زناتى » يشيلنى ويحطنى ويبعثرنى فى شعاب الجبل تدوسنى اقدام ثقيلة تطحننى ضروس بعد تمزيق انياب . لكن « زناتى » حين لكزنى فى كتفى بعلبة دخانه المعدنية الثمينة شهقت كأننى استرددت نفسى وعدت روحا فى جسده . ضحك « زناتى » وغمزنى بالعلبة آذنا لى ان الف لنفسى سيجارة ، وكان يضحك قائلا فى سخرية :

- « هم يضحك وهم يبكى .. واحد يقتل من اجل تذكرة قطار .. وواحد يرمى بنفس التذكرة نحن ندفع عمرنا ثمنا لتذكرة كهذه قد لا توصلنا الى اى جهة .. على الانسان ان يمضى فى هذه الحياة بغير تذكرة !. لا فى القطار ولا فى الهباب !. حين يزنقك الحق ادفع وتخلص من الزنقة والسلام !. ما بال الواحد منا يضع وقته فى قطع تذكرة !. المهم ان تلحق بالقطار يا ابو المم !. وما تنفع التذكرة من فاته القطار ! » ..

وجاءنا براض شاي جديد لم نطلبه . اخذت اظلفت حوالى كأننى اخشى مقدم الموت . وحقا نطق المثل : من خاف من الذئب يطلع له ، فاذا بالعملاق الذى سرقت جنيبه يدخل علينا كالهول .

الثالثة . المطاوعة

نهض « زناتى » فاستقبل ولد عمه العملاق . اما انا فلم اقو على النهوض يا خال ..
تخشببت مفاصلى ، صرت ارتعش كائى فى مهب ربح عاتية
يا خال ، اتوقع ان يهجم على يبرمنى كما يبرم المرء لقمة من رغيف
ويحشرنى فى حنكه يفرمنى بأسنانه . على أنه جلس بجوارنا وجعل
ينظر فى وجهى متفرسا كالتوجس ، ووجدتنى أقول له :
- « هدىء أعصابك يا خوى .. الدنيا لم يعد فيها ذمة ولا
ضمير !! » ..

فشوح فى غضب صامت كأنه يقول : « دعنا من هذا الامر »
ومال على ولد عمه ، فعرفه ولد عمه بى ، فنظر لى من تحت جبينه
مفتصبا ابتسامة مرهقة وقال : « أهلا وسهلا بك » ، فقلت بحماس
شديد : « يا ثلثائة مرحبا » ، وهزرت يدى جوار راسى ونحو
صدرى عدة مرات فى امتنان شديد .

نظر « زناتى » الى أحد الولدان بطرف عينه ، فلم تمض دقيقة
حتى جاء بالجوزة والحجارة المرصوفة بالدخان المسيل . أخرج
زناتى من جيبه قطعة حشيش وراح يوقع منها بابهامه فوق الحجارة ،
والولد يسقينا ، ما هذه الأبهة يا ولد ؟ وما هذه الحلاوة وهذا
الروقان ؟ هكذا رحت أسال نفسى وأردد مستعبرا : صحيح والله
قوله تعالى ورزقكم فى السماء وما توعدون . ولقد والله تخيلت أننى
صرت ملكا يجلس على صخرة العرش . مال « زناتى » على ولد عمه
وقال مشيراً الى :

- « مكتوب له لقمة عيش فى مشوارنا » ..

خفت وانبسطلت فى نفس الوقت . وقال ولد عمه :

- « كل شيء نصيب » ..

فقال « زناتى » :

- « لقد ساقه الله إلينا .. ما عليك الا أن تتفرغ لقطع الطريق

الى البلد ! » ..

جاء الولد بحجارة جديدة ونار جديدة وجوزة جديدة فكف
« زناتي » من الكلام وأخذ يرص الحشيش ، وأخذنا نشرب في صمت ،
ومضى سارح في خبر هذا الكلام الذي سمعته الآن من « زناتي » .
فلما انصرف الولد ليغير ماء الجوزة والحجارة ويجدد النار مال
« زناتي » نحوى وقال :

— « فيك من يكتم السر ؟ » ..

قلت :

« في » ! .

قال : « أعرف انك رجل ولد رجل » ..

قلت : « تشكر .. من أصلك ! » ..

قال : « اوراءك شغل من هنا لحد الغد ؟ » ..

قلت : « من هنا ليوم القيامة ! » ..

قال : « حلو » ، ثم تمهل برهة وأضاف :

— « مشوارنا في بلدة أبو حجر .. نريد أن نخطف قسيسا

فلاحا ! .. هو تقريبا أغنى قسيس في البلدة ! » ..

قلت :

— « البلدة كلها قسس .. وكلهم اغنياء ! » ..

قال :

— « القسيس بنيامين أغنى اغنيائها » ..

صحت قائلا :

— « بنيا .. و .. ب .. ين .. به به به .. أما وجدتم غير

بنيامين تخطفونه يا أبو العم !؟ .. انه حويط جدا يا أبو العم .. لا

يخرج من البلدة أبدا .. ليلا أو نهارا .. وإذا مرض فالطبيب يجيء

لحد عنده ! » ..

قال زناتي : « لكنه يخرج ويتحرك داخل البلدة » ..

قلت وقد هالني والله قوله :

— « كيف يا أبو العم تخطفونه من شوارع بلدته !؟ أن البلدة

كلها من الأقاط فردا فردا .. ليس فيها مسلم واحد .. حتى

مواشيهم وكلابهم ودوابهم هي الأخرى تدين بدينهم وتحمل شكلهم

وطبيعتهم !؟ صحيح أنها بلدة تعيش بمفردها معزولة وسط دائرة

كلها من المسلمين .. ولكن ما تنسى يا أبو العم أنهم أقباط اقوياء ! .

عندهم سلاح كبير وذخيرة كثيرة وكهن أكثر ولؤم شنيع !؟ » ..

ابتسم « زناتي » وقال :

— « غدا أنسب يوم لتنفيذ خطتنا .. فرجال البلدة كلهم

يسرحون الى الغيطان لجمع القطن ولن يبقى في البلدة طول النهار
سوى الحريم والمجانز تخيفهم بضع طلقات !! » ..
ميلت راسي على خدي ورحت أفكر في كلام « زناتي » ، ولم اكن
وصلت الى شاطئ استقر عليه بعد حين عاجلني :
- « معنا باذن الله يا حسن ؟ » ..
خفت التردد ، وايقنت انه قد يقتلني اذا انسحبت من الموافقة ،
فقلت :

- « الله معنا جميعا باذن الله » ..

ولقد شعشع والله الحشيش في دماغي وصور لي أن « طلعة »
كهذه تجيء لابد بمبلغ كبير محترم . دخل فوق المساء مساء
جديد ، وفوق السهرة سهرات المع وأعمق حيث امتد أمامنا خير
ونعيم كثير من مأكول ومشرب وتفكير في الخطة المرسومة مرات ومرات
نعدل فيها ونعدل التعديل ثم نعدو : فنلغى التعديل من أساسه ثم
نعود فنعتمده بعد تعديل بسيط . كنا سبعة رجال : اثنان بالمدافع
الرشاشة على مدخل البلدة ، اثنان في الشارع العمومي بالمدافع
الرشاشة أيضا ، ثلاث بالمدافع الرشاشة يهجمون على دار القسيس
« بنيامين » الفلاح ، مهمتهم انتزاعه منها بالحيلة أو بضغط السلاح
إذا اضطروهم !! ..

القسيس « بنيامين » الفلاح عجوز زكي ، قصره محاط بحديقة
ذات سور مبني تحتوي على حظيرة كبيرة للمواشي والدواب ، وهو
يخرج من القصر ليطمش في الحديقة الواسعة يعنى بشئون مواشيه
يقلم الأشجار يروى الزرع والورد ، لا يقترب من باب سور الحديقة
الا ليفتح الباب لأحد من خدمه أو فلاحيه ، ولا يفتح الباب الا بعد
أن ينظر من خرم دقيق في حديد الباب السميك ويطمئن الى أن الحارة
كلها أمامه خالية الا من الطارق الذي يعرفه ، ولن يفتح الا اذا عرف
من تصادف مروره بالحارة لحظة الطرق وقد لا يفتح الا بعد أن تفرغ
الحارة تماما الا من الطارق ، ثم انه لا يخرج من الباب الا مخفورا
بحراسة أشد من حراسة العمدة ، أما الذين يعملون في معيته فكلهم
من المقربين اليه جدا ومعهم تربوا على يديه وآمنوا بالمثل القائل : من
ياكل من خبز اليهودي يضرب بسيفه ، وبعض هؤلاء يحمل في جيبه
نسخة من مفتاح باب سور الحديقة المائل على الحارة !! ..

ذلك ما كنت أعرفه عن القس « بنيامين » وسمعت من « زناتي ».

ورجاله ما عرفني به اكثر . الهمني الله بفكرة طيبة يا خال ، قلتها
لـ « زناتي » :

— « سمعت من ناس كثيرين في بلدة أبو حجر ان امرأة خفير
القسيس تدخل الحظيرة صبيحة كل يوم لتحلب الماشية .. وتفتح
باب سور الحديقة بمفتاح تحتفظ به مربوطا في صغيرة شعرها ..
فعلى أحد منكم ان يتصيد امرأة الخفير هذه وهي خارجة من دارها
في الصباح فيكتفها ويكمم فمها ويأخذ منها المفتاح ويخفيها هي في
مكان بعيد !! » ..

وصمت ناظرا فيهم لأرى وقع الفكرة على وجوههم ، فإذا بي أرى
اعجابا واستنكارا معا في نظرة واحدة ، وابتسم « زناتي » وقال :
— « فكرتك حلوة يا أبو العم ولكن فيها معيلة عدم المؤاخذة ! ..
المرء لا يبدأ العملية بالضرب من أولها والا جلب على نفسه الخطر
وباطلت عمليته ! .. نحن يا أبو العم لا نريد الطخ واصل .. نحن
لا نطخ الا عند الاستقباء .. انما يا أبو العم دعنا نحل فكرتك هذه ..
فترسل النداهة من هنا لزوجة الخفير !! » ..

وقف شعر رأسي ، قلت :

— « النداهة !! الجنية ١٩ » ..

قال ببساطة واثقة :

— « نعم .. النداهة التي يخيفونك بها !! »

قلت ببساطة :

— « أعندكم ها هنا نداهة ١٩ »

قال مشوحا نحو الفراغ الممتد في سقف الجبل :

— « عندنا كل عقاريت الارض !! »

اعتدلت في قعدتي قائلا :

— « عال ! عال ! منصوره باذن الله ! »

واعتدل « زناتي » هو الآخر وقال :

— « النداهة تذهب بعد دقائق الى دار الخفير وتنادي على زوجته

باسمها .. تدحلبها وتخدعها وتسرق المفتاح من صغيرة شعرها وتلففها
بعض أماكن غريبة وتعود بها الى دارها فتبقى نائمة حتى العصر تكون قد
انتهينا من شغلنا !! » ..

استحسن الجميع الفكرة ، وواصل زناتي موجهها الكلام الى انا :

— « ونجى لك بثوب كتوبها .. تلبسه وتدخل الحظيرة كأنك

هى .. تبدأ فتحلب الماشية .. وحين يجيء القسيس بنيامين ليتم على الحليب تمسك به وتكتفه وتسلمه للثلاثة الواقفين بالباب يدا بيذا .
تلملم ولد العم ونطق بعد صمت طويل لكن فى ضجر :
- « مادام المفتاح يصير فى يدنا .. ما الداعى لمسألة أن يدخل الحظيرة ويحلب المواشى ؟! » .. فلندخل عليه ونمسك به من قلب فراشه ونتكل على الله !! » .. لكزه « زناتى » فى جنبه بقوة ، وقال :
- « مجانين نحن ! نرمى بأجسادنا فى مخدع الدئب ! من أدرانا ؟ انه لابد مستعد لأن يفلق علينا الباب فناكل العلكة المودية الى الموت !
الافضل يا ابو العم أن يفعل حسن ما قلناه بالحرف الواحد ! » ..
ومن فوره قام ، استقضى لى ثوبا نسائيا أسود وشالا أسود ، وفى الحال ذهبت « النداهة » الى ماكينة القس « بنيامين » التى يسهر خفيه عليها طول الليل ، فأغرته بنفسها حتى اندلق على صدرها ، فخدرته وتركته سطيحة تحت تعريشة تبعد عن الماكينة بسافة هائلة . ثم ذهبت « النداهة » لدار الخفير فنادت على امراته وأخبرتها أن زوجها يطلبها الآن لامر ضرورى يتعلق بخير جاءها يريد بها أن تحمله معه الى الدار . فخرجت معها الولية فعلا ، فصارت تسليها بالكلام وتشممها المخدر حتى وصلت الى ماكينة المياه جثة تنطوح فى الهواء . نيمتها « النداهة » بجوار الماكينة وفكت المفتاح من ضفيرة شعرها وعادت به الى « زناتى » والشمس لم تطلع بعد .

الرابعة - المحاولة

انطلقت أجرى بالفتاح ومن خلفى - على مبعدة قليلة - الثلاثة المدججون بالسلاح ، الذين سيقثمون أدار لدى صيحتى . وصلت الى دار القسيس « بنيامين » ، فتحت الباب : تسللت الى الحظيرة ، ولكن ما كدت أقرب من المواشى لأحلبها حتى ضجرت منى ونفرت وصارت تكسكس كلما لمستها وتنزاح هنا وهناك وتلفظ بالنعير ، وكنت اعرف ان هذا سوف يحدث لأن المواشى تشم رائحة من يعتاد حلبها ولا تحن الا اليه ، الا اذا كان الآخر حريفا ، لكننى لم أكن أتصور أن هذه الحركة البسيطة سوف تلفت نظر « بنيامين » ، اذ اننى رأيت خياله يقترب من باب الحظيرة قبل أن المس الماشية بيدي ، ثم اذا به يتوقف في الحال عندما سمع صخب الماشية المعبر عن عدم ترحيبها بى مما أكد لـ « بنيامين » أن شخصا غريبا قد اقتحم الحظيرة ، ورأيت خيال يده وهو ينكسر ممثدا في جيبه وخيال كتلة « المسدس » تعبر فوق الأرض مسرعة لتستقر بجوار قدمه ، فانكشيت على نفسى تحت أقدام الماشية أخذا وضع الاستعداد لآى شئ . رأيت دماغ « بنيامين » يميل عن المحتجب وينظر داخل الحظيرة متلصصا ، وقعت عينه في عينى مباشرة فاصابه الهلع واستدار على الفور بجري . اندفعت أجرى وراءه محاولا اللحاق به . كان أسرع منى يا خال ، فدخل القصر وأغلق الباب وراءه ، واذا بمن يخفرنى من الخلف ينشن على قفل الباب بظلفتين أصابت احدهما القسيس فصرخ في حين تهتك مكان القفل واتفشخ الباب ورأينا القسيس جريحا يجرى متقافزا على السلم الخشبى العريض ممسكا بموضع الجرح بيده وباليده الأخرى يستدير خطفا ليطلق تجاهنا بعض الطلقات حتى نفدت ذخيره ، وفوجئنا به يتسلل عبر شرفة السلم في الدور الثانى ليحتمى بدورانها ، فحاصره رصاصنا داخل هذه الشرفة ، وطلقات الرصاص ترد علينا من جميع أنحاء البلدة على سبيل التهديد ، وأراد القسيس أن يعبر الشرفة من الخارج الى شرفة الحجرة المجاورة ولها هى الأخرى أفرز من الحديد

المشغول ، قفز ، كاد يهوى ، أمسك بحديد الافريز وصار معلقا في الهواء ، فاندفعنا اليه وجذبناه من قدميه بقوة فهوى بين صدورنا ، فانطلقنا نجرى به تحت وأبل من الرصاص المتطاير من أماكن مجهولة . وكانت الركائب في انتظارنا على أول الشارع فأقلتنا بسرعة في اتجاه مكان مجهول من الجبل حيث اختفى « بنيامين » وافقت على اننا قد عدنا نجلس في المغارة ضاحكين كأن شيئا لم يكن . وفي عز الليل أعطاني « زناتي » عشرة جنيهات بكاملها وقال لي : « اتكل على الله انت .. لا شأن لك بما حدث ولا بأى شيء آخر » ..

فعرفت انه يأذن لي في الانصراف ، فمضيت حين أحسست انه يريد أن ينصرف الى شأن من شؤنه الكثيرة . وكنت فرحا غاية الفرح ، ليس بالجنيهات العشرة يابوي ، ولكن للعملية في حد ذاتها يا خال . وكنت أود البقاء مع « زناتي » في هذه المملكة الساحرة ، ولكنني مع ذلك سمعت صوتا بداخلي يقول لي انني لابد من سفري الى «عر قبل ضياع هذه الفرصة . واتخذت طريقى نحو محطة السكة الحديد .

فى عين العدد خمسة الأولة . صورتان ليستا على الحائط

عند مزلقان محطة الزيتون سألت عن قهوة المعلم « دحروج السنطاوى » الشهير بظريف ، فدلونى عليها ، فإذا هى أشبه ماتكون بزنزانة غرقانة فى أرض حتى الحزام ، ومدخلها من وراء سور المحطة خبط لرق .

يه .. يه .. اهذه هى قهوة ظريف ؟ يمين بالله ان عشة النقطة الثابتة التى يبيت فيها الخفير النظامى على مفارق الطرق لآحسن منها . غير أنه الصيت ولا الغنى .

جعلت أهبط الدرج وقلبى منقبض والله يا بوى ، كائننى أدخل فسقية للدفن . وقد عجبت والله لناس محترمين كالمعلم « فرهود رمضان » ورجاله كيف يجدون هنا راحتهم . مقال غير الذى أخبرنى عنه « شندوبلى » ، يلعب فى زكائب من البنكنوت ، كيف يجعل من هذه المقبرة مقراً له ، يلتقى فيه بـرجاله وانفاره فيقبضهم أجورهم ويوزع عليهم العمل ؟ .. وأنا مالى يا بوى ؟ . فليجلس حتى على كوم السباح ما دأمت المياه البنكنوت تجرى فى يمينه وشماله . هذا ملك نظمه سيده سبحانه وتعالى ، فاللهم اكتب لنا لقمة عيش من يد المعلم « فرهود رمضان » مثلما كتبت له لولد عمى واهل بلدى ، كل واحد قابله قال لى : عليك بالمعلم فرهود ! وكل عاطل من بلدياتنا يقولون له : اجرى الى المعلم فرهود لا تعود خائباً ! .. قلت : فلأجرى انا الآخر اليه ولا بد أننى واجد شغلاً لديه ، اذ هو يأخذ مقاولات كثيرة من الجيش المصرى ومن الأهالى ومن كل الشركات والهيئات والوزارات ، فالشغل عنده اذن لا يتوانى وكل طالب نوعاً من الشغل يجده عنده .

بالصلاة على النبى خير باذن الله وفيها عيش . هكذا قلت لنفسى حينما لمست قدمى قطعة خبز مرمية على الأرض بجوار العتبة ، ملت

عليها فالتقطتها فقبلتها ثلاثا ملامسا بها جبهتي فى كل مرة ثم وضعتها فى جيبى .

النسبة كانت فى مواجهة مبنى باقيشانى ورخامتها نظيفة لامعة وكذلك الحوض والصنبور النحاس والاكواب التى انكفأت . خلف النسبة لم يظهر أحد . أما المقهى فمستطيلة من الداخل تتسع لمائتى شخص بالراحة ، والترابيزات العتيقة بعوارضها الخشبية الكالحة ، الطقاطيق المتوية الاقدام المهيضة المفصصة ، الكراسى المصنوعة من الخشب والقش متساندة من فرط التهالك على الحوائط وعلى بعضها البعض ، كلها كلها متناثرة هنا وهناك وليس من أحد يوحد الله اللهم الا قطة شقيانة كحيانة رقدت على كرسي فاردة جسمها عن آخره ومستغرقة فى نوم عميق .

رقص قلبي يا خال وانتفض بشدة ، فقلبي دائما يرقص وينتفض هذه الانتفاضة التى لا أعرف ان كانت فرحا أم خوفا ، عندما أجدنى فجأة فى محل ناس آخرين وليس معى أحد ، اذ يشرع دماغى فى الحال فى التنشيق على ائمن شئ موجود يمكن ان الهف بسرعة واختفى فى الحال قبل ان يدركنى أحد . تطايرت بصائى مبحلة فى كل شئ بسرعة رجفانة ، أخذت الرعشة تمشى فى ساقى كالعادة . لم يكن ثمة من شئ هاهنا يستحق ان يسرق على كل حال سوى بعض الاكواب والبرابريش ، أما الحوائط فكانت عارية الا من بياض الجير الكالخ الخشن ، وعلى الحائط الخلفى للنسبة صورتان مما يباع مع المجلات بالألوان واحدة للرئيس ابو عبد الناصر والاخرى للمشير أبو عامر ، الرئيس ينظر نظرة ناشفة مرعبة لشخص مجهول لعله العدو الصهيونى البريطانى الذى يحكون عنه فى الراديو والجرائن ، شاربه تحت أنفه المستطيل يتكتم بين شفثيه سرا شنيعا .. أما المشير فانه يبتسم ابتسامة سهلة وفى عينيه نظرة دبلانة نائمة متساهلة مليئة بالود المشكوك فيه يا خال كأنها تقول لك افعل من وراء ظهري ما تشاء واسط نفسك كيف تشتهى فانا عارف ومتفامض لكن اذا استغفلتنى مصيبتك سوداء . خيل لى والله ياخال ان سعادة المشير يكاد ينطق قائلا لى : الهف ما تشاء واجر وان لم تجد امامك شيئا يستحق اللهف فابحث تحت النسبة لعل وعسى . كدت افعل والله يا خال لكن نظرة أبو عبد الناصر كانت تسمرنى فى مكاني وترعشنى وتكاد تنطق هى الاخرى قائلة لى : اياك اياك وبتاع الناس فاحترم نفسك وابق بأدبك تأكل عيشا بعرق جبينك أو فانصرف

محتشما بدلا من التهزى وقلة القيمة .
أما عقلى فقد قال لى يابوى : يا ولد أنت قادم تبحث عن لقمة
عيشك فلماذا تفكر هذه الإنكار التى تفضب الله ؟ اللهم أخسرك
يا شيطان . ثم صحت : يا أسيادنا ياللى هنا ! يا خلق ! يا ملايكه !
فاذا بصوت يرد فى جفاء وخشونة :
- « عايز ايه يا جدع انت ؟ »

ارتعت يا خال ، لفقت حول نفسى باحثا عن مكان الصوت فلم
أجد أحدا . قلت لنفسى : ليس من المعقول أن الملائكة هكذا تقول :
شكل للبيع . وقلت مازحا :

- « أظهر وبان عليك الأمان »

عاد الصوت مرة أخرى يرن رنيناً عميقاً :

- « عايز ايه وبلاش غلبه ؟ »

أثار النوم كانت عالقة بالصوت . جلست على أقرب كرسي
وقلت :

- « عايز واحد شاى »

فاذا أنا بمارد يتمطى متسللا من تحت النضبة يدعك فى عينيه
يتشأب بصوت كالغواء . سحب السخان الكبير من فوق الرماله ،
عدل كوبا وضع فيه قليلا من السكر وصب فوقه الشاى ، أشار
لـى بدرأعه الطويلة قائلا : « اتفضل » ، ولكن بلهجة من يقول :
« اطفح » . نهضت واقفا وذهبت الى النضبة لأخذ الشاى فنظرت
الرجل جيدا فرأيت طويلا نحيفا ، وجهه مستطيل ملئ بالأخاديد
المشحونة بالقهر والشقاء وكبر السن ، لكن فى عينيه طيبة شديدة
وبكتم بين شفثيه الرفيعتين خفة دم ظاهرة .

لامست الكوب بأصابعى فوجدته ساخنا فتركته منتهزا الفرصة
للقوف مع الرجل . كان معى سيجارتان معوجتان فعدلت واحدة
وقومتها وأعطيتها له ، ووضعت الأخرى معوجة فى فمى . قلت له :
- « مشى دى قوة المعلم دحروج السنطاوى برضه ؟ »

أشعل ورقة من تحت الرماله أشعل بها سيجارته ثم قربها منى
قائلا من خلال الدخان :

- « أنا المعلم دحروج السنطاوى يلزم خدمة ؟ »

ضحكت كأننى لا أصدقه :

- « المعلم فرهود رمضان يقعد هنا ؟ »

قال :

- « عايز منه ايه ؟ »

قلت :

- « عايز اشتغل »

قال مشوحا بكوب الشاي كانه يطردهني :

- « تجيء له هنا بعد صلاة المغرب »

جعلت أشرب الشاي في غيظ . قال الرجل بعد برهة كانه صار من الآن مسئولاً عني :

- « عندك مكان تبيت فيه ؟ »

قلت على الفور :

- « لا والله يا ابو العم .. انا من الغنايم قبلى وقادم لتوى ولا

اعرف أحدا هنا »

هز رأسه في ياس من سمع هذه القصة آلاف المرات ، ثم شخط في صائحا :

- « ماعلينا .. ماذا ستفعل ؟ »

شocht قائلا في ضيق :

- « أرض الله واسعة يا ابو العم .. ومن يقصد الكريم

لا يضام »

صب لنفسه كوبه شاي صغيرة كالكستبان شفت منها شفطة ومن السيجارة شفطة ، رفع ذراعه اليمنى مشيرا الى اتجاه الزلطان خلف المقهى :

- « هنا شادر بطيخ صاحبه الحاج رفيق وهو طيب وصعيدي

مثلك من قديم الأزل ! ينام عنده ولد عمك وبلدياتك الصعايده وكلهم

ممن لا أقارب لهم ! ستراه قاعدا امام شادر البطيخ حتى الصبح !

قل له انك تشتغل عند المعلم فرهود واعطه خمسة قروش فيدعك

تدخل وتنام داخل الشادر ! وان دفعت له قرشين اثنين يدعك تنام

بجواره في الخلاء ويحرسك هو حتى الصبح » .

أحببت الرجل يابوى ، شكرته على هذه الخدمة الكبيرة ورحت

أشرب الشاي على مهل طامعا في خدمة أخرى كهذه تقع من الرجل

أمامي فانتفع بها . لكن طفلا صغيرا صاح من اعلى السلم طالبا ستة

شاي في الأجرزخانة . فاستدار المعلم « دحروج » وصب الشاي في

الأكواب الستة . فبسرعة فمت أنا بسحب الصينية ورفضت

فوقها الأكواب ثم ملأت كوبين بالماء ووضعتهما على الصينية قائلا :

« أوديهما أنا » . فابتسم قائلا : « انت قهوجى ؟ »

قلت : « تعلمت من المعلم شندويلي » . قال : « بتاع مصر القديمة ؟ » .

صحت في فرح شديد : « تعرفه ؟ » . قال في فرح اشد :
« عشرة عمر ! اشتغلنا سويا في الفاعل وفي كل بلوى »
قلت :

« عال ! عال ! كسبنا صلاة النبي ! »

واحسنت بانني سيكون لي عشرة طيبة مع المعلم « دحروج »
فسحبت الصينية بالاكواب وشرعت أمضي قائلا : « فين الاجزخانة » .
قال : « هنا » ، وأشار الى جانب المقهى ، فحملت الصينية
ومضيت حتى أوصلتها الى الاجزخانة وعدت ، لأجد المعلم « دحروج »
يلف سيجارة وضح لي انه يحشوها بالحشيش ، ففرحت كل الفرحة
يا بوى ، قلت له : « مساء الفل يا معلم » . بص لي من تحت جبهته
المنكسة قائلا : « تشربه ؟ » . قلت : « أشربه » . فاشعل السيجارة
وجلب منها نفسين عميقين ثم قدما لي ، فسحبت نفسين أعمق ،
وأعدتها اليه ، وهكذا راحت تتنقل بيننا الانفاس العطرة حتى انتهت
السيجارة بنغمشة في ثلاثين مخيخي فعرفت ان المعلم « دحروج »
حشاش قراري وصاحب قراري أيضا . قضيت معه أحلى عصرية ،
دار بيننا الكلام الطلي لا يقطعه الا خروجه لتوصيل طلب ، عرفت
المعلم « دحروج » كائن تربيته معه وهذا أحلى ما فينا يا مصريين
يا اولاد العرب : المعلم « دحروج » له أربعة ولدان صبيان موظفون
في الدولة أحدهم وكيل وزارة العمل وأمين وحدة الاتحاد الاشتراكي
عن الحى ، وخمس بنات متزوجات من كبار التجار وكبار الموظفين ،
له أربع عتبات ملكا ، كل عتبة تفتح على خمسة أدوار وسبعة أدوار
وكل دور يفتح على أربع شقق وخمس ، كما أن له - فضلا خيرا -
أرضا زراعية في بلاد الأرياف نواحي بلدته السنطة في الوجه البحرى .
عرفت بين ما عرفت أشياء كثيرة عن الحاج « فرهود رمضان »
أشهر مقال عمومى في هذه الناحية كلها : هو في الأصل لم يذهب
إلى مدرسة ، اشتغل عتلا في ميناء « أتر النبي » أيام كان قائما على
شغل نيل مصر القديمة ، اشتغل مع « الأورنس » في « كامب الانجليز »
مورداً للانفار لم قائما ببعض العمليات الصغيرة من بابها ، جمع
مالا كبيرا وخبرة واسعة ، صار يأخذ عمليات كبيرة للجيش البريطانى ،
بناء لكتات عنابر مكاتب ، مصنوعات ومفروشات وأدوات وكل شيء
تطلبه منه ببنفذه لك وكله بحسابه . قلما قامت الثورة كان الحاج

« فرهود » قد صار كبيراً يا بوى ، صارت لديه شركات كثيرة للنقل والشحن والتوزيع والبناء والتخطيط واستصلاح الاراضى ، كل ذلك والحاج « فرهود » لا يعرف اكثر من فك الخط بامضاء عاجزة لكنها بصمة لا يمكن تقليدها ، يشتغل عنده ناس من كبار القوم يا بوى مصروف عليهم ثقلهم ومن ارباب المراكز العالية يذهبون الى مكاتبه كل يوم بمرتب كبيرة ينخفض منها السمع ، ويلبسون الملابس بالشيء الفلانى ويركبون الأوتومبيلات ذات الأجنحة كالطيارات ، أما هو فلم يخلع الجلباب يا بوى ، لا ولا العباءة والعمامة الصعيدية الكبيرة حتى اليوم ، وكل يوم يجيء بنفسه الى قهوة المعلم « دحروج » ليحاسب العمال بنفسه ويوزعهم على العمل . لكنه ان دخل على اتخن تخين فى البلاد ينتفض له قائماً يقدم التحية والاحترام ، مرسال منه الى قسم البوليس يفرج عن المتحجز فى التخشيبية ، كارت باسمه له اعتباره عند وكلاء النيابة ومديرية الامن ، تليفون منه الى شخص تتحرك البضائع المتعثرة فى جمارك الموانئ والطارات وتنفرج كثير من الكروب عن كثير من الرجال هنا وهناك ، ربنا يعطيك وبمطينا فهى الدنيا ان ارادت تعطى قالت خذ عندك وما عليك الا ان توسع لها ، قيراط حظ ولا قدان شطارة يا بوى . اعطنى حظا وارمنى البحر بدون عوم . انما الحاج « فرهود » مع ذلك شاطر قوى يا بوى ، مفتاح وشهم وجدع يعجبك ، راضع من بز امه لا احد يستطيع الوقوف قصاده ، لكن كله بالطيبة والأخلاق وحسن المعاملة .. والأهم من هذا وذاك دعاء الوالدين .

ازددت يقينا باننى سأجد شغلا وراحة لدى الحاج « فرهود » فما كاد المساء يغمر جو المقهى مبكرا حتى اضيئت لمبات النيون كالعصى الممدودة على الحيطان وفى السقف . بدأت قوافل الأنفار تجيء فترمى بخلفاتها على الارض بجوارها وتنحط على السكراسى بوجوه كالحة معفرة بالتراب مجفرة متشققة ، لكن أصواتهم الحبيبة ملأت المقهى دفقا حيا وحلوا يا خال ، عملت زبطة وزنبليطة كانوا الفرح ، هم ولد بلدى يا بوى يحل الفرح اينما حلوا ، الفرح فى أعقابهم اسرح من طلقة رصاص النار .

لغايغة كبيرة يا بوى شملت الدنيا ، عراك ما تدرى فرح ما تعرف ، وأصل الحكاية أنهم يتحدثون فحسب ، ينادون بعضهم بعضا بتفقون بتعاتبون يتواعدون . ثمة من يقوم فينضم الى طابور صغير أمام حوض الحنفية ليسلم رأسه ويديه ورجليه للماء يتوضأ

ويعود ماسحا اطرافه في اطراف ثوبه وما يلبث حتى يقيم الصلاة في ركن مفترشا منديله المحلاوى او لاسته او تلفيعته . المعلم « دحروج » يصبح في هذا ويشخط في ذاك بأعلى صوت ، فيردون عليه بصوت أعلى مشوحين بأذرعهم السرحة المعروقة في الهواء وعروق رقابهم تنتفض حتى لتكاد تطرقع ، وما الأمر في النهاية الا مجرد زعيق .

الطريف يا بوى ان المعلم « دحروج » كما لاحظت كان في اشد السعادة بهذه الزيطة . اقطع بأن زعيقه المتواصل هذا ، وشخطه في كل من صادفه ، ان هو الا تعبير عن فرحته يا خال ، فهؤلاء هم مصدر رزقه الوفير . يوم الجمعة من كل أسبوع يتولى هو محاسبة الحاج « فرهود رمضان » نيابة عنهم ليحتجز حقوقه طرفهم . هكذا قال لى قبل مجيئهم ، واخبرنى انه في الصبح يصنع قولا مدمسا شهيا لا نظير له في مصر القاهرة كلها ويقدم معه بصلا اخضر وجرجيرا ومخللا بالمجان للأكلين . وفي المساء يقدم وجبة عشاء قوامها عدس وبصل احمر ومخلل . من جمعة لآخرى يجدد العشوة بطبق من المسقعة او البصارة الطيبة . انه يا بوى يتحدى أن يجلس مخلوق امام طعامه دون أن تنفتح شهيته ويأكل أصابعه ، وهو ينسى طبعا يا بوى أن الذين يجيئون للأكل عنده يكونون في الاصل واقعين من الجوع ، والجوع غموس كما قال سيدنا « عبد الرحيم القناني » طيب الله ثراه وأرضاه .

أحلف اليمين يا بوى أن « دحروج » كان صادقا فيما ظننته يسرح بعقلى كى اندب أنا الاخر مثلهم فأسلمه يوميتى على ذمة اكل ، كله وأونطه في أونطه ، وهل أنا عبيط يا بوى حتى أعطى الأمان لابناء المدينة حتى ولو كانوا من ابناء الريف سابقا ؟ صنف أصحاب المحلات الذين يبيعون الناس أكلا مطهوا جميعهم خربو الدمة لا يكلفهم الطبق مليما ويبيعونه بخمسة وعشرين ، مالى أنا والاكل المطهو ؟ أبى ذوات أنا يا بوى ؟ ما عيب الرغيفين والبصلات مع طبق من الفول اشتريه أنا من عربة جواله مملوء لحافته لو كان عند « دحروج » وأمثاله يقسمه على أربع أطباق ويسمى كل منها واحدا .. هذه الأكلة في الصباح ودمتم على ذلك حتى صباح اليوم التالى اذ اتنى جئت الى هنا كى أرسل الحوالة البريدية لأمى كل بضعة أيام لا لكى يجزرها المعلم « دحروج » أو غيره من الدحارج الاخرى بجميع أنواعها .. عبيط أنا يا بوى ؟!

صدق من سماه « دحروج » ، اذ انه تدحرج الى قلبى شيئا فشيئا حتى تملكه وتمكن من الضرب فى قلعة مخى المنيع الصلبة العنيدة ، عزمى على العشاء بالمجان ، اى والله يا بوى غير اننى لم اكن اظنه يقصد ذلك حقا فى اول الامر . ذلك اننى فوجئت بسيدة شابة من بنات الحارات الفائنات تلبس فستانا اسود يظهر شدة بياضها الاسر ، ويظهر جسما مخروطا على قالب ملىء بالأبراج العالية والقباب تطير عليه كل أبراج الدماغ قبل الحمام ، واه يا خال ، حافية القدمين بكعبين كريالين من الفضة وسمانتى قدمين كشهدتين طابنتين ، ممتطة الجذع بارتفاع صدرها الناهد مع ذراعيها وكتفيها تسند بيديها حلة كبيرة . ثمة من يتطوع ليحمل عنها الحلة قبل وصولها السلمة الأخيرة ، وهى تصيح فيه بصوت كالفنج اللاهب : « حاسب ! حاسب أحسن دى سخنه » . الكل يريد التطوع بسند الحلة للاحتكاك بالمرأة ما أمكن ، مداريا نواياه الخبيثة بطيبة مفتعلة فى قولهم : « على مهلك يا أم حنفى ! كيف حالك يا أم حنفى ! وحشتينا يا أم حنفى » وهى لا تنى ترد على كل واحد بلهجة بين الجد والمزاح لكنها الى الجد أميل بحدة ، مما دلنى على أنها فى جوانبتها التى لا يعلمها الا الله امرأة بحبوحة هازلة الى حد كبير يا بوى وانها تخشى ضياع هيبتها تماما بين الناس فتفقد بذلك لقمة عيشها : « يسعد مسالك يا خويه ! ماتشوفش وحش يا ضنايا ! ربنا يعطيك الصحة والعافية ويقدركم على شقاكم ! » .

عرفت بالفهلوة يا بوى أن « أم حنفى » هى التى تتولى طبخ المشوة لحساب المعلم « دحروج » فى منزلها وتأتى بها الى هنا فى يوم معلوم . قلت لابد أنها تقوم أيضا بتدريس القول عندها وتجىء فى الصباح تملأ به « قدرته » النحاسية اللامعة . وقد صدق حدسى يا بوى ، وهمس لى ولد من بلدياتى بأن « أم حنفى » هى الساعد الأيمن - والأمين - للمعلم « دحروج » منذ سنين بعيدة مضت ، وكل شيء يتم فى منزلها الكائن فى حارة سد ضيقة من حواري حلمية الزيتون ، اذ كان زوجها بوابا لعمارة كبيرة واسعة مبنية فى بواكير نشأة الزيتون . للعمارة منور كبير واسع تطل عليه أبواب ثلاثة من غرف البدرم كان صاحب العمارة يستخدمها مخزنا لبضائعه من زيوت طعام ومواد غذائية بجميع أنواعها الى حبوب ومحاصيل وخمور وما شئت ، لذا فقد لزم أن تكون غرفة البواب هى الباب الرابع المطل على فسحة هذا المنور الكبير الذى تسقط اليه الشمس

والامطار عابرة عشرة طوابق من الشبايك الصغيرة وبسطات سلم
الخدم الحزوني الذي لا يستخدمه أحد . وقد خدم البواب -
« أبو حنفي » لدى الزيات - صاحب هذه العمارة - ما يزيد عن
عشرين عاما حتى مات بفعل الشيخوخة والمرض ، مخلفا « أم حنفي »
وخمسة عيال زغب الحواصل هم « حنفي » وأربع بنات .

الولية صعيدية يا بوى ، محكومة ، شابة لا تزال ، لكن اكل
العيش مر ، والشاطر من يحلى مرارته ، يحليها بالشقاء الزائد
والتمب والعرق ، آمال يا بوى ، بدلا من التفريط في الشرف
وتعريض النفس لسؤال اللئيم . كل شيء في الدنيا قد يتضح أنه
عيب الا الشغل عداه العيب وسافر . اشتغل يا بوى واشتغل تدوب
في حنكك مرارة المالح وتجد نفسك في نهر الحياة مرتويا بالعزة
والكرامة والمهابة . هذا ما صرت اقله لنفسي يا بوى مقتديا بهذه
الولية الغلبانة الجدة « أم حنفي » . التقطها المعلم « دحروج »
- كما يزعم - بنية أن يساعدها على المعاش ويوفر لها رزقا .
وواقع الأمر يا بوى - يقول ولد بلدى من حولي - أنه يستغلها أشنع
استغلال يا بوى ، يتخذها خادمة تقوم وحدها بما يطلب من مجموعة
عمال ، خلاف استقلاله لمنزلها ، الذي هو عبارة عن غرفة واحدة
تنام فيها بأطفالها تراحمهم فيها أجولة الفول والعدس وبراميل
الزيت . ولولا أن سكان العمارة كلهم يتعاطفون معها لضايقوها .

« أم حنفي » غابت ثم ظهرت ثانية في فراغ الباب تحمل صندوقا
كبيرا جدا ، ما ان وضعناه على الأرض حتى تبينت فيه تلالا من
الاطباق البلاستيك والالونيوم الصغيرة ، يتخللها اكوام من البصل
الاحمر وصفيحة ملانة بالباذنجان تفوح منه رائحة تقول لك كلنى
انا وحدى في التو ، نفس الكلمة التى يقولها لك جسد « أم حنفي »
بمجرد ما تراه ، خاصة اذا طلع صوتها بالغنج الذى لا افتعال فيه .
تطافسنا فمددنا اصابعنا خلسة لتخرج بنسيرة من الباذنجان نلتهمها
والعدة ترقص . شخطة المعلم « دحروج » هى التى أوقفتنا عن
التهام الباذنجان كله . مرة ثالثة ظهرت « أم حنفي » تحمل طاولة
عليها تلال من الخبز الساخن ، تركتها على رخامة النصة وانصرفت .
تقدم المعلم « دحروج » وصار يتناول الاطباق فيملأها بالعدس
مرشوشا على سطحها حففات الثقيلة . ولد بلدى يتراحمون عليه ،
وكل من حصل على طبق مال نحو الصندوق فانتخب بصلتين كبيرتين
وانتخب باذنجانا كاملا ثم عرج على طاولة العيش فانتقى ثلاثة او

أربعة أرغفة . خلال ذلك عادت « أم حنفي » بطاولات جديدة من الخبز عدة مرات متلاحقة . حتى اذا ما انقلبت المقيى كلها الى ناس منكفة فوق الكراسى وعلى الارض ، والأيدى كلها متصلة بين أطباق عديدة من العدس والخبز وبين الأفواه ، مكن شغال يقرقش البصل يطحن في لذة وانتشغال عظيمين مهيين يابوى كأنهم يؤدون أعظم وأقدس عمل في الوجود يا بوى .

كنت الوحيد الذى لا يشترك في هذه العملية ، اجلس وحدى في ركنى هذا منذ بداية تفريق الاطباق ، اذ اننى في الحق لم اكن أنوى أن أدفع « خمسة تعريفة » في واحد عدس كهذا فوق قرش للرفيغين الذين أحدهما لنفسى في الطقة الواحدة ثم ان كل ما معى من قروش لا يسمح لى بهذه الرفاهية ، ربما لا ينفع ثمننا لهذه العشوة وحدها فانا لم أشتغل مثلهم بعد ولم يجر القرش في يدى . راقبت المعلم « دحروج » وهو ينظر خلفه في انتظار أن يتقدم منه أحد يطلب طبقا ، شمل الجميع بنظرته تاكد من أنهم جميعا مندمجون في الأكل ، مسح يديه في خرقة مبللة ثم جفف يديه في جوانب جلبابه البوبلين الكالع ذى الياقة والاساور المشمرة ، مضى يجر ركبته نحو النصبه ، ما أن وصلها حتى صب لنفسه كستبان شاي ثم أشعل سيجارة نفت دخانها في الهواء ناظرا هنا وها هنا ، وقعت نظره على فيما انا متكور في ركنى اقول يا أرض انشقى وابلعينى ، أحاول ابعاد عينى عن الاكلين باى شكل ايقافا ليرقى الجارى مع مضغهم ، كسرت عينى هربا من نظرة المعلم « دحروج » ، لكن بعد أن تاكدت من أنه رآنى يا خال ، تاكدت ايضا من أنه قد فوجئ وقد اندهش ، ففرحت وارتبكت معا يابوى ، خفت أن يجرنى في السؤال حتى يضطرنى الى الاعتراف أمام الذى يسوى والذى لا يسوى باننى لبس معى نقود ، ورحت أدبر كلاما أرد به اذا ما سألنى : لماذا لا تتعشى ؟ لكننى أحسست به يرشف الكوية كلها بسرعة ، وبظله يخرج من حدود النصبه يتجه الى حلة العدس الكبيرة فيكشف غطاءها ، يتناول طبقا من الصندوق ، بالمغرفة الكبيرة راح يقلب العدس المتبقى في قعر الحلة ثم جعل يغرف ويضع في الطبق عدسا تخينا يتصاعد منه الدخان ورائحة التقلية ثم يتناول طبقا آخر ، وشقه بين أصابع نفس اليد ثم انتشل من الصفيحة أربع بالذجاجات كبار سليمة وضمها في الطبق ، ووضع فوقها أربع بصلات كبيرات ، وخرج على الطاولة فانتخب تلا من الخبز يزيد عن ثمانى أرغفة حلوة

التقاطيع حمراء الخدود خفيفة الدم ، اى والله يا بوى هكذا بدت لى ساعتها . ما ادرى الا والمعلم « دحروج » مقبل نحوى بهذه الوليمة العظيمة ، ثم تربع على الارض متاوها ، رص ما معه على الارض ، شور لى نحو الارض قائلا : « انزل يا ابو العم » . وانا ما كان مرادى أن يصل الامر الى هذه اللحظة لكن صوت الرجل كان حادا قاطعا وبسيطا فى نفس الوقت يندرنى بالقطيعة ان تمنعت يعلن على الخسة ان نشفت مخى يا خال ، وعلام نشفان المخ يا بوى ! لكننى ربت على صدرى قائلا : « كتر خيرك يا ابو العم ! تشكر تشكر ! الف هناء وشفاء ! » . شخط بحدة كاننى عبده الذى يشتغل عنده ويأمر بقوة : « انزل يا بو العم قلت لك ! » ، واحسست انه يعلق ابو العم هذه ويمطها بغيظ كما لو كان يذكرنى بأنه يتفضل على بهذه اللفظة والمفروض أن ينادينى بسواها ، وتاهبت لأغضب وأعملها زملة ولكننى ألهمت أن لا داعى لتثيف المخ اكثر والا انكسر وتفتت ، غير أننى ارتبكت يا بوى ، صرت اردد ألفاظا من قبيل : « اصل .. انا .. كنت .. الخ الخ » فى حين لا أقول شيئا ، فبدا على وجه الرجل تصميم يندر بفضيحة لو أننى سقت الدلع اكثر من هذا ، كدت اميل على اذنه هامسا : « أصلى ممعيش فلوس ! » . لكنه كان اسرع منى ، اذ شور لى ناظرا فى قلب عينى نظرة جادة : « انزل انزل ! على حسابى ! » ، تلمعت قليلا ثم نزلت متربعا قصاده وفى نيته ان أنقنق بمضغ لقمة او لقمتين اكراما للرجل ، فما كدت امد يدى واسحب الرغيف حتى لامس ركبتي بأصابعه علامة تنبيه . فنظرت فيه بأهمية فنظر فى باسما يقول : « بس العزومة دى الليلة دى وبس ! اوعك تاخذ على كده ! اللى اوله شرط آخره نور يا بو العم ! » . ثم ضحك وضحك الجميع فضحكت معهم مضطرا . لكن ، ما كدت أشرع فى تميمس اللقيمات بالعدس والبادنجان والبصل حتى فقدت الوعى والله يا بوى ، فصرت اطوح فى فمى بلدة فائقة والرجل ينظر لى من حين لحين مبتسما كأنه يذكرنى بتعديه السابق عن مذاق اكله .. لا اذكر عدد الأرغفة التى مزقتها وبرمتها وطوحتها فى بالوعتى ، لكننى اذكر ان الرجل جاء بتل آخر من الارغفة واعاد ملء الطبق مرتين وهو يقول : « معلش ! غلطنى واستحق التربية ! ما كان مالى ! ما الذى دهانى فدعانى لان اقطع املك فى تذوق طعامى مرة ثانية بدون نقود ! » ، وحين أخرج أمامى آخر بصلة ونفص

آخر ما في الحلة صار يعشمني قائلا : « لا تصدقني يا ابو العم !
 لسوف تاكل عندي وقتما تشاء دفعت أو لم تدفع ! » .
 ثم انه اتجه الى النصبه فعلا براض العمال ولقمه بالششاي
 وصف الاكواب متعذلة فيما هو يدخن بلدة فأنفة . ثمة خاطر يحول
 في دماغى باننى ساكون حتما من زبائن الاكل عند المعلم « دحروج » ،
 وأننى لا محالة تارك له يوميتى يجزر منها الحساب الذى يحدده هو
 وذمته ! .. صار يصب الشاي في الاكواب ويزيحها بعيدا وكل واحد
 ينهض فيحىء ويأخذ كوبا ويمضى . قمت بدورى فأخذت كوبا ،
 فنظر لى قائلا : « على حسابى برضه ؟ » . قلت : « لا .. على
 حسابى أنا ! والاكل أيضا على حسابى ! عزومة هذه الليلة بالذات
 على حسابى يا ابو العم ! ويبقى لى عندك عزومة ! » . ارتفعت
 اصوات الشفط فصنعت جوا لطيفا ، راح المعلم « دحروج » يفر
 في دفتر ممزق سحبه من تحت النصبه ، بقلم جاف اخذ يدون
 حساب كل واحد منهم ، ثم صاح تجاهى ويده على صفحة جديدة
 بيضاء : « اسمك ايه يا ابو العم ؟ » . صحت قائلا : « حسن
 ولد ابو ضب » . كتبه ، ولا ادرى ماذا كتب امامه من ارقام ،
 لكننى في الحال فتحت دفترى في دماغى وكتبت فيه ما اخذته اليوم
 بالمليم .

الا والحاج « فرهود رمضان » داخل علينا ، حوله أربعة رجال
 اشداء وجهاء بعمائم صعيدية كبيرة وجلاليب من الصوف المعتبر
 وعباءات من الجوخ على اكتافهم . كانت شخصية الحاج فرهود
 اوضحهم ، يتقدمهم ، قصير القامة نوعا ، عريض الكتفين ، ممتلىء
 الوجه بالدماء والعافية ، غليظ الملايح ، تخين الصوت أجشه ،
 يرتدى مثلهم نفس الثياب ولكن المز والفخفخة ناضحان عليه ، ومن
 فتحات الثياب تندفق النعمة في ملابس داخلية ثمينة ، من الواضح
 انه يستحم ويخلق ذقنه كل بضعة ساعات ، ويده العصا الابنوس
 العوجاية .

كل من معه تأفقا من الكراسى ونفضوها بأطراف ثيابهم الا هو
 جلس على اقرب كرسي كيفما اتفق . فلما اندهشت اخبرنى ولد بلدى
 انه على هذه الحال منذ ما يزيد على عشرين عاما ولم يشأ ان يغير
 عادته بعد ان اكرمه الله وصار من الاثرياء ، بل فضل ان يظل
 يباشر عمله الاصلى في المقاولات البسيطة بنفسه ، تاركا شركائه
 الكبيرة لموظفيه الكبار يديرونها بالطريقة التى يعلمونها تحت اشراف
 وحراسة ابنائه وهم أفندية كبار متعلمون ..

ثمة رجال آخرون كانوا خارج المقهى بالملئات صاروا يتدفقون علينا . فبعضهم جعل يقبض أموالا كبيرة سيفضي بها مصالح عاجله ، وبعضهم يقبض أموالا صغيرة ، والبعض الثالث يتلقى بعض الأوامر والتوصيات وينصرف . فوضح لى أن الرجال الأربعة الجالسين هم أربع رؤساء كل واحد منهم مسئول عن حوالى مائتين أو ثلاثمائة نفر يعملون فى عملية معينة فى مكان ما تبع الحاج « فرهود » . فلما لاحظت أن الزحام بدأ يخف ويتلاشى تقدمت من الحاج « فرهود » وقلت له : « اتمسك بالخير يا حاج » . قال : « مساك النور .. تحب تشتغل فى ايه ؟ » . قلت والبشر يطفح منى : « أنا أحب أن حضرتك تشوف لى شغله على قدى ! » . نظر فى متاملا ثم قال : « انت كنت بتشتغل ايه قبل كده ؟ » . قلت : « مساك .. وقهوجى » . أعاد النظر فى وزام مفكرا ثم قال : « اما السمك فلم نشغل فيه بعد ! واما القهوة فأمر فيه نظر » . قلت محننا قلبه : « ربنا يخليك ! ويزيدك من نعيمه » . أعاد نظره فى ثانية وقال : « انت منين يا ابو العم ؟ » . قلت بسرعة : « من الغنايم قبلى ! كوم سعيد ! من ولد ابوضب ! اعمامى المشايخ الكبراء ! يمكن تسمع عنهم ! » . انبسط وجهه فجأة قال : « بقى انت ولد ابو ضب ! دا الشيخ ابو ضب الكبير كان الفقى بتاعى يا ولد ! كنت تلميذا فى كتابه وانا طفل صغير ! ووالله ما نفعنى فى الحياة حتى اليوم سوى ما تعلمته منه فى ذلك الزمن ! رحمه الله ! » . انفشخت يا بوى على الآخر وكبرت قامتى امام الخلق ، ونظر هو الى واحد بجواره وقال : « ياريس حمدون ! خذه معك الى المعسكر باكر ! فانا نحتاجه ! » ، ثم نظر لى قائلا : « باكر قبل طلعة الشمس تكون هنا منتظر الرئيس حمدون لتركب معه وتروح المعسكر الهايكستب ! » . قلت بقليل من التوجس : « حاشتغل ايه فى الهايكستب يا حاج ؟ » . شوح قائلا : « باكر سارك ما تفعله » . ثم حول نظره عنى مرددا فيمن حوله : « حد تانى عايز اى حاجه منى ؟ » . فلما لم يتقدم احد بحاجة نهض متكئا على العصا قائلا : « توكلنا على الله » . فنهض الجميع فساروا خلفه وانصرفوا .. فحل بالمقهى هدوء شديد شديد خفتت له الاضواء فى اللمبات .

الثانية - سقف العراء !

شادر البطيخ كبير جدا يا بوى ، يشبه دوار اكبر عمدة في البلاد كلها . يتهامس ولد بلدى قائلين العجب : هو ثروة كبيرة في يد صاحبه الحاج « رفقى » ، الذى استولى على هذه المساحة الشاسعة بوضع اليد منذ سنين طويلة ثم أجراها من البلدية ثم آلت اليه ملكيتها في النهاية بثمن بخس طلع عليه مصاريفا نثرية . شادر البطيخ اسم فحسب يا بوى ، والبطيخ كله لا يزيد عن كومة صغيرة مرصوفة فوق بعضها على باب الشادر . أما الشادر نفسه - الممتد على مساحة فدان أو أكثر ، والمبنى بجدران طينية ومسقوف بمشمع الخيم - فانه ملان بعربات اليد الصغيرة مجنزرة بأقفال في صفوف طويلة من أول الشادر الى آخره ، وبقيّة من أرضه ملانة بأجساد مرصوفة جوار بعضها ، منهم المغطى ببطانية جيش قديمة ، والمغطى بحرام صوفى عتيق ، والمغطى بجوال مخرق ، والمغطى بجلباب قديم متهرىء . أما الحاج « رفقى » نفسه فانه - تحلف اليمين - لا يساوى تعريفه ، كرش هرمى قاعد على الأرض ، له ما يشبه رأس الإنسان ، فتحة طوق جلبابه مفشوخة وفتلة من الدوبارة المتينة مربوطة فى عروة الصديرى وطرفها الآخر مربوط فى محفظة جلدية كبيرة جدا ومنتفخة فى جيب الصديرى ، وجهه كالبطيخة بالضغط يا بوى ، لونه - تحلف اليمين - بين السواد والخضار ، منتفخ العينين يملأ العماص جفونه ..

رحت وجئت من امامه عدة مرات ومرادى ان اكشف عن زاوية بعيدة منه أرمى فيها جثتى سواد الليل دون أن أدفع شيئا ، فعراء بعراء وخلاء بخلاء ولا داعى اذن للخسارة قرشين . كنت اظنه لا يلحظنى يا بوى ، لكن اللعين شعر - وهو فى مكانه - بعلامسة جدى لحدار الشادر المخفى عن نظره ، اذ ما كدت اتفرقص مرتكنا للحائط كأننى ساستريح برهة وجيزة حتى سمعت نحنة بصوت عال وبنفمة ذات معنى . وما كدت اتمدد واضعا ذراعى تحت راسى حتى جاءنى صوته راعدا كصوت العواء المقبض : « انت يا جدع

انت ! هي وكاله ولا ايه ! ! » . فنهضت في الحال جالسا ، اظهرت
نفسى مقبلا نحوه : « سالخير يا حاج رفقى » . وضع كفه كالتندة
فوق عينيه صاح بغير ود : « سا النور ياخويه ! انت من اللى
بيترموا تحت الجدران ولا ايه ! ! » . تبسمت رغما عنى قائلا :
« لا ! أنا من رجالة الحاج فرهود ! وراجل اعجبك ! بس الزمن هو
الى قاسى ! » . اغتصب ابتسامة خشنه ، قال : « طب وماله ! .
بس تيجى تمسى علينا الاول واحنا نشيلك على راسنا ! » قلت :
« عاوز أبات للصبح ! » قال : « جوه ولا بره ؟ » . قلت : « جنبك
هنا ! » . قال : « نص افرنك » . قلت : « والحاج مالوش
اكرامية ؟ » . شوح قائلا : « الحاج قدام نص افرنك ؟ دا حتى
يبقى ميب ! » ثم أشاح عنى كأنه أنهى المقابلة . مددت له يدى
بالقرشين والغيظ يفرينى ، وقلت لنفسى : صحيح انها مصر
أم العجائب ! عشنا وشفنا من يبيع لنا النوم فى العراء بقرشين !
حار ونار فى جتته .

استرطبت بقعة مجاورة له تماما وتمددت طاويا ذراعى تحت
راسى . وقلت له قبل أن استفرق فى النوم : « والنبي تصحبنى
بعد صلاة الفجر على طول ! » . قال « طيب » . غفوت ، ثم صحوت ،
ثم غفوت ثالثة ، وكلما صحوت لاعتدل على الجنب الآخر رأيت صف
الأجساد المتمددة بجوارى يصل الى آخر جدار الشادر من كل
ناحية .

الثالثة - نهاره أبيض !

من شاهدي لحظة عشوة العدس بالأمس لا يشاهدني صباح اليوم ، وقد اندمجت في الرجال حول قدرة الفول ورحت اصيح مثلهم بلهفة واستعجال : « شوية زيت حار هنا ! بصلة يا معلم ! بدنجانه تانيه ! » . اكلت حتى امتلأت صحة وصرت بفعل الفول والبصل يا بوى مستعدا لضرب الحديد بقبضتين .

تسلطنت أمام كوب الشاي الساخن وكان معي سيجارة مكن هليود قطمتها نصفين شبتك احدهما فوق اذني وفرطت الآخر في ورقة بافرة برمتها واشعلتها وتاملت لون الدخان فرايته ارتوازيا في لون نصباح أبيض القلب يا خال . كنت قاعدا على الرصيف خارج المقهى في انتظار الرئيس « حمدون » . وقمت عيني - سامحها الله - على نافذة بيت في مواجهتي على الرصيف الآخر تشبه طاقة مستديرة مغطاة من الخارج بشبكة سلكية ، وثمة وجه آدمي يحاول النظر من خلالها من الداخل . كانت الحائط من الخارج مبلولة بالرطوبة وفيها مواسير للمياه مما جعلني افطن الى ان هذه النافذة في حمام البيت يا بوى . فأصابني هياج كبير يا بوى ، وأنا ما كان مرادى أن أنظر يا بوى لكنه الشيطان قاتله الله ، هو الذي اقامني من قعدتي فعبرت الطريق الى الرصيف ، وفي ظني أن الذي يحاول النظر من النافذة من الداخل لابد أن تكون امرأة ، لعلها « أم حنفي » أو من تشبهها ، ولابد ايضا أنها تطلبني لشيء أو ترغب في مساعدة ، والا ما بقيت تواصل النظر هكذا يا بوى ولابد كذلك أن الله جعلني انتبه اليها يا بوى لمصلحة لها أولى . ما أن وصلت الى النافذة حتى توقفت مرتعبا وقلبي ينتفض . شبتت على اطراف اصابعي ، فتبينت الرأس المشعر واقفا لا يزال خلف الشبكة السلكية . ثم قفزت في الهواء أمام النافذة ملقيا بصرى في الفرفة فاصطدم بظلام دامس . مخ صعيدي يا بوى صدق من اسماء . صممت على رؤية هذا الشخص والتأكد من أنه امرأة تناديني من خلف الحجاب لتتواعد معي على شيء ووعد النساء دائما بهيج يا خال .

في قفزة عالية قلت للرأس الواقف خلف الشبكة : انا خدام .
في قفزة ثانية قلت : أمري وأنا انقل . قفزة ثالثة قلت : اى
خدمة . في قفزة رابعة سقط جسدى بين ايدى ثلاثة من الرجال
الاشداء ، كتفونى ، وخذ عندك .. فين يوجمك : زغد وتلطيش
وتشليت وسب ام وكل ما لا قلبك يحبه . اذا بهم مخبرون سريون،
واذا بهذه الغرفة هي غرفة الحجز التابعة لقسم الشرطة الذى يطل
على الشارع الجانبى . اخذونى الى القسم يا بوى وانا اصيح لله
ما يفيشنى حتى تحطمت قواى قبل ان يبدأ النهار ، فياله من نهار
شؤم كانت بدايته نافذة السجن يا بوى .

ولد اعمامى وبلدياتي لصونى ، فصاروا يضحكون يصيحون فيما
انا واقف امام الضابط والضرب شغال على قفاى . سألنى ما الذى
كنت افعله مع المساجين ؟ فلم اعرف جوابا قط سوى قولى : والله
ما اعرف انه سجن . الذى طلع على ساعتها قولى : والله ما اعرف
انه سجن . الا والرئيس « حمدون » مقبل علينا كالاسد يضحك .
نفض له الضابط وسلم عليه باحترام كبير - طبعا يا بوى . قال
الرئيس « حمدون » : عمل ايه الولد ده ! عملت ايه يا ولد ؟ .
قال احد المخبرين : « ضبطناه ينط على منور الحجز ويتكلم مع
المحتجزين . رحت ابكى وابكى ، قلت : « ابدأ والله ! انا كنت لعب
شوية رياضة وعمال انتنط » . قال مخبر آخر وهو يركز بصره في
عينى : « يا رجل اتق الله في دينك ! بطل كذب ! » . وضحك الرئيس
« حمدون » وقال : « تننط ليه يا ولد ؟ انت مجنون ولا ايه !
داهيه تسمك ! » ، ثم لطمنى هو الآخر كفا تخينا على صدغى حتى
اصطدم خاتم في اصبعة بضرس في فمى فصرخت فزعرا . قال
الضابط : « حضرتك تعرفه ؟ » . قال الرئيس « حمدون » وهو
يبدو عليه انه تأثر من ضربى : « ابوه دا من انفارنا ! دا ولد عيبط
وغلبان وابن ناس طيبين ! يلا قدامى يا ولد ! » . نظرت الى الضابط،
فاشار لى بيده قائلا : « غور من هنا واومى اشوفك لانى ! » .
فاندفعت احدى الى المقهى ، لاجد ما تبقى من الزملاء يضحكون ولكن
في شعور بالخوف والشفقة على حالى يا بوى . فلما لحق بى الرئيس
« حمدون » اشار قائلا : « يلا يا ولد اركب انت وهو ! » .

كانت عربة اللورى واقفة تشبه عربات الجيش او الشرطة الخالق
الناطق غير ان هذه مكتوب عليها : « فرهود » . ركبناها ، وركب
الرئيس « حمدون » بجوار السائق . مضت العربة فاخرقت

« عين شمس » حتى وصلت الى الهايكستب فانفتحت امامها البوابة فمضت في الداخل مسافة طويلة حتى انتهت بنا الى قرب محطة تسمى « المصح » هي آخر محطة للقطار الذي يصل من باب الحديد الى هذه المنطقة وجنود الجيش يخرجون من المعسكر اليها بعد مشي طويل ليأخذوا منها القطار الى باب الحديد عند سفرهم في الاجازات ، وبالطبع ينزلون فيها عند العودة .

توقفت العرببة عند بنايات متقابلة بسقف جملون ، وقيل انزلوا . فنزلنا ، ساقنا الرئيس « حمدون » خلفه فمشينا بين هذه البنايات الظليلة وقلبي منقبض غاية الانقباض ياخال . لست والله اعلم السبب ، ربما كان بسبب الضرب الذي تلته اليوم على ريق الصباح ، وربما التشاؤم من تنطيطي امام غرفة السجن بكل سعادة وغشم ، ربما يا بوى كل هذا ولكن السبب الذي كنت احسه قاطعا في نفسي هو منظر المروس المظلة من شبايك هذه البنايات وفوقها الكاب الأحمر والاخضر والازرق ، ومنظر النجوم والضبابير الالامعة وهو مشهد يلقي الرعب في قلبي وحده يا خال ، لست احب مشاهدته ابدا ، اذ ان امي طول عمرها كانت تسمى لاعفاني من الجهادية باي ثمن ، ولولا رهافة قلبها لفعلت بي ما يفعل غيرها بابنائهم اذ يكسرون له اصبع او يختلقون في جسده تشوها لكي يسقط في فزز النظارة ولا تاخذه الجهادية . لكن امي طول عمرها ونحن كلنا طول عمرنا نكره هذه الكابات وهذه الضبابير والنجوم والشرائط كراهيتنا للانجليز فكيف اجيء لهم بقدمي يا بوى ؟! ندمت والله على انني وافقت بالأمس على المجيء الى هنا ، كان الواجب ان اقول : لا ، حينما جاءت سيرة المعسكر والهايكستب ، لكنه قدر الله يا بوى . وعلى كل حال فلا بد ان اتصنع النوم حتى يفقد الرئيس « حمدون » امله في شسغلي فيستبعدني عن هذه الفرقة ويبعدها يحطها الحلال يا بوى . انهم بالطبع يعرفون انني اكلتها اليوم ازواجا وافرادا ، ولا بد انهم سيصدقونني ان زعمت المرض .

انفصلنا عن البنايات وصرنا نمشي في عراء الشمس مسافة طويلة الى ان صادفتنا بنايات اخرى على صفين متقابلين لكنها متهدمة . عندها توقف الرئيس « حمدون » فتوقفنا . لاحظتها فقط انتبهت الي ان الانفجار كلهم يحملون معهم قنوسا وكريكات ومقاطف وقصاعا واشياء من هذه الا محسوبك لا يحمل شيئا . قلت : حلو ، سوف يكتشف الرئيس « حمدون » هذا فيزجرني ويطر دني فاكل على الله

الى محطة « المصححة » عائدا الى باب الحديد ومنها الى باب الله .
 الرئيس « حمدون » شاهدنى ولكنه لم يفعل شيئا ، وقف يوزع
 الانفار على الجدران المخروقة ليحولوها الى هديم وانتقاض . ذلك
 أن هذه هى ادارة المطار الذى دمرته طائرات العدو ، سوف نعيد
 بناءه من جديد على نسق آخر . هكذا قال الرئيس « حمدون » .
 كان ثمة عسكري كالحارس يجلس على مقربة من الهديم وبجواره راديو
 ماركة صوت العرب مفتوح عن آخره وصوت « محمد عبد المطلب »
 يصدح مغنيا : يا سابق الفليون عدى القتال عدى .. وقبل ما تعدى
 .. خد مننا وادى .. ده اللى فحت بحر القتال جدى .. عدى ..
 عدى .. ياسابق الفليون . تلاشى صوته تحت صوت أم كلثوم
 يغنى : صوت السلام هو اللى ساد واللى حكم . ثم تلاشت هى
 الاخرى ودخلت المجموعة تصدح بجعر يفزع القلوب حماسة : الله
 اكبر ! الله اكبر ..

قلت فى نفسى : ما للاذاعة اليوم زائطة هكذا والكل عمال يدخل
 فى بعضه يريد أن يغنى فوق الآخر بالغاوية . اذا بولد من بلدياتى
 يسمنى ، وكلن من قديم فى مصر القاهرة فمال على اذنى قائلا :
 « أما علمت ؟ قلت بلهفة : « ماذا » ؟ قال : « هجم علينا ثلاث
 دول هى انجلترا وفرنسا واسرائيل » . قلت : « هجمت علينا كيف
 يا ابو العم ؟ » قال : « على بور سعيد ! ودار القتل فى الفوارع
 والبيوت وطال الضرب مصر القاهرة من الجو وهذه نتيجة الضرب
 هم يهدمون ونحن نبني » . صرخت فيه : « لماذا فكرتنى بالضرب
 يا شيخ ! لعن الله الضرب والضاربين حتى يجربوا عذاب المضروبين ! »
 حينئذ لكره زميله ، فتركنى وجرى بفاسه ومقطفه .

كل الانفار توزعت وبدأ الشغل فى الحال الا أنا يا بوى ، ظلت
 فى وقتنى مبهضا انتظر المصير . فلما اطمأن الرئيس « حمدون » الى
 ان الشغل يضى على بركة الله ، استدار نحوى كأنه فوجيء بى .
 يبدو اننى صعبت عليه يا بوى . تذكر الكف الذى رزعنى به ، فاذا
 هو يضع يده برفق شديد على كتفى ويربت ، واذا هو يستدرجنى
 فى المشى بجواره واضعا يده على كتفى كأنما ليصالحنى ، واذا هو
 يقول : « تقول انك فى الأصل قهوجى ؟ » . استدركته مصححا :
 « اقول اننى اشتغلت قهوجيا ذات يوم » . قال مبتسما : « يعنى
 عندك فكره » . قلت : « عندى وأفهم فى هذه الصنعة جيدا » .
 ربت على ظهري قائلا : « حلو ! الناس بلبدياتك هؤلاء طول النهار

بودهم لو يشربون الشاي عاملين الشاي حجتهم في القريفة خصوصا
بمذ الفداء ! وهذا مسكر ! ليس فيه كلام من هذا ! ما رايك
لو جئت لك بوابور وعدة ونصبت هنا نصبة شاي وقهوة جنب
الأنفاد وربنا يرزقك من ورائهم ! أما المسكر فليس لك شأن به فلن
يتعرض لك أحد ما دمت أنت في منطقة بعيدة عن الخطر ! هم أيضا
يحبون شرب فنجان من القهوة وواحد شاي عند العصارى ! سترزق
من ورائهم أيضا ..

لم أدر والله يا خال إلا وأنا منهال على يدي الرئيس « حمدون »
بالتقبل والسكران . تفاعلت خيرا بهذه الشغلة التي لم تكن تخطر
لي على بال يا خال ، حيث لا يتحكم في أحد ولا يشغل كتفي حمل .
قلت للرئيس « حمدون » :

« هذه الشغلة هي عين المرام ! ولكن أنا ما معى تقود الآن
أشترى بها العدة والمونة فما يكون الراى ! » ..

قال : « أنا أعطيك سلفة تشتري بها لوازمك وعندما يكرمك
الله ردهالى . وفى الحال نقدنى خمسين جنيهًا بالتسام والكمال
اهتز من لمسها بدنى كله ورقص قلبى ولولا خوفى من رهبة الرئيس
« حمدون » وقوة الحاج « فرهود » لأخذتها ووليت هائدا الى
الصعيد وبارك الله فيما رزق ، إلا اننى كنت قد نويت لله خيرا
واستقامة ، ووجدتنى أقول فى غبطة : « وهل أنا سساقدر على
رد هذا المبلغ يا رئيس حمدون ! » . شوح بخاتمه فى وجهى قائلا :
« يا خنى .. بكره تسقينيهم شاي وقهوة » .

قلت : « أبدا من غد » . وكان قد مضى خطوات فاستدار
صائحا : « بل من الآن ! فما وراءك اليوم ! » . قلت : « كيف
يا ابو العم والواصلات كلها .. » قاطعنى : « عربات المسكر طول
النهار رائحة جالية انزل فى واحدة وارجع فيها أو فى غيرها المهم أن
تشمل نارك اليوم وتسقينا شايًا بمذ الفداء أن الرزق يحب الخفية
يا بو خاله ! » . ثم تركنى ومضى . قلت والله لافعلن .

تسلقت حربة جيش نازلة . ألقت بى فى الزيتون وأوصيت
السائق أن يمر على فى قهوة « دحروج » ليشرب شايًا ويأخذنى فوافق
وأوصانى بدوره أن أشتري له عبة سجاثر ورطل موز فوافقنا =
المعلم « دحروج » فرح لما أخبرته الخبر ، تمنى لى كل خير ،
زودنى بالنصائح عن أسعار البوق وفن الشراء ومن أن أجود

الواورات البريموس واجود الكويات ياسين واجود الشاى البنت
 الفلاحة واجود السكر الغرز يفرط معك ويحلى . كل ذلك فيما هو
 واقف معى على الباب . دعوت له بالستر ومضيت ، قصدت المحل
 الذى وصف لى مقره ، اشتريت منه الأدوات كلها من ابرة الوابور
 حتى البراريض والملاقى ، وفناجين بأطباقها للضباط والكابات الزينة
 بنسور ثقيلة . لف البائع لى كل ذلك لفة واحدة فى صندوق كرتونى
 كبير متين مبطن بالقش والورق حملته فوق راسى ومضيت . قصدت
 دكانا آخر وصفه لى المعلم « دحروج » ايضا فاشترت منه شايًا
 وسكرا وبنا وينسونا وحلبة وكراوية وكركديها وكبريتا . هو الآخر
 لف لى كل ذلك فى رباط متين حملته فى يدى ومضيت الى مقهى
 المعلم « دحروج » . مررت بقسم الشرطة فوجدتنى اثلثا فى السير
 اكاد ارحف كاننى اكيد له اوبه الى اى حد انا رجل محترم ومعى
 نقود تشتري أشياء كهذه . امال يا بوى . بجوار المقهى حودت
 على كشك للسجائر فابتعت منه علبتين هليود صغيرتين واحدة لى
 والاخرى للمسكرى سائق العربى . ولم يكن قد بقى من الثروة كلها
 سوى ورقة بعشرة جنيهات صحيحة صمب على أن اكسرهما بشراء
 الموز ، والقرووش المتبقية معى تكفى للنوم على باب الشادر وتذكرة
 قطار كوبرى الليمون . استدرت فوجدت العربى واقفة على مبعدة
 والمسكرى جالس على باب المقهى يشرب الشاى فى انتظارى . فلما
 رآى منظرى بالشيلتين وحرصى على شراء السجائر شفت الكوب كله
 ونهض يحمل عنى فأعطيته الصغيرة ومضيت بالكبيرة فوضعهما
 فى ارض العربى واستدرت صائحا : « الشاى عندى يا معلم » .
 رد قائلا : « ماشى يا بو العم » . فانتشى فؤادى وفهمت مزية أن
 يكون لك دفتر حساب عند الناس وأن يستروا كرامتك أمام الناس
 فى لحظات كهذه . ركب السائق وادار المحرك وزعقت العربى عدة
 زعقات متوالية كأنها تذرني بان اتذكر شيئا اكون نسيته قبل
 الرحيل . وكنت أرى الموز على مقربة منى لكننى اعتمدت على أن
 زعقات العربى استعجلتنى فقفزت شابطا فى الباب المجاور للسائق
 ودلفت جالسا بجواره جاذبا ألباب معى فى نشوة أنست ضلوعى وجمع
 الصباح المؤلم . مؤخرتى يا خال كانت هى الاخرى تنضح بالم
 الشلايت تفرصنى كلما حاولت الجلوس . احتوتنى شلثة الكرسى
 ففوت لمدة جزء يسير من الثانية ، اى والله يا بوى ، تحلف اليمين

اننى مادريت بشيء البتة ، الا اثنى فتحت عيني فجأة فوجدت
 العربية معتدلة على الطريق الطوالى نحو المسكر . قذب فى اوصالى
 الانتعاش وفنجلت عيني كائى صحت بعد نوم طويل وما قد اصبح
 الصباح فاذا بى على غاية واضحة ومستقبل فيه العشم الكبير .
 قال السائق : « صح النوم » . قلت : « صح بدك يا وحش ! »
 واخرجت علبة السجائر فمدتها نحوه قائلا : « دى هدية منى لك !
 ولكن لا تؤاخذنى نسيت الموز ! يظهر انك استعجلتنى ! لكن ! » .
 قاطعنى : « لقد اشتريت » ، وترك عجلة القيادة مسنودة بطرف
 اصبعه ، وسحب سباطة موز نزع منها ثلاثة اصابع وماها فى حجرى
 قائلا : « قشر وكل ! » . ثم نزع ثلاثا اخرى وماها فى حجرى قائلا :
 « وقشر لى » . تراقصت من الفرح وقشرت له وقربت الاصابع من
 فمه فالتهم والتهم . وقشرت لنفسى والتهمت فنزل طعم الموز فى
 جوفى بردا وسلاما يا بوى ، صرت ادمو للولد بالستر اشكر الله على
 عظيم نعمه وفضائله ، فما انتهيت من مضغ الاصبع الثالث حتى كان
 الولد العفريت قد فك سلوفان علبة السجائر وفتحها ونزع منها
 سيجارتين قدم لى واحدة ووضع الاخرى بين شفتيه ثم اخرج مشط
 الكبريت فاشعل عودا صنع لشعلته بكفيه قبة تحميها من الهواء
 وقربه منى فاشعلت سيجارتى باستمتاع واشعل لنفسه ورمى بقايا
 العود فى الهواء بعد ان اطفاه ثم اخرج من جيب صدره شلنا ورقيا
 وماه فى حجرى قائلا : « ثمن علبة السجائر » . قلت صائحا :
 « لا يا وحش ! هى هدية منى لك ! » ، ورددت الشلن لكنه ضغط
 على يذى بعنف قائلا : « هديه ايه يا ابو الم ! انت رجل على باب
 الله تستحق المساعدة ! » ، وظل قابضا على قبضتى باصابع حديدية
 حتى تالت فصحت : « خلاص ! خلاص ! » ، وخلعت قبضتى من
 قبضته ووضعت الشلن فى جيبي وقد احسنت نحوه بمشاعر الاخوة
 والمصداقة . انفتح له قلبى يا بوى ، نسيت به كل وجع فى ، رحت
 اوصل الدعاء له بالستر وهو يتابعنى مرددا : « آمين يارب العالمين !
 احنا وانت والسامعين ! » ، حتى صرنا فى قلب المسكر .
 استقبلنى ولد بلدى بزيطة كبيرة ، صار بعضهم يساعدنى فى فك
 اللفتين ، والبعض يصنع لى مركزا على مبعدة قليلة ، اذ جئى ببعض
 عروق الخشب المتخلفة عن الانقاض ، وبعض الألواح العريضة الكثيرة
 المتراكمة هنا وهناك ، والأواح الصاج وأعواد الحديد . من كل ذلك

تشكل - في دقائق معدودة والله يا بوى - كهف جميل راكم على الأرض فاتح فكيه كتتمساح المنط ، فان دخلته وجدته ممدودا ، وكلما امتد ضاق مجاله حتى يلتقى سقفه بأرضه في أنبعاة وضعت فيها صفائح المياه الحلوة للشغل ، واقمت طاولة عالية ووضعت الوابور في مكانه والاكواب في مكانها ولم يبق أمامنا سوى اشعال النار . صار الجميع في أشد الشوق لسماع صوت الوابور بل ان المساكير المراسلة جاءت من المباني البعيدة تسأل اذا ما كان الوقت قد حان لفنجان قهوة على الريحه بسرعة ؟ . . . غير اننى كنت كالاهبل في الزفة . سامح الله المعلم « دحروج » ذكرنى بكل شيء الا شراء الجاز ، الا أن ولدا بحراويا من سلاح الإشارة غاب قليلا وعاد حاملا زمزمية كبيرة ملأه بالجاز فاستبشرت خيرا . ان هى الا ثوان قليلة حتى صهّل الوابور وتوج رأسه بالبراض العمال الكبير كممامة الصاعدة لكن زرقاء . كانت امتع لحظة لحظة أن رأيت الجميع مصطفا أمامى في الكهف وخارجه مسكين بالاكواب المتلثة بلون غروب ذلك اليوم .

وكنّت أشرع في اطفاء الوابور وجمع العدة استعدادا لمفادرة المسكر مع زملائى الانفار حين جاءنى الولد البحرأوى وقال اننى يحق لى البيت ها هنا حيث أنه قد جاء لى بتصريح من القيادة حيث أنهم رحبوا جنيعا ببقائى فى الليل . قلت : فرجت . جرى لى بصندوق خشبى فارغ وكبير من صناديق الأخيرة قلبته على فمه جعلت من قعره سريرا . أما الاكل والشرب فميسور أمره فى المسكر وأما الطلبات الأخرى فطريقها معروف وسيارات المسكر لا تكف عن الرواح والمجىء ، ناهيك عن سيارات « فرهود » .

الرابعة - بل القرائيش

طابت لى الحياة فى المعسكر يا بوى ، جرى القرش فى يدي
والاشياء صارت معدن وآخر فل بالصلاة على الحبيب النبى : هات
واحد شاي يا حسن .. هات خمسة قهوه يا حسن .. يا حسن
يا حسن يا حسن صرت أشهر واحد فى الهايكستب كله ، الضابط
قد لا يعرف بعض جنوده لكنه يعرفنى حق المعرفة .. صرت كل
بضعة أيام أنزل الى المدينة لاسوق المونة ، وكل من اراد طلبا من
سكان المعسكر يؤجله لحين نزولى . قرش من هنا على قرشين من
هاهنا تتجمد الجنيهات ، فقبل أن يديها دفء ضلوصى ارحلها الى
البلد بحوالة بريدية لأمى .

فى ليلة من ذات الليالى كنت اتأهب لانزال الباب والنوم ،
وصوت الوابور كان يون فى بطء شديد لاهت يدعونى للتشطيب
بسرعة ، وكانت يدي قد وصلت بالفعل الى المحبس لافراغ الهواء
حين دخل على عسكري صعيدى يحمل لفة مستطيلة . ارتمى على
الصندوق قائلا : « واحد شاي يا حسن قبل ماتطفى » . صيبت
له واحدا وبقي فى الكنكة قليل من الشاي ، فلما رايت الولد العسكري
يلوح بورقة سلوفان فيها عدساية أفيون كبيرة أفرغت بقية الشاي
فى كوبه صغيرة لى قائلا للولد : « ليلتك فل » . اقتسم الولد
عدساية الأفيون معى وجلسنا نشرب الشاي . الساعة فى معصم
الولد كانت تشير الى الثانية بعد منتصف الليل . الولد العسكري
هذا يا بوى ، بلدياتى ، تعرف على منذ أول يوم ، فكرنى بنفسه
وفكرته بنفسى وبان أننا كنا أصحاب أيام طفولتنا فى كوم سعيد فى
الغنايم قبلى ، لولا هذا ما كنت آمنت له . لم أكن أدقق معه فى
شئ ، مرة يحاسبنى وعشر مرات يشرب ويمشى ، لكنه بين وقت
 وآخر يفاجئنى بهدايا لطيفة ، حبة حشيش كبيرة ، عدساية أفيون ،
علبة بولوبيف مبرشمة ، علبة سجائر أجنبية ، طبق من قطع اللحم
السلوق ، أرغفة صابحة مع طبق أرز . ذلك ان هذا الولد يا بوى ،

يشتغل فيما يسمونه بالكاتنين وفوق ذلك هو ولد ملقط وابن زانية ،
مفتح على الآخر ، جدد ، خفيف الدم مقعص الوجه له عيون مثل
عيون الكلب ساجية على الدوام وسنتان بارزتان وفك طويل وأذنان
طويلتان مما يجعلنا نتصور أن أمه لابد أن تكون قد بنت بكلب
وانجبت منه هذا الولد واسمه « قرقوشه » .

كان من الواضح أن الولد « قرقوشه » مسطول على الآخر .
قلت له : « أنت جاي منين يا ولد ؟ » سقط الخبث من عينيه إلى
شفتيه فتهدلنا بابتسامة مرتجفة . كأنه أراد أن يخلص من النق
عليه راح يدعس في جيب الأفرول ثم استخرج قطعة حشيش تصلح
خمس ست سجائر بالراحة . أغلقت الباب علينا واشعلت الوابور
لكي تغطي رائحة الجاز على رائحة الحشيش ورحنا ننسجم بشراة
كبيرة . فتنجلت عين « الواد قرقوشه » فكان لابد أن أسأله :
— « ألا قل لي يا واد قرقوشه ! أنت بتجيب الحشيش والافيون
ده منين ؟! » .
قال ضاحكا :

— « من باب الله ! بييجيني لحد عندي من غير ما ادور عليه !
المعلمين الصعايدة يا آبا ! قراب صاحبك ! كلهم معلمين كبار قوى !
بمجبوك قوى قوى ! » .
اندهشت والله يا بوي ، قلت له :

— « وانت ايه اللي وداك حداهم يا قرقوشه ! ولا ايه اللي
جابههم حداك ! دول ناس شياطين يا وله ! وانت راجل على باب الله
زينا ! » .

ضحك الولد الملعون وشد نفسا عميقا تبعه بشفطة شاي وقال
ببساطة :

— « هم كل يوم والثاني هنا ! ومنا عسكر كتيرون يشتغلون
مندهم مراسلة وحرسا وكل ما شئت من شغل ! » .
اندهشت اكثر يا بوي ، تلعبك دماغى وزغولت بطنى وصرت
اقول :

— « هم رتب في الجيش ؟! » .

شوح بقبضته السوداء في وجهي غامرا بشفتيه :

— « أنت عدوك أهبل ؟! كل واحد من اقربائه هو الآخر له

محاسب ! هي لعبة ولا إيه ! كله يا ابني بتاعه هنا وهناك ! امشي وراه تكسب وتاكل الشهد ! » .

تحلف اليمين يا بوى أن صدرى تقارب زلومه وكبست على انفاسى يا بوى . شئ الهى قال لى أن الولد « قرقوشه » وراه سر غير طبيعى ، انه ولد واعر يا بوى ، ولا يصح أن تصدق من كلامه شعرة واحدة ، وكل من يتلصق فى كبير أو غيره من الكبار المهابين لابد أن يكون - من أساسه - نصابا محتالا ، أو يكون منصوبا عليه مثل ولد بلدى هذا ..

كنت لا ازال محيرا فى هذه اللفة التى جاء بها معه ووضعها بجواره على الصندوق ، الى أن نهض واقفا وقال :

- « مش هايز أى حاجه من البلد ؟ أنا مسافر فى قطار الصحافة ثمانية وأربعين ساعة ! » .

قلت :

- « عايز سلامتك ! سلم لنا على البلد وكل من تراه » .

فمضى نحو الباب يتلصص ويقول مشيرا الى اللفة :

- « خلى دى بقى هدية منى ليك ! »

بسرعة امتدت يدى وأمسكت باللفة فاذا هي بندقية آلى ملفوفة فى خرقة . كدت أصرخ فيه يا بوى ، والذي دار فى دماغى ساعتها أننى يجب أن أصرخ وألم عليه الدنيا براءة لنفسى ، فلربما يكون وراه من يراقبنا ، لكننى تذكرت انه بلدياتى وولد جدع واننى لم أفعل معه الا كل خير ، صحت فيه بفحيح يمزق القلب :

- « فى مرضك يا قرقوشه ! أنا راجل عندى عيال ! عيله كاملة

فى رقبتى ! نريد ناكل عيشا فلا تودى بنا فى داهية ! الله لا يسينك ! » .

الملعون ضحك ضحكا مكتوما وزغدنى فى صدرى برفق قائلا :

- « ما تبقاش صعيدى مقفول وعبيط ! » ثم همس قائلا :

- « خير تعمل شر تلقى ! الحق على أنا أردت خدمتك ! هذه

يمكن أن تبيعها بمبلغ حلو ! خمسين ستين جنيتها ! لست اطلب

منك شيئا غير الكلمة الحلوة والعلاقة الطيبة ! » .

تحلف اليمين يا بوى أننى صرت كالفار فى المصيدة ، انظر هنا

وهناك ، افتح الباب وأخرج واعد ، لأقول له :

- « أعمل معروف يا ابن الناس ! خلا هذه المصيبة وارحل

منى بعيدا ! الله الغنى ! » .

ابن ألكلب لم يهتز حتى وهو يرانى أرتعش وأكاد أبكى . بل كان
يبتسم والفجور يطل من بين أسنانه . ضغط بيده على كتفى حتى
أقعدينى فى هدوء وراح يقول :

« أنت تفتش حين تخرج من البوابة ؟ » .

قلت :

« لا يابو العم ! أنا الوحيد الذى لا يفتشه أحد على البوابة ! »

إذا به يبتسم قائلا :

« أنهم يفتشونى دائما ومع ذلك لا بد أن أهرب كل مرة حنتين

وثلاثة ! »

قلت :

« كيف يا أبو العم ؟ »

قال :

« شطارة ! »

قلت :

« عجائب والله ! وكيف تتصرف فيها يا ولد ؟ ! »

قال :

« ألف من يشتري فى الصعيد ! وألف من يبيع ! »

صرت والله أرتجف من جميع أنحاء جسمى ، إلا وصوت أقدام
مقبلة نحو كهفنا من بعيد ، فانخلعت كل مفاصلى وقلت جاءك الموت
يا تارك الصلاة . لكن الولد اللعين قبض على كتفى قائلا :

« متخافش ! متخافش ! على كل حال خليها عندك لحين

رجوعى من السفر ! نسوف أقابل خطيبتى هذه المرة من بعيد
لبعيد » .

وإذا به يرفع الصندوق قليلا ويسربها تحته ويقوم ليفتح الباب
ويمضى مخلفا أياى كومة من الثلج السائح . سمعت فى الخلاء من
يؤدى التحية ويسلم على بعض الناس باسمهم ، وبقيت فى تكومى
أنتظر من القادم أن يدخل فيحملنى ويفتشنى ويضع الحديد فى
يدى . القادم كان أحد الضباط ومعه بعض الأمباشية : مساء الخير
يابو على .. مساء النور يا فندى .. طافى ولا مولع ؟ .. أولع فى
الحال يا فندى . وردت فى الروح فقمعت أشعلت الوابور صنعت لهم
شمايا وظللت أرتجف خلف النصبه الى أن حيونى وأنصرفوا .

مضى حوالى شهر يا بوى وألولد لا يرينى خلقته . فقلت والله

لاجرين هذه الشغلة . كنت نازلا لشراء التموين فاخفيت البندقية
 تحت ملابسى فى الحزام من الجنب وخرجت من البوابة دون تفتيش ،
 فاسرمت الخطى الى محطة « المصححة » . وقبل ذلك بحوالى جمعة
 كنت فى المدينة فخطفت رجلى الى المعلم « شندويلى » فى مصر القديمة
 وناطحته فى هذا الامر سألته ان كان يستطيع تصريف بندقية ؟ فقال :
 « هات بدل البندقية مائة ! هات ما تقدر عليه وخذ منى اربعين
 جنيها من كل واحدة » . سألته اين ستصرفها يامعلم شندويلى ؟
 فقال انه على علاقة طيبة بتجار السمك الكبار كلهم - وكلهم من
 « كوم سفحت » نواحينا - ومعارك الثار قائمة بين عائلاتهم لا تنتهى
 ولا يفرغ لها ضرب نار ! غير ان المعلمين الكبار هنا متفقين مع بعضهم
 اتفاق شرف ان يتم التقتيل فى البلد والا يتعرض احد لاحد هنا ،
 وما عليهم هنا الا توريد الاسلحة لذويهم فى البلد ! .
 كنت اثق فى المعلم « شندويلى » ، فتخذت طريقى اليه مباشرة ،
 سلمته البندقية فداراها فى عبه ، ثم انصرف وغاب حوالى نصف
 ساعة عاد بعدها قابضا على اربعين جنيها مطوية . ووضعها فى
 يدي فقلت : « واكراميتى ! » . نظر فى وجهى مترددا ونزع من
 جيبه جنيهين وضعهما فى يدي قائلا : « مش خساره فيك ! بس انت
 هات كتير وخلي بالك من نفسك كويس ! ! .
 ثم .. ثم انتى استحلطت اللعبة يا بوى .

الخامسة . حلاوة النار

كل بضعة أيام يجيء الولد « قرقوشة » منتفخ الصدر غليظ الجنبين ، فما أن يطمئن الى أننا وحدنا حتى يرفع الصندوق ويسحب من عبه فردة او فردتين وبعض علب ذخيرة يسربها تحت الصندوق ويجلس فوقه كأن شيئا لم يكن . احيانا لا يجدنى في الكهف فيفعل فعلته وينصرف ليعود ثانية يعطينى خبرا . أنا أيضا تعودت كلما غبت عن الكهف وعدت ارفع الصندوق تلقائيا وأمرر يدي تحته بحثا عن الامانة ، وفي العادة اجد خيرا كثيرا . تحلف اليمين يا بوى اننى حتى هذه اللحظة لم أعرف سر الولد « قرقوشة » العجيب . لقد حيرنى يا بوى ويعثر دماغى فى كل ناحية فما نجحت فى فهمه وما استطعت أن أعيد لم دماغى ثانية . اذا فرضنا يا خال أن هذا الولد يسعى لجمع النقود من وراء هذه الشغلة فما باله لا يطلب منى نقودا أبدا ؟! كلما عزمت عليه بالنقود أبى كل الإباء ! غير أنه كلما واثته فرصة السفر الى بلده استلف منى شيئا ، من خمسة جنيهات الى عشرة ، وفي العادة لا يردها ولا يقاتحنى فيها . كثيرا ما يسألنى عن حجربن من الحشيش او بوسنة أفيون فيجدنى ادخر له شيئا منه . أتراه ولد عبيط يا خال ؟ أم أنه يدبر لتوريطى فى عملية كبيرة ؟!

غصبا عنى أنهيت شغلى بهذا الأمر وركنته فى منطقة خفية من دماغى . صرت اتسبب الى الكسب ، وفى كل مرة أقول لنفسى : لتكن هذه آخر مرة أتوب بعدها . لكن التوبة ليست سهلة أبدا يا بوى ، دائما تمنعها ظروف حرجة عن الوصول الى صاحبها فى مواعيد مبكرة ، والانسان فى العادة يهرب من التوبة دون أن يدري . فى كل مرة خرجت فيها بفردة جديدة وتوبة جديدة افاجأ بأن سعر الفردة قد ارتفع . من تلقاء نفسه عشرة جنيهات دفعة واحدة . ثم اننى رأيت عجبا يا بوى ، صدق من قال أن من عاش يرى كثيرا ومن لف ودار يرى أكثر . كل معلم من الصعايدة ذوى العمائم الكبيرة

الذين صرت أوصل لهم البنادق يدا بيد أخبروني أن لهم أولادا كثيرين
مجندون في الجيش يمدونهم بكل أنواع الأسلحة والذخائر ويرزقون .
هم طبعاً يعرفونني بالكثائر من جلب السلاح لهم حتى لا أخاف .
زهزت لى الحياة يا بوى حتى صرت قادراً على تحقيق كل
مطلوب ومرغوب . الى أن تغلب الوعد والمكتوب ، وأن الاوان ليظهر
الصحيح من المعطوب ، والغالب من المغلوب ، والأصيل من المقلوب .
ولكن ربك - فى النهاية - رب قلوب .

كان معى فردتان وأربع علب للذخيرة تشبه علب السكر القوالب،
فوضعت هذه الأخيرة فى جعبة ورقية من جعب الفكهانية ووضعت
فوقها خلقات قديمة ، أما الفردتان فحشرتهما بالطول تحت تكة
السروال وداريتهما بالجلباب ومن فوقه ليست بالطو من بلاطى
الجيش وخرجت كالعادة من البوابة دون تفتيش ومضيت مبسوطة
أربعة وعشرين قيراطاً أغنى وأضرب بالموال ، حتى وصلت الى محطة
« المصححة » فوجدتها كالعادة خالية . كنت سائراً فوق الفلنكات بين
القضبان أبغى الوصول الى السلم الذى أصعد عليه الى الرصيف ،
اذ أننى ما قدرت على القفز فوق الرصيف لأن الفردتين حالتا دون
رفع ركبتي ، فتفطنت لذلك يا بوى ونويت الانتباه جيداً حتى
لا أكررها والا برز بوز البندقية مرفوعاً تحت الثياب . بقيت ماشياً
يا خال وقد قر فى ذهنى اننى خلقت هكذا مصلوب الحبل لا انعوج
ولا أنحنى . وكان سلم الرصيف قد لاح على بعد فركة كمب، ولاح
معه ثلاثة من البوليس الحربى من ذوى الكاب الاحمر ، وشخصية
الضابط واضحة عليهم من نظافة السراويل والسترات واتساقها
عليهم . ضربت صفحاً عنهم ، مالى بهم ؟ قدرت اننى ما رأيت شيئاً
يا بوى . حدثتنى نفسى بأنهم ربما يعرفوننى اذ اننى مشهور لدى
الكبير والصغير وعموم العسكر وحينئذ قد يستوقفوننى ويسلمون
على وهذا ليس من مصلحتى فى شيء فملعون أبوهم وأبو سلامهم
لست منه فى عوز .

تملكت سلم الرصيف وجعلت أصعد فى ثبات حتى تملك
الرصيف نفسه . وكانوا هم واقفين فى انتظار القطار فتمنت البصر
عنهم ناظراً نحو غرفة شباك التذاكر تحت السقف الجمول وأمامها
الأرائك الخشبية الخضراء التى ما أن رأيتها حتى طب قلبى حين

تذكرت أنني لا يجب أن اجلس أو أحاول الجلوس أمام أحد لأن طرفي
الفردتين سيبرزان فوق صدري لا محالة .

هي خطوة واحدة خطوتها يا بوى ، وإذا بواحد من الثلاثة الواقفين
يتبمنى مناديا : « خذ يا ولد » . فانحط على قلبي جبيل من الجرائيت
الأسود يا خال ، لكننى تجاهلته على اعتبار أنني لست ولدا . إذا
به قد صار واقفا أمامى واضعا كفه على كتفى ناظرا فى عينى قائلا :
« انت رايح فين ؟ » . قلت بكل ثبات : « رايح اركب القطار ! نازل
البلد باذن الله ! » . قال : « انت مجند ؟ » . قلت : « لا ! انا
حسن بتاع الشاى ! جوه المسكر ! تبع الحاج فرهود المكاول ! » .
زام قائلا : « وايه اللى معاك ده ؟ » . مددتها نحوه قائلا : « خلقتانى !
سوف اعطيها لامرأة تفلسها ! وسوف اشترى المونة ! » . لكن يده
— تستحق القطع — كانت أسرع من جوابى ، اذ أمسكت بالجمعة
فكانه قبض على قلبي والله يا خال . فتحتها وامسك علب اللخيرة
مطلقا من بين شفتيه صغيرا حادا مخيفا : « اضبط » ، ثم اشار
الى زميله فلحقا بنا وهم من الاندهاش والفرح فى حال . صار يعرض
عليهم العلب . الهمنى الله بكلام صرت أردده :
« والله والله يا سعادة البية انا لاقية فى السكه دلوقت ورايح
اسلمه لادارة المسكر ! »

زغدنى فى صدري :

« انت كذاب ! انت لسه قايل انك نازل البلد ! »

الهمنى الله من فضله وكرمه :

« يا سعادة البية انت حضرتك شايفنى على رصيف القطار

الى طالع على المسكر ! يعنى لازم اروح المسكر الاول اسلم الامانة
دى وارجع ! »

فما دخل عليه هذا الكلام طبعاً .. ضحك :

« انت تستغفلنا ! انت تركب من هنا كى تجد مقعدا خاليا !

وترجع مع القطار قبل هجمة العساكر على المقاعد ! » .

صار كل واحد منهم يسألنى سؤالاً ، كل سؤال يودى الى داهية

كبيرة . والذى طلع على لحظتها : « انا لقيته وكنت رايح اسلمه !

غير كده ما اعرفش ! » . من اعطاك من لا قالك من سواك من

سخطك ؟ . ما اعرف ما اعرف ما اعرف .

جاء القطار فدفعونى نحوه وقالوا اركب . قلت : حاضر ،

ورفعت قدمي لأصعد سلم القطار ، فارتفع فخلدي ، فبرزت ماسورة
البندقية تحت الثياب . فعبطوا في ، صاروا يتحسسون جسدي من
كل ناحية وهم يصيحون في استهوال : مهرب ! مهرب ! . لم يكن
في القطار غيرنا فحمدت الله على انحصار الفضيحة . عادوا بي الى
المسكر ظلوا يمشون بي بين البنايات وقتا طويلا ، وعند كل بناية
يتوقفون بي ويدخل واحد منهم فيقرب دقائق ويعود وفي اثره عشرات
من الاشباح الصفراء بزموس حمراء وزرقاء تتسلسل وتتبصص
وتمصص بالشفاه وتبصق في اتجاهي . لحظتها لم يكن في رأسي
غير أمي واخوتي والعلم شندويلي . ولم يرعيني في كل ذلك - صدقني
يا بوي - سوى البنت « حنة » ، وماذا ستقوله عني لو رأتني الآن
في هذه الوحلة الشنيعة والعياذ بالله . البصقات ترجمني في قفای
الى ان سهل الكريم فدخلنا في بناية فيها غرفتان متقابلتان ، دخلوا
بي الى الغرفة التي على اليمين فقلت بشرة خير ان جاء كتابي يميني
فلسوا - ينجيني الكريم باذن الله من هذا المنقلب . دفعوا بي فوق
بساط - وري مستطيل تحفه قصاري الزرع من الجانبين .
استوقفوني . فرفعت وجهي عن الارض فاذا انا امام مكتب يلعب
كالدبيب ، والقطيفة الخضراء تكسو سطحه ، وفوقه اوراق وتماثيل
وطفايات وعلب سجائر ، يجلس خلفه رجل عتل غليظ العنق كبير
الوجه كراس أبي الهول فيه الكثير من تقاطيعه ، ثقل الحاجبين
اسودهما بارزهما ، ومن تحتها عينان لا تكفان عن التحديق في
وجهي ، عريض الكتفين بارز الصدر كبوابة مسجد . كان يتكلم في
التليفون وكلما سمع كلمة بطلقت عيناه في بغيظ ، فلما وضع السماعة
واعتمد ظهره على وجهه أنه قد عرف كل شيء ولم يعد في حاجة
للسؤال عن أمري . خرج صوته كالزئير تحلف اليمين يا بوي ان
جنيته حيوانات بحالها في صوته المخيف : « ايه حكايته بالظبط
الولد ده ؟! » . حكوا له ما حدث بالضبط ، وبالملي . خفت أن يظن
هذا الدرفيل ان سكوتي اعتراف مني بالجريمة ، فبكيت صائحا :
« يا سمادة البيه ! ربنا يخليك ويستر عرضك ! أنا مظلوم » .
ما كنت أظن ان الدرفيل الجبلي يمكن ان يتسم مثل خلق الله
يا بوي ، أو تبدو عليه مثل هذه الطيبة التي كدت والله ان أصدقها
وأكل الطعم الذي فيها ، قال في صوت لا أدري من أين وافته كل
هذه الحنية ..

- « معلش ! معلش ! اذا كنت مظلوما تاخذنا حقا اربعة وعشرين قيراطا ! على كل حال سيبك من الناس دول »
صفق بيديه نحو الواقفين يهشهم ، قادوا له التحية العسكرية واستداروا منصرفين ، وبقيت وحدى أمام هذا الرجل التخين ، الذى مد بوزه نحوى فى ود كبير ، فدهمنى صوت كالريح العاتية : « خد سيجاره » ، وأشعلها لى ، وصاح : « هات له واحد شاي » .
وقدم نحوى فلوسا كانت على مكتبه قائلا : « مش محتاج لفلوس ؟ اطلب ما يهكمش ! ده احنا بلديات والواجب فوق كل اعتبار ! » .
انبرت اقول : « تشكر يا سعادة البيه تشكر ! » وجذبت نفسا ، وحضر الشاي فسمعت صوتا يقول : « اجلس » ، فانتبهت ناظرا فى الرجل فاذا هو يقول بالغم الملبان : « اجلس » ، فترددت كثيرا حتى سمعت الامر للمرة الثالثة فجلست على طرف الكرسى خشية ان يتلوث جلده من وساخة ثوبى وخشية ان يلتصق ثوبى بالقروح الملتبحة النزازة فى ظهري من اثر الضرب بالكرباج والشلايل والشوم ، وتاوهت يا خال من شدة الوجع وانهمرت دموعى يا خال تحلف اليمين كانها المطر ، والرجل يطيب خاطرى ويقول : « اشرب الشاي ! اشرب الشاي ! قال متخافش ! اللى ضربك حياخسد عقابه ! » .
وكنت منكسا وجهى فى الأرض لكننى كنت الملح الناب الأزرق يفع سما فى صوته يؤلنى يقول لى لا تنخدع يا حسن واياك اياك . شربت كم شغطة من الشاي وكم نفس من السيجارة ومسحت دموعى بكم جلبابى ، فاشعل هو الآخر سيجارة وقال لى :
- « ايه بقى الحكاية يا بو على ؟ قول كل حاجه بكل صراحة ! انت شخصا ممليكش اى مسئولية بس الجلعنه بقى تنورنا بالحقيقة ! عشان تبقي عارفين ! انت خايف الخوف ده كله ليه ! »
قلت :

- « اصل الحكاية يا سعادة البيه اننى كنت ماشيا قاصدا محطة الصحة لاركب منها الى المدينة كى اشترى التموين وأعود ! فصادفتنى هذه البلية مرمية فى الأرض وأنا رجل غشيم ! لم أعلم ان هذه صناديق ذخيرة لأنها مغلقة بالشمع ! وبعدها بخطوات وجدت البندقيتين مرميتين على الأرض ويظهر ان احدا كان سارقها ورمى بها ! قلت فلاسلها لادارة المعسكر ! ولهذا طلعت على الرصيف الذى فى طريق المعسكر ! فشاء سوء بختى ان يصادقنى البكوات على

الرصيف ولم ينتظروا سماع قولى قفسونى وانها لوا على بالضرب
وجرونى الى هنا بالعافية وأنا ما أستطيع أن أفتح فمى بكلمة ! »
أشعل الرجل التخين غليوناً من الغلايين الكثيرة المتكومة أمامه ،
ولاح أنه لم يرض بالاستماع لكلمة واحدة مما قلت فكاننى ما تكلمت .
مال نحوى وهبت رياح صوته تحاصرني من كل مكان :

« شف يا ولد ! اذا قلت لى من الذى أعطاك هذه الاشياء
فسوف اتركك ! تعود فى الحال الى بلدك واهلك ! سنكتفى بحرمانك
من الشغل فى المعسكر ! فاسمع كلامى أنا ولا يهمك من أى أحد آخر
غيرى ! فما أقوله لك أنا هو الذى ينفذ ! »
قلت بصوتى الغرقان فى البكاء :

« والله والله يا سعادة البية يمين أحاسب عليه فى نار جهنم
اننى اتكلم الصراحة ولا أعرف غير ما قلت ! »
فأشعل الغليون ثانية يا خال ، وأحمر وجهه ، وهذر :
« اذا قلت لى من أعطاك هذه الاشياء لن تكون متهماً بل
شاهداً ! أفهمت ؟ »
قلت :

« لا اله الا الله محمد رسول الله ! وحق جلال البارئ فى
سماء اننى كنت ماشياً قاصداً المحطة فالتقيت هذه البلية فذهبت
لاسلمها فالتقانى ألبكوات فاعدمونى العافية وجاءوا بى الى هنا ! »
أشعل غليونه مرة ثالثة يا خال ، نفت الدخان قال كاننى لم
اتكلم من الأساس :
« اذا قلت لى من أعطاك هذه الاشياء فسوف اتركك فى
الحال ! »

بحلقت فيه بياس ، قلت :
« يعنى اذا قلت لك عليه تتركنى حقاً ؟ »
فاعتدل يا خال وتضاعف حجمه وصار وجهه كسلة البيض ولع
الناب الأزرق فى بياض عينيه المصفر ، وصاح :
« طبعاً ! »

فاشرت الى المعسكرى الواقف ببابه وقلت :
« هذا المعسكرى هو الذى أعطاه لى ! »
انتفض الولم المعسكرى صارخاً يا ولداه وكاد يقع من طوله
وهتف فى فزع :

« استغفر الله ! اعوذ بالله ! اعوذ بالله ! »
حينئذ - وبكل هدوء يا خال - ضفط الرجل التخين على
زر بجواره فدخل العسكري السابق فابتدره قائلا :
« العروسة ! »

فاختفى العسكري في الحال كأنه تلقى أمرا بالفرح يا بوى ، وعاد
بعد برهة كأنه الفرح نفسه صحبة اثنان يحملان العروسة . تقدم
العسكري منى وطرح العروسة على وشرع يكتفنى فيها ويتعمد أن
يجدبنى نحو مكان بعيد عن المكتب ، ثم اذا به يعطى ظهره للرجل
التخين ويهمس في أذنى :

« اياك أن تعترف على احد حتى لو قطعوا جثتك للكلاب !
اننا في حالة حرب ولا بد أن يضربوكما بالنار انت ومن تعترف
عليه ! »

شكرته بنظرة عرفان ، لست أملك غيرها . انتهى من مهمة
تكتيفى وتركنى للآخر .. وعينك ما تشوف الا النور يا بوى ..
فين يوجهك يا حسن يا ولد ابو ضب ، الكرباج طويل اللسان
يا بوى وفيه نار الله الموقدة يلتف حول ضلوعى يمزقها . يتعب
الضارب وتهد قواه فيتوقف متشربا أنفاسه فيبدأ الوجة الحقيقى
ينتبه اليه جسدى ، ويبدأ صوت الرجل التخين :
« اذا قلت لى من الذى اعطاك هذه الاشياء ترحم نفسك
وتنعتق من الضرب ! »

فأرد عليه بنفس الكلام حتى تعبوا من ضربى يا بوى ولم يبق
في جثتى جلد يتلقى لسع الكرباج فتزاحمت عليه السنة اللهب الحمراء
فوق بعضها كالجبل والهضاب فوق جسدى . وسلم الرجل التخين
بانه لا فائدة ترجى من ورائى ، فكتب كلاما كثيرا على ورق كثير
وشوح به نحوى . فاندفع بضع رجال أشداء يلبسون الأفروات
فدفعونى مقيدا ، القوا بى في عربة البوكس فوردا ، التى مضت
تنهب الطريق نهبا حتى وصلت الى مصر الجديدة وتوقفت عند
منزل فخيم قيل لى انه سراى النيابة . دخلناه ، مشينا فى طرقات
وصعدنا سلمات ومررنا على غرف ، دخلنا غرفة فيها أفندى مهيب
صغير الدماغ مفلوق الشعر فى الوسط من رأسه كما الممثل « عماد
حمدي » ولد الحلويات ذاك الذى يطلع فى الافلام كان شبهه الخالق
الناطق تقول هو بعينه . ظهر على وجهه انه مرتاح من منظرى

يا بوى ، وانه - تقول - مستاء لما حل بى وبآدميتى . فلما دفعونى
أمامه بعنف كاد يكفئنى على وجهى صرخ فيهم : « ما هذا ؟ » .
صحت باكيا : « أنا اطلب الطبيب الشرعى يا سعادة البيه انا واقع
فى عرضك يا سعادة البيه لقد شرحونى ولسوف اموت بعد هنيهة
قليلة » . ورفعت ثيابى فعرّيت جسدى وصرت ألف حول نفسى
أمامه وكان القميص يا بوى قد التصق بجروح الجلد فلما رفعته
نزع سلخات من جروحي المتقيحة فصار منظر جسدى عجبا والله
يا بوى . ولما واجهت الرجل وجدته مبعدا رأسه الى الناحية الأخرى
لاويا ملامحه من التالم مداريا عينيه بكفيه . قادر ربنا ان يخرسنى
لو كنت كاذبا ، كانت هذه أول مرة أشعر فيها أن الحكومة يمكن
ان يكون لها قلب وهذا ما لم يكن يدور لى بخلد على الاطلاق
يا بوى العم .

بسرعة شديدة تناول الرجل الورق وأشر عليه قائلا كلاما فهمت
منه أنه لا يقبل أن يتسلمنى . فنظروا نحوه بغيظ ونحوى بغيظ
أشد ثم دفعونى زغدا وتلطيشا تحت الحزام ، عادوا بى الى العربية ،
انطلقوا عائدين الى سراية أخرى فى مصر الجديدة ، فلتقانى شاب
فى مثل عمرى وتفحصنى جيدا وعلى وجهه كثير من الزعل الحقيقى ،
ثم أمر باحالتى الى المستشفى العام . واه وا .. ا .. يا بوى .
مكثت فى المستشفى العام اربعين يوما مدة استمرار الحبس . ومن
المستشفى رحلونى الى السجن رهن الجلسة التى سأمثل فيها أمام
المحكمة بعد بضعة شهور .

أيام الخلق ستنة الأولة - مدرسة الظلام المستنير !

من لم يدخل السجن لم يعرف من الحياة كلها الا نصفها يا بوى صدقنى والله ، ولم يعرف من طبيعة الخلق الا ربعها بالكثير . أنت يا بوى عدم المؤاخذه لا تعرف شيئا وان كنت لفافا ودوارا وما أدراك . لكن تأكد يا بوى من شيء هام جدا : اذا لا قدر الله دخلت السجن لسبب من الأسباب فانت داخل الى المدرسة الحقيقية التى ربنا ما يكتبها عليك ، تفور بكل ما ينتج عنها من معرفة . لكن اذا كان ذلك قدرا مقدورا عليك ، ففتح عينيك جيدا والا ضعت فى الاقدام ، تفتح عينيك تصبح أستاذًا كبيرا فى الحياة ، وتخلص من الجنون ، تسوق الفباوة ، تصبح مسحة للأقدام ..

أيام كانت مريرة والله يا خال ومليئة بالسواد والهيم المقيم . كل المساجين تحبهم زيارات الا العبد لله كالمقطوع من شجرة . كل المساجين لديهم داخل الزنازين أشياء تخصهم الا أنا ليس يخصنى شيء ولست أحتكم على شيء ، فالتقود التى كانت معى صادرها عساكر الشرطة من أول علقه ولم أجرؤ على أن أفوه بكلمة . مرادى أن اتركسب فى السجن مثلما يفعلون يا بوى ، فالسجن سوق أشد من أسواق الحرية ، بائع الحشيش المسجون شغلته فى السجن بيع الحشيش أيضا ، تاجر العملة كذلك ، مزيفوها ، لاعبو الثلاث ورفقات ، كل صاحب مهنة قبل الحبسة يشتغل فى الحبس شغلته . التموين يدخل السجن برضاء العسكر وفوق انوفهم أحيانا ومن وراء مؤخراتهم أكثر الاحايين لكنهم جميعا مرزقون مسعدون ومع ذلك هم يشددون الحراسة على الآخر . عسكر من ويشاع من يابو العم !! أياك تظن أن فى بلادنا بالذات شيئا يمكن أن يمنعه الحراس ، أو عملا يمكن أن يخلصه المستوظفون بدون أن تعطيلهم عن يد وانت صاغر ، وطالما أن جميع القائمين على الشغل فى بلادنا يمدون الأيدي حتى

وان لم يخرجوها من جيوبهم فان ما تسمونه القانون والضمير والعدل مجرد كلام في كلام يابوى . خذ هذا الكلام من اخيك حسن ولد ابى ضب وقلبه في دماغك وانت تعرف انه حقيقى ، اسأل نفسك هل استطعت طول عمرك ان تقضى أى مصلحة بدون ان تبرطل عليها وترشو ؟ .. فماذا تفعل لو كنت مثلى سجينا وليس في حوزتك اى شيء ترشو به السجن . معلوم السجن العتاة من فتوات المجرمين والنصابين وتجار المخدرات والقوادين اولئك هم حكام السجن يا بوى صدقنى والجميع خدعهم بالاجر ، كل ما يريدون فعله يفعلونه والقرش هو الذى يتكلم ، وأنا نفسى محتاج للقرش كى أبر به جسدى المنهوك فماذا افعل يا بوى ؟ .

قلت : لا عليك يا ولد ان اشتغلت خادما لهؤلاء الحكام الفتوات ، اتبع الحاكم الفعلى يا بوى ان كنت ضعيفا مثلى في موقف ضعف ، ووالله كانت احلى فكرة : الفتوة جالس في مكانه وأنا اغسل له ثيابه اطيخ انظف الزنزانة اسقيه الحشيش اقضى له الطلبات ، وما المانع يا خال ، اذا كان من هم افضل منى ممن علمهم أهلهم في كبريات المدارس وعالى المعاهد يخدمونهم بأموال كبيرة فلا ضير على ان خدمتهم باكلى واصبح في حمايتهم . وهكذا ولقت على المعلم « طريشه » ..

تاجر حشيش كبير قوى يابوى ، يخرج من الحبس الاحتياطى ليعود اليه كل بضع سنوات . تجارته شفالة في حى الباطنية من وراء الجامع الأزهر ، كالعادة لم تتعطل ساعة واحدة ، تموين شربه يجيء اليه كل يوم في الحبس في عامود الاكل الساخن نفتحه يا بوى فنجد المحمر والممر والخضار المطبوخ والأرز المغفلل والكنافة والمهلبية ، كل يوم والله يا بوى تحلف اليمين كأنه في المصيف لا ينقصه الا ان يجيء البحر تحت قدميه مسافرا من رأس البر ، في أيام الزيارات الرسمية تجيء السلة ملانة بما لذ وطاب من فواكه وسجائر وحشيش وافيون ، كل ما تبحث عنه خارج الحبس فلا تجده باى ثمن تجده في الحبس باقل ثمن . هذا بالطبع يتكلف تكلفة كبيرة يابوى تصل الى مئات الجنيهات كل يوم والحدق يقهم ..

قل ان هذا الرجل المجدع اعجبني ، احبته والله حبى لكل رجل يكسر انف الحكومة ويدلها باى شكل ، انه يشفى غليلي وينتقم لى يابوى . قلت : لابد ان اكيفه على الآخر فالحشيش لا يسلى ولا

يكيف . جئت بكوز صفيح كان في الاصل علبه عصير وجئت بلبابة العيش الساخن وهي نصف ناضجة فعمجنتها ثانية مضيفا اليها قليلا من التراب صنعت منها خمس حجارة من حجارة الجوزة وبوصتين قصيرتين تركتها حتى نشفت تصلبت صارت لو خبطها في جبهة رجل تبطحه . وكنت انتزع نتفا من قطن المراتب وحشيات الكراسي اصنع منها اشربة مبرومة اغمسها في الجاز ثم اخفيها في مكان خفى من الزنزانة مع غيرها من المنوعات الصغيرة الحجم ، اما المنوعات الخطرة كالحشيش والافيون والتقود الكبيرة التي يبيع بها المعلم حشيشه في السجن فكنت انا مخزنها ، ابرم ورق التقود مع الاشياء في خوابير مدكوكه في بعضها جيدا وملفوفة ببلاستيك الاكياس الناعم الابلس حتى اذا ما لبستها في مؤخرتي انسابت بسهولة الى الداخل وان حزقتها ترفلعت خارجة بكل رقة ، كنت البس أكثر من خابور ، ثلاث او اربع ادوار فوق بعضها واكون عارفا بان الحشيش في الخابور الاخير ليسهل افلاته كلما احتجنا لتعمير الدماغ ، اذ نفرك السجائر او الدخان المعسل فوق حجر الجوزة ونشعل الشريط ونمرره فوق الدخان المزوج بالحشيش ونشفت بمزاج كأننا نشرب على احسن جوزة لدرجة ان المعلم « طريشه » نوى ان يأخذ هذه العدة معه عند خروجه من الحبس ..

بهذه الطريقة وحدها يا بوى استطعت ان امكث في الحبس الاحتياطي كل هذه الشهور ، وانا كل بضعة شهور امثل امام قضاة المحكمة فاظل في القفص الحديد من باكورة الصباح حتى آخر الجلسة اذ يؤشر القاضي على اوراقى قائلا : يعود كما كان .. فاعود كما كنت يا بوى ولا احد يسأل في صحة سلامتى والمعلم « طريشه » يصبرنى قائلا ان الله معك ، ويعلمنى انه حين خروجه من الحبس وخروجه باذن الله سوف يأخذنى لاشتغل عنده نفس هذه الشغلة التى اشتغلها له في الحبس . الى ان جاءت احدى الجلسات ذات يوم فمثلت امام القاضي حتى انتهت الجلسة كالخائفين المدعورين من اهل التقاضى . واذا بى امام ثلاثة من الافندية كل منهم يكفى لتخويف بلد بحالها وكل منهم راح ينظر في عينى يقلبنى من فوق لتحت . قال الجالس في وسطهم وقد ظهرت عليه الطيبة : « يا ولد انت » . قلت : « نعم يا سعادة البيه » . قال : « انت لقيت هذا السلاح وكنت رايح

تسلمه مش كده ! » . صحت على الفور قائلا : « مطبوط يا سعادة البيه ! انا لقيت هذا السلاح وكنت رايح اسلمه ! » . فظهر الانتصار على وجهه وتراجع منجمصا للحائط صائحا في الكاتب الجالس بجواره : « اكتب : لقيت السلاح - وكنت - رايح اسلمه ! » ، وضغط على كلمة كنت ضغطا طويلا مطوفا القى به الرعب في قلبى فلم استطع فتح فمى بكلمة . واذا به يطوى اوراقه قائلا : « يعود كما كان » . . . فعدت كما كنت يابوى وقد ايقنت اننى مكتوب لى لقمة عيش طويلة الامد فى الحبس ، والمكتوب ما عنه مهروب . يوم ذاك جاء المحاييس يزورون المعلم « طريشه » فى زمراته فتكلموا جميعا فى موضوعى ، انهم فقهاء فى القانون يابوى احسن من القضاة والمحامين يابوى بل هم اذكى من واضع القانون نفسه . ليتهم ما تكلموا يابوى ، لقد كسحونى ، كسروا مقاديفى كلها ، افنوا كلمهم ان عقابى فى هذه القضية لن يقل عن خمس سنوات ، نعم يابوى خمس سنوات هى براءتى فى هذه القضية كما يقولون اما حكمها الحقيقى فالعياذ بالله منه .

الثانية - زائر الفرج

لكنها الدنيا يا بوى احوالها عجب في عجب !..
في ذات ليلة كنا جالسين كالعادة نشوف مزاج المعلم ، الا وصوت
الاقدام يقترب من الزنانة ، فانتبهنا ، فما كدنا نشعر بالفتح
يوضع في قفل الباب حتى دارينا كل شيء بكل سرعة وتمطرنا على
الارض كان شيئا لم يكن . ما ان انفتح الباب حتى اندفع نحونا
شاب اشقر الشعر ابيض الوجه مستطيله طويل القامة يبدو انه
ابن ناس وابن مدارس ومن الواضح انه لم يتعود على الاهانة . انفلق
باب الزنانة في الحال فبقى الشاب واقفا في منتصف الزنانة كي
تعود عيناه على محتوياتها ، ثم استدار نحونا متطوحا كالسكران
المجهد قائلا : « مساء الخير » ، ثم ارتدى على الارض متربعا
بجوارنا ، فكشفنا عن العدة من جديد وشرعنا نشوف مزاجنا بعد
هذه الخضة الجامدة . وكنت مترددا في الكشف عن العدة خوفا من
ان يكون ضيفنا هذا من الباحث المدسوسين علينا وعلى انا بالذات ،
لكن المعلم « طريشة » قرأ في وجه الشاب انه متهم بالفعل في قضية
وليس يمثل دورا ، ثم انه راح يتابعنا في انهيار شديد ولم يمتنع
عن الشرب حين ناولناه البوصة بل امسكها بحرفنة واشتياق ..
حجر فالثاني فالثالث فالعاشر انتهى علينا الشاب حكايته من
طقطق لسلامو عليكم . اسمه « وائل عثمان » وشغلته وبا للعجب
- امسك راسك يا بوى - وكيل نيابة ، وتهمة تزوير في اوراق
رسمية خاصة بجوازات السفر وهو في الحقيقة مظلوم فيها ولسوف
تنكشف براءته بسرعة . هو بالفعل طيب وبريء . هكذا قال المعلم
« طريشة » من اول ما بدأ الشاب يحكى ، والمعلم « طريشة »
لا يخطئ النظر ابدا ، انه يعرف ابن الناس البريء من المجرم من كلامه
سلوكه طريقة جلوسه نومه اكله شربه . كان « وائل عثمان » يظل
طول الليل يفكر في قضيته وفي القانون والسيجارة الاجنبية - اليس
ابن ناس ؟ - مصهلة بين اصبعيه على الدوام . الزيارات تجيء

له بشكل متواصل فيها أطايب الاكل يفردہ امامنا كله . لقد احبه المعلم « طريشة » كما احبته وصرنا مشغولين بقضيته اكثر من شغلنا بقضيتنا . لكنه ذات ليلة شرب معنا حجارة كثيرة وبدأت عليه علامات الانبساط فراح يستمع الى حكايتي بشغف ، كاملة هذه المرة بعد أن كان يستمع اليها نتفا نتفا صغيرة . فلما انتهت كلامي ضحك من كثرة السرور وخبطني بكفه على كتفي قائلا والاشراق كله في وجهه : « أنت قضيتك سهلة وبراءة مائة في المائة » . قلت أنا والمعلم « طريشة » في نفس واحد : « كيف يا راجل ؟ » . قال : « وانت في المعسكر ! هل كانوا يفتشونك في الدخول وفي الخروج ؟ » . قلت : « لا بابوى ! انا لم يكونوا يفتشونى لانهم عرفونى ووثقوا فى » . قال : « أنت لا تقل هذا ! اذ ان المفروض انهم لابد أن يفتشوك وانت خارج من المعسكر ! » . قلت فرحا : « نعم يا خال ! » . قال مشوحا بيده : « خلاص ! انتهت القضية » . قلت : « كيف يا رجل ؟ » قال : « انهم فتشوك عند خروجك من البوابة ! وهذا معناه انك لم تسرق سلاحا من المعسكر ! اذ لو انك سرقته لضبطوه فى البوابة عند فتيشك ! ومعنى هذا انك لقيت هذا السلاح فى الطريق ! » .

تحلف اليمين بابوى ان هذه الكلمة نورت فى دماغى مثل الكلوب فى الفرح قلت : « والله انها فكرة كبيرة يا بوى ! من اين جئت بها يا ابن الناس الطيبين ! » . قال باسما : « تراك تستطيع ان تشرح هذا للقاضى ؟ » . قلت مرتعشا بالفرحة المنملة : « ربنا معى » . قال : « معك محام ؟ » . قلت : « لا والله يا بو العلم ! محامى هو الله ! » . قال كأنه يسرح بخيالى : « لا عليك ! ان المحكمة ستنتدب لك محام يدافع عنك بالمجان ! وسأكتب لك مذكرة قانونية تعطيكها للمحامى اول ما تراه ! » . قلت وانا فى غاية العجب : « الله يكرمك ويوقف لك اولاد الحلال ! الله يفتحها فى وجهك دنيا وآخرة ! الله لا يوقعك فى ضيقة ويفرج عنك ما انت فيه ! » . فصار يربت على ظهرى فى حنان وصرت أبكى فى غزارة ..

« وائل عثمان » ابن أصل صحيح يا بوى اللهم زد وبارك . ظل اسبوعا بحاله يطلب ورقا ابيضاً واقلاما وكتباً بعينها يحدد لزواره أماكنها فى دواليب بيته ، واسبوعا بحاله يكتب فى هذه المذكرة كل يوم يكتب صفحة ، الى ان حان موعد الجلسة فأخذت

هذه الأوراق مئة الى المحكمة ، ووقفت في القفص الحديدى الى ان
 نودى اسمى فصحت كالوجوع قائلا : « انا اطلب المحامى الذى
 تندبه المحكمة للدفاع عنى من فضلها وكرمها على ! » - وكان « وائل »
 قد لقننى هذه الصيحة - فانسلخ عن مقاعد المحامين رجل عجوز تبدو
 الطيبة على وجهه ، وتقدم منى قائلا انه محامى ، فدفعت اليه
 بالورقات فذهب يقرأ فيها طالبا ارجاء القضية حتى آخر الجلسة ،
 فاستجابت له المحكمة ، فجلس منخرطا في القراءة باهتمام وتقرفت
 داخل القفص اتابعه بقلب واجف وهو يقلب الصفحات واحدة بعد
 أخرى حتى اتمها ورفع وجهه عنها وبدأ متحمسا للكلام . ونودى
 اسمى من جديد فانبرى المحامى يدافع عنى بكلام من دماغه يشبه
 الكلام الذى يقوله « وائل » بالضبط وقد اكرمه الله من اجلى
 فانطلق لسانه فى كل واد وقال كلاما كبيرا يابوى رقص له قلبى من
 الطرب ، شرح للمحكمة حالى وقلبى وطبيبتى واستحالة أن اكون
 ذلك المجرم الذى يترادى للمحكمة الموقرة .. وفى النهاية يابوى لم
 اصدق نفسى وانا اسمع صوت الحكم على : سنة مع الشغل ! لم
 اصدق الا بعد أن بارك لى الحاجب والمحامى قرفت ذراعى صائحا :
 يحيا العدل ! .

الثالثة - فولة فى قلب غولسة

حاجة تهوس بابوى ، الدنيا امورها عجيبة ولها فى كل يوم تصانيف من تصارييف لا تخطر للبني آدم على بال . انا مثلا بابوى خرجت من الحبس يا مولاي كما خلقتنى يارب ترزقنى ، لا قرش ولا عشرة ، الثوب الكشمير والاخر البوبلين والقميص والسروال تسلمتها من عهدة الحبس فلبستها ومضيت فى شوارع مصر المحروسة اتنسم عبير الحرية اتعنى أن آتآن فى عشرات الاماكن فى وقت واحد وارى عشرات الناس فى لحظة واحدة . كنت جائعا فشبعمت وتعبا فاسترحمت ومريضا فشفيت كل ذلك من هواء الشارع فحسب ، اى والله يا بوى ، وبالإمارة كان يخيل الى ان كل من يلقانى يجب ان يقف ليسلم على اسلم عليه فى اشتياق ولست أفهم من أين جاونى أن كل اهل المدينة كانوا على علم بمجيئى وانهم تبعوا لذلك لايد أن يفاعاوا من رؤيتى فى الخلاء طليقا ، ان هو الا احساس عجيب قاتله الله يا بوى ، احساس باننى قد صرت مبصوما ببصمة السجن حتى وان صرت حرا ..

غير اننى ما لبثت حتى جمعت وصرت هفتانا اطلوح فى مشيتى كخيال الماتة المخلوع من الارض تلعب به الرياح مشتهاها . شبعمت من اللف فى شوارع المدينة وحواريها التى كانت اوحشتنى وفى النهاية صرت اتعنى رقعة من الارض اتوسد فيها ذراعى واسلم روحي للكريم الذى لا يغفل ولا ينام ، حيث لا يصحبنى بالامر سجان ولا يتأمر على جاويش او خفير او ديدبان . لكن اين هذه الرقعة بابوى ؟ هذا حلم كبير جدا بابوى ، فى هذا البلد لا يتحقق مثل هذا الحلم ، انه لا يتحقق الا فوق مصطبة دارنا فى بلدتنا حيث أمى وعين الله ساهرة ..

الرجل تدب مطروح ما تحب هذا مثل من الأمثال شهدت به أرجل البشر على مدى الأزمان يا خال . الذين قبلنا قالوا وقولهم حق مدون فى صحائف الايام يا بوى . انا مثلا ، ما الذى عاد بى الى

حوارى مصر القديمة رغم اننى لاقيت فيها الهوان وشربت منها كاسات الدل والمرآر . المؤكد يا بوى اننى لى فيها ضلع كبير هو المعلم « شندويلى » احب ان اراه ويرانى ، ولى فيها ايام حلوة وليالى انس وان كانت قليلة فانها لا تغيب عن البال أبدا .. امر عجيب والله يا خال ، لقد كنت مقبلا على مصر القديمة وكلى سرور وابتهاج كائننى فى سكة المرواج الى بلدى واهلى ، ففى اول النهار كنت اسير بلا هدف اترك الحوارى ترفعنى الى الشوارع والشوارع تدلبنى فى الميادين والميادين تدهورنى وقتسا لتسلكنى بعده فى اتجاه غير مقصود . اما مصر القديمة فاننى قصدتها قصدا دون ان ادرى وترسمت طريقها حتى اشرفت عليها قبيل العصر بقليل .. فمالى كلما اقتربت منها ودخلت فى عمق حوارها ينقبض قلبى كان يد مارد شيطان تفغصه ..

وا .. ا .. ه يا بوى ، انا اقول لك السبب ولكن ، لا داعى ، فضك من هذا السبب قريبا اكون كاذبا فيه ، فليس يعلم بسر القلوب غيره سبحانه وتعالى ، انما الذى انا متأكد منه يا خال ان حوارى مصر القديمة وشوارعها راحت تلقى فى وجهى بالليالى السوداء الكالحة جماعات وفرادى كلما أوغلت فى دروبها طلعت على سود الليالى تفح فى شحوب المساء تذكرنى بنفسها يا بوى تتعرف على ، تكاد الاحجار المرمية على نواصى الحارات تهب واقفة وتقبل نحوى مسلمة ومعانقة بالأحضان تقول لى ايش حالك يا حسن ليس على وجهى سوى ابتسامة اشعر أنها جفت من طول ما أوامات لليالى السود الكالحة مذكرا اياها فى رقة باننى هو ، نعم انا هو ، ذلك الذى احبك بمأسيك وبلاويك وقضائك وشقاواتك المعبدة . المصيبة يا خال ان ليلة من كل هذه الليالى التى تعرفت عليها وتعرفت على بين حوارى مصر القديمة وشوارعها لم تتكرم وتدعونى للبقاء فى حجرها حتى الصباح يا بوى ، لم ينطق صوت واحد يقول تفضل يا حسن على العشاء أو حتى على شرب الشاي أو حتى تفضل ولو على سبيل برو العتب .. رضينا بالقلب ولكن القلب لا يرضى !؟ . قلت والله لا أرضى بذل أبدا ، ومضيت لا ألوى على شيء حتى خلفت مصر القديمة وراء ظهري وصرت فى أسطبل عنتر . تذكرت فجأة اننى ما مررت على المعلم « شندويلى » وكان الواجب ان امر

يا بوى فالمعلم « شندويلي » كله واجب ، وهو القلب الحنون الذي كنت أضمن جنده غدوة كبيرة ونومة خلية البال هنية لكنه المسخ الصعدي يابوي ، تريس تريس شديدة ولم يشأ أن أعود كل الطريق الذي مشيته . يخل الى يابوي أنني صعبت على نفسي أن برأتني وقشف السجن على وجهي وكل جسدي وعلى لساني . ثم طرا الخاطر الكبير على دماغى يابوي قائلا : وما الداعي ياأبا على أن يعرف المعلم « شندويلي » أنك كنت في السجن أصلا ، لو علم ربما يستقلك في نظره ولا يعتمد عليك في سر ، وقد يتسرب الخبر منه فيعلم به ولد بلدي وتكون الفضيحة في بلدتنا . قلت : ياما أنت كريم يارب ، ومضيت أخترق شوارع اسطبل عنتر ..

في اسطبل عنتر مقهى صغير خفيف الدم يقع على ناصية صغيرة لكنها بارزة ، صاحبها يرص كراسيه القش المفصصة ودككه الخشبية الملفقة في أرض الشارع الذي لا تسير فيه المناقلات ، يجلس في هذه المقهى خلق كثيرون من باعة السمك السريعة وأنفار شغل الفاعل والشياطين والتباعمين . لى فيها ولد صديق يمسح الأحذية في الشوارع بصندوق صغير ويتخذ من هذه المقهى موطنًا ليليا حيث يلعب القمار مع شلة من أصبع خلق الله . مثلى اسمه « حسن » ، غير أن أهله يدلعونه فيطلقون عليه أسم « ميمى » . دلع الفقارة يقع المראה كما يقول المثل والأسم غير راكب عليه لكنه يركب عليه فقط في قهوة « بعره » هذه وفي المشمش التي يسكن مع أهله في واحدة منها على بر الجزيرة نحو جزيرة الذهب ، حيث كل سكانها مغفون صدئي الوجوه وبينهم « حسن هذا أبيض الوجه على جبينه خصلة شعر كأولاد الدوات . له ثلاثة أخوة صغار يشتغلون مثله في مسح الأحذية ولا يرجعون الدار إلا لحما . واني لأحب هذا الولد لان فيه لطشة الجدنة بفعل أشياء يعجز من فعلها رجال بشوارب غليظة وحافظات تقود منتفخة ، لا يهمه أى شيء . هو الآخر يحبني لله في لله وكان يتعارك من أجلى مثلما أعمارك من أجله اذا وجد أحدا في الآخر في زنتة .

الولد نط من الفرح بمجرد أن رأتني والله يابوي وشالتي عن الأرض : « أزيك يا حسن أهلا وسهلا عاش من شافك » . جاء الشاى

فشربناه وحدنا على كوة الرصيف المقابل وقام « ميمى » فاستلف
علبة سجائر صغيرة وضعت بيننا . قال : « أنت قادم من البلد ؟ » .
قلت : « انا قادم من السجن مباشرة الى هنا ! » . نهض واقفا فى
الحال يقول : « طب يلا بينا » ، ثم سحبنى الى كورنيش النيل
بعد ميناء أثر النبى ، فعبرنا النهر بالمعدية ومضينا على الشاطئ
قليلا حتى وصلنا الى عشة بين حوالى مائة عشة مبنية بالطين والبوص
على مساحات عريضة بين عشب وأشجار كثيرة .

الرابعة - عيان يضاجع ميتا

في وسط دارهم البرحة حكيت له حكاية السجن من طقطق لسلامو عليكم . احتفت بى أمه العجوز لما علمت بالحكاية وذبحت لنا بطلة كبيرة سلقتهما في الحال مع حلة أرز ومرق . أمه كانت طيبة وتشبه أمى لحد كبير يابوى ، قالت وهى تضع الاكل امامنا بحب : « اقلع هدموك اغسلها لك وازيل عنها رائحة الايام المشؤمة » . خلعت ثيابى وخلع ابنها ثيابه ، وبقينا في السراويل فحسب متحررين من الخشية على الثياب فنزلنا على الاكل حتتك بتتك ، شفطنا من المرق ما كان يتصبب في الحال عرقا لذيذا . مصمصنا عظام البطلة حتى لم نعد القلط والكلاب بعدنا اى بركة تراجعها . وبعد الأكل شربنا الشاي دورين واتينا على بقية علبة السجائر . تمطرنا على الارض نستشعر الرخاوة نستكمل بقايا الكلام حتى سطلنا الهواء الخريف فغطسنا في نوم عميق ، حتى الولية هى الاخرى ..

لولا ان البول حصرنى فحلمت اننى اتبول ما كنت صحت . كانت الدنيا تبدو لى لحظتها وكأننا في منتصف الليل ، وأنوار مصر تلعلط من كل ناحية فوقنا وتصب في حوش الدار شيئا قليلا من لالئها . لكزت « ميمى » فتقلب وفتح عينيه قائلا كان الكلام لم يتوقف بيننا بعد : « هيه ! وبعدين ! » . قلت : « أريد أفك حصرا » . أشار الى تعريشة في ركن الحوش البعيد فعرفت أنها الكنيف فاتجهت اليها فقضيت حاجتى واسترحت وبحث عن عقب سيجارة أشعله فوجدت « ميمى » يحتفظ بسيجارة قدمها لى مشتعلة فتربعت لبعض دقائق وبضع أنفاس ثم طلبت ثيابى لالبسها فذهبت الولية لتأتى بها من على جبل الضيل فلم تجدها ، ولم تجد لمحتويات الدار كلها أثرا ، حتى الحلل والوابور والاكواب . صوتت الولية بكل مزمارها ، فأيقنت انه النحس يابوى قد لحق بى في هذا المكان الهادىء . صرنا جميعا في ريع هدمونا بل في كامل عرينا ، اذ ليس

من خيط في ابرة يستر عورتنا اذا اردنا مفادرة عتبة الدار ، وقلت
لابد ان شيطاننا يترصدني يا بوى .

شيء الهى قال في نفسى : كفاك هذا يا حسن وتادب وقم من هذا
المكان . شعرت بالرعدة في قلبى والله يا خال ، فطويت وجهى عن
السماء وقلت جسمى على نفسه كان السجن قد تقاربت جدرانها على
حتى التصقت بجسدى وتشكلت بعريه وقلت للولية في صوت يقطر
البكاء منه : « والله يا لولية اننى لا اعرف ما افعله الآن فدبرينى » .
طوت الولية وجهها عنى ومسحت دموعها الهائلة وتمخطت ثم قالت :
« تدبرها الطاهرة ام العواجز ام هاشم ابنة بنت رسول الله » .
صحت جاعرا كائننى أشتم وأردح : « مدد ياست زينب ! ورينا
شطارتك ! اكيد لك الدلال على ربنا ! » . نهضت الولية بقلب كسير
وصارت تروح وتجيء حائرة تشد في ذيل ثوبها وتستنزل اللعنات
على من فعل هذه الفعلة الخسيسة فينا : « الاهى مايوى بيت !
الاهى يتقطع جسمه تحت عجلات قطار ! الاهى يصرف أضعاف
أضعاف ثمنها على الحكماء ومر الدواء وشر البلاء ! » ..

استوقفتها قائلا كانها المسئول الاكبر عن زنتى هذه الشنيعة :
« كل هذا لن ينفع يا خالة فدبرينى ! » ، فاشاحت في أسف . وبعد
صمت طويل كظيم نهض « ميمى » ومضى خارجا بطريقة فهمت منها
انه سيبحث عن اللص ويجىء به من تحت طقاطيق الارض . لكنه
غاب يا بوى . وطال صبرى وأنا اجلس تارة وانهض تارة اخسرى
كالسبع الهائج اريد ان أفتك يا لولية واهدم هذه الدار على نافوخها
النحس ، وهى في كل مرة تنجح في تهداتى بسيافها للنبي وللولى
وآل البيت كلهم مما يعجزنى عن التماذى في الهياج خشية الفلظ .
فيهم هم الآخرين وهم شفعاى عنده سبحانه على ما صدر منى
تجاهه من لحظة فائنة . لكننى يا خال كلما تذكرت اننى خرجت
اليوم من الحبس الى حبس من صنف جديد تغلى الدماء في عروقى
كيفما يغلى الماء في براض الشاى ويتفرتك من الفليان ..

غابت الولية قليلا ثم عادت وفى يديها كوب شاى ثقيل رغم ضيقى
الشديد بمنظره فاننى انشרכת قليلا لمرآة ، الخاطر الذى جاءنى
لحظتها ان اطيح به ويديها فى الهواء فليحرقها الله . قالت الولية
ان الجيران سنعونى وعرفوا كل شيء وحزنوا من أجلى وأن ابنها

هناك يتباحث معهم فيمن يكون السارق الجبان ، وانحنت ووضعت
كوب الشاي بجواري . منظرها صعب على يابوى فسكت . وبعد
وقت قصير وجدت يدي تمتد على كوبه الشاي فاذا للشاي طعم
عبقري يا بوى ، سرى منه الخدر في أعصابي فشعرت انني
استرحجت . بحثت بعيني عن الولية فلم أجدها ، فقامت اتمشى من
جديد ولكن في هدوء هذه المرة ، أحاول الوصول الى بر ولكن بدون
فائدة يا بوى ، لا طريقة ولا حل والدنيا مثل خرم الابرة وأنا الخيط
يريد أن ينفلد منه في حلقة الظلام . الدموع تهطل مندارة على خدي
وأنا أحس من لهيب غليانها أن الله غاضب على هذه الأيام وأنها أيام
نحوس بالنسبة لى ولن يرضى عنى سبحانه الا بعد زوالها وهو وحده
يعلم متى تزول لكن العشم في رحمته قريب . اذا بالولية داخلة
لحمل بين يديها خرقة كالحة تقترب بها منى قائلة أن الجيران ناس
على باب الله مثلنا وقد فتشوا عن ثوب قديم عندهم يمكن الاستغناء
عنه فلم يجدوا لأن كل ثيابهم في الاصل قديمة ومعظمها خليع مما
استغنى عنه آخرون لكن امهم الطيبة دخلت القاعة فرأت عجينا
مغطى بهذا الثوب فتظرت فيه فوجدته لا يزال صالحا لتغطية
الجسد ففرطت الام في عجينا واستغنت - كثر خيرها - عن هذا
الثوب ففساه ينفع او يقضى مصلحة .

غصبا عنى تناولته يا بوى ، رحت أقلب فيه واتحسر على حكم
الزمن الجبان وفعل الأيام في . الثوب خشن يا بوى ، ملئ بحبيبات
قطع العجين الناشف ورائحة النخالة والتراب وخراء القمل والبراغيث
والصراصير الا انه متماسك النسيج وليس به الا رقعة واحدة من
ناحية الكتف وبقعة عريضة جدا من زيت الطعام شربت من الوسخ
والتراب ما شربت ولا يزال ملمسها طريا كجلد الافاعي . لكنني
لبسته يا بوى ، وضعته على كتفي وادخلت اكمامي فيه وطرحته
على بدني فاستقام كاسيا حتى ما فوق الركبتين بقليل . قلت :
نحمد الله على ذلك ، وقلت للولية : سارجع بعد قليل وقولي لابنك
ينتظرني فسوف آيت عندكم سواد الليل .

الخامسة - الله أكبر لكن الليل كافر !

أخذت الباب في وجهى ومضيت ..
تملكت شاطئ النيل وبقيت ماشيا لا أعرف لى وجهة أخرى ،
حتى لاح لى من بعيد ضوء خافت محمر ، كان يزداد احمرارا وتالقا
كلما تراجعت بيوت المدينة وأحاط الظلام كل شيء . قد عرفته
يا بوى ، تذكرت اننى أعرفه ، أعرف أن هذا الضوء يقوم أمام خص
على هذا الشاطئ يسكنه خفير وأولاده ، إذ أن هناك من يملك هذه
الأفدنة الكبيرة من طرح النهر قد زرعها أشجارا صغيرة لا أحد يدرى
ماهى بالضبط حتى خفيرنا ، وجاء لها بماكينة مياه وبهذا
الخفير يحرسها ، تذكرت أن اسمه « عم ذهب » وأنه يخفر هذه
الأشجار وهذه الماكينة منذ سنوات ، فى النهار تراه مترددا على
أسواق السمك والفاكهة يداعب التجار ويتحدث معهم حديثا وديا
طيبيا ، وهو مشهور بينهم . قلت : لا مفر يا عم ذهب ! أنت الآن
الذى أمامى وقد جاءت الطوبة فى المعطوبة هذه المرة ولكن ماذا أفعل !
أنت على الأقل تستطيع التصرف أما أنا فلا أستطيع شيئا مطلقا !
فدعنى أسرقك بالطيبة أو بالفصية بدلا من قتلك أو قتل روح
أخرى ! ..

أخذت أدارى نفسى وأظهرها كلما اقتربت من خص الرجل .
كان صوت أم كلثوم يصدر مغنيا هلت لىالى القمر - مع أن الظلام
كان دامسا . فلما حاذيت الخص من جانبه الأيسر داريت جسدى
فى ضلعه ونظرت فإذا بالراديو ماركة صوت العرب معلق فى مستمار
فى جدار الخص ، وإذا بـ « عم ذهب » وزوجه وأولاده نائمون على
الشاطئ أمام الخص كالسليحة وهم يتبارزون فى الشخير كأنهم
يهزأون بصوت أم كلثوم ، همست قائلا : معلش باسيدة الغناء
يا آنسة فلسوف أثار لك الآن . ومددت يدي فأغلقت الراديو ،
فساد سكون كبير سرعان ما احتلته أصوات الضفادع والصرصر
وصوت الشخير . تحسبا للموقف صفقت يدي تصفيقة وأهنة قائلا

بصوت أشد وهنا : يا جماعه يالى هنا . فلم يجاوبنى سوى
الشخير ، فتسللت على أطراف أصابع قدمى ودخلت الخصى ، لأرى
ثياب الرجل - وزوجه وأولاده معلقة على مسامير فى الحائط فلممتها
كلها ولفقت فيها الراديو وكل شيء وجدته . وتسملت خارجا أمشى
على الشاطئ فى هدوء وسرعة شديدين وأنا أقول : استر يارب ..
حتى وصلت الى دار صاحبى « ميمى » والفجر يقول : الله أكبر .
فى دخلتى كان صاحبى يتعارك مع أمه يوبخها على نومها والولية
لا تزال تستنزل غضب السموات كلها على الذين فعلوها وعيشوها
هذه الليلة الكحلاء وقدمى النحاس التى دخل الحرامى فى أعقابها
فقتشهم تقشيشا . طرقت الباب ففتحت لى وشهقت لما رأتنى :
« لقيت الحرامى ؟ » . قلت : « نعم ! » ، فهب صاحبى وأقبل
مهرولا : « كيف ؟ » . دفعتهما معا الى صحن الدار مغلقا الباب
خلفى بالترباس ، وقلت للولية وأنا أفك الصرة الكبيرة : « هذه حلل
وأطباق وأكواب ووابور بدلا من الذى ضاع منك يا خاله ! لعل
النحاس يزول عنك ! وهذه ثياب لك أحسن مما سرق ! أما انت
يا صاحبى فهذا ثوب لك أجدد من الذى سرق ! وهاك فائلة صوفية
بأكمام جزاء لك على كرمك معى ! أما هذا الجلباب الصوفى المعتبر
وهذا الثوب البوبلين الفخيم وهذا الصديرى الشاهى - بكل ما فى
جيبه - وهذه الفائلة القطنية وهذا السروال وهذا الحذاء وهذا
الراديو فاتها جميعا لى يا خال ! الله الله على الجد ! والجد الله الله
عليه ! » ..

قال الولد وأمه فى نفس واحد : « حلال عليك يا عم ! والله انك
لتشكر ! » . ونظر الولد فى عينى قائلا بلهجة موروثة غير سالكة :
« عملت كيف يا أبو على ؟ » . حاذبت ظهر كفى بغمه وشططت
فيه : « لا شأن لك ! أشغل أم بطلقه ! » . اعتدل الولد قائلا :
« شغل طبعا ! شغل ! » ، ثم نهض من فورهِ فارتدى الفائلة
والجلباب فظهر كأولاد الناس وانفق فى الحال على أن تقطعها أمه من
الذيل والجنبين مقدار ثلاثة قراريط ، ثم خلعه ورمى به لأمه ، التى
تلقفته وفى الحال راحت تبحث فى عقدة منديل رأسها عن ابرة
الخيطة ، وعاد صاحبى يشقب الصديرى بنظرات كالحة صابغة ،
خاصة بعد أن سويت الصديرى على ضلوعى فكانه على مقاسى
بالضبط .. ولقد رآح قلبى يرقص تحت ثقل المحفظة الكبيرة التى

كانت في جيبه يا بوى ، اشته بمحفظة تجار الحبوب والاقطان يا بوى ، وكنت اؤجل فتحها لا أعرف لماذا يا خال . بسرعة سويت الجلباب البوبلين على جسدى ومن فوقه الجلباب الصوف ثم الحذاء فبدوت كشهبندر التجار في زمانه ، رحت أخطو وأعود مجربا المشى رافلا في ثمين الثياب فوجدته غاية المراد من رب العباد حقا يا بوى ، وعذرت الناس في تكالبهم على ذلك وتذكرت قول أحد الأئمة لعله « أبو حنيفة » اذ يقول على لسان عمى الفقيه الكبير : « تمشوا بثمانى الثياب يحترمكم الناس ! » ، يوما قال أحد المعارضين الأذكياء على عمى الفقيه : « دعك من هذا يا سيدنا فأبو حنيفة كان يروج للقماش باعتباره تاجر أقمشة بالوراثه ! » ، وشخط فيه عمى الفقيه وطرده من مجلسه .. طب ما قولك الآن يا بوى في اننى قد صرت متحيزا لأبى حنيفة في هذا القول ؟ صحيح أن الامام أبا حنيفة لم يحل لنا مشكلة الفلوس التى سنشتري بها هذا القماش الثمين ولكن الذى صار مؤكدا لى الآن هو أن لبس القماش الثمين هو رفل النعيم حقا ، فالهم أوعدنا به ..

قطعت الحوش فدخلت التعريشة الكثيف موهما اننى سأفعل مثلما يفعل الناس ، وجلست ، وجلست فعلا على الملاقى بعد أن حلت سروالى فاذا بى بالفعل كنت أريد ذلك فمضيت افعل ثم انتهزت الفرصة وأخرجت المحفظة بقلب واجف ويد منتفضة كأننى أسرقها الآن فقط ، فتحتها وانتهكت جيوبها بسرعة فاذا هى تحمل خمس ورقات بخمسين جنيها وسبع جنيهاات فكة وخاتم فضى مكسور وبعض أوراق صغيرة مطوية . خرجت بدى بثلاث جنيهاات مطوية ثم أطبقت المحفظة فطرقعت كبسولاتها بلذة وأعدتها الى جيب الصديرى . لمحت ظل صاحبى يتلصص على من خلف باب التعريشة الصغير ، وبحثت عن ماء فلم أجد فمسحت مؤخرتى بطوبة ونهضت رابطا سروالى وخرجت الى الحوش ملاحقا صاحبى الذى كان يسرع لينفى عن نفسه شبهة التجسس على ، قبضت على ذراعه وبالأخرى عرضت له الجنيهاات قائلا : « وجهك فقر ! هذا كل ما وجدته ! خذ » ، وترعت جنيها أخضر سمهرى القوام عريض المنكبين يقف على صدره وجه أبو الهول فما رآه صاحبى حتى وقع مفشيا عليه من الفرح ، فصرت أدفعه ببوز الحذاء في جبينه ولآقنه ليفيق وهو مندمج في التمثيل يرمى جيته يمينا وشمالا ويشهق شهقة طلوع الروح كلما

فشح عينيه ورأى ورقة الجنيه فى يدي . دفعت بالجنيه فى صدره
ومضيت قائلا : « دعنى الآن اذهب الى حال سبيلى قبل ان يطلع
النهار فتحدث فى الامور امور ! » . فمضى معى نحو الباب بالفاتلة
والسروال وعاتقنى ، فحضنته ، ولحقت الوليه بى عند الباب
فاحتضنتنى وقبلتنى فى خبينى قائلة : « مع السلامة يا ولدى !
الله يسهل لك ويفتحها فى وجهك ويبعد عنك اولاد الحرام ! » .
فاستهدى قلبى خيرا بهذا الدعاء ، وقلت والله انها دعوة تساوى
عندى اضعاف ما اعطيته لها .

وخرجت ، فمضيت احرى فى طرقات متوغلة فى بر الجيزة امشى
بخطوات ثابتة وآلة وان كان قلبى فى صدرى كبندول ساعة المسجد
يا خال .

السادسة - الهروب من قرص الشمس !

أدركتني الشمس واقفا على محطة الجيزة في انتظار قطار الصيد . فبقيت نافرا من قرص الشمس مزورا عنه أحاول أن أتلاشى برؤيته لوجهي . حتى جاء القطار فركبته فظل القرص يطاردني من شبك القطار يترصدي من سمانه ويسرع فيسبق القطار بأميال ، وينتظره ليشده ، فكانه يبحث بين عموم هؤلاء الركاب عني وحدي ، يشدد لهيبه ، يظهر انه سيستندل معي ويشي بي للركاب ، يفضحني الفضائح السبع كلما أفحمته بإغلاق هذا الشباك يابوي هب هلف من الجالسين أمامي وطلب رؤية المزارع والخلاء والضوء الصباحي الدافئ الحلو ، يعطيني الهلف دروسا ومواعظ فافتح الشباك رغما عني وشيء الهى في نفسي يقول يا ولد أقصر الشر ولا تتشابك في خناقات على الصباح فاخر الشيطان وأوصل الى أهلك على خير . انغمضت عيني في وجه الشمس وتذكرت الراديو ففتحته فانطلق صوته برقصة ساحرة كان الكون بجميع أركانه يرقص ويمزك مع شادية وهي تغنى : « يا نور عينيه وأكثر شوبه يا أعز عندي م الدنيا ديه » فتطلع وراءها الموسيقى هاتفة مشخلة ودماغى سابح في بحر ذاك وأنى تحضننى مغنية نفس الكلام على نفس الموسيقى ، ثم تمنيت لو أن البنت « حنة » بنت أبى سكين هى التى تغنى لى هذه الفنوة وصوت الكمسارى يدخل فى هذه المزيكة صائحا فى غلظة : « انت يا خوبه بالى هيمان فى الخيال تبسم ! النبى تبسم ! لكن فين التذكرة ! » ، فصحوت مبتسما ووضعت يدي فى جيب الصديرى الصغير المعد للساعة فأخرجت التذكرة جديدة خضراء سمكة فأخذاها الكمسارى وقهرضا بالكماشة وأعادها الى قاعدتها الى نفس الجيب وقد داخلتنى نشوة اذ أدركت حلاوة ان يكون للمرء صديرى كهذا لأشياء كهذه فيا للأبهة يا ولد يا ولد أبى ضب والله صرت الآن رجلا محترما ولو على قفا الآخرين يهز لك الكمسارى راسه بالتحية . ثم ان الكمسارى دخل مع الهلف الجالس قبالتى فى

كلام وحديث فهمت منه ان هذا الهلف لم يقطع تذكرة ويريد قطعها الآن ويناكف الكمسارى ويساومه والكمسارى يقول له يا بجم . تكيفت يا بوى من حلاوة أن يكون مع الرء نقود يهينها بدلاً من أن تهان نفسه ... عندئذ يا بوى سخرت من قرص الشمس واقتنعت أن له مهمات أخرى كثيرة وأننى لست فى حسيانه فاضطجعت ممددا منصتا الى صوت الراديو . وكان فى جيب الصديرى علبة سجائر مفعصة هى بقايا سجائر « عم ذهب » ، وكانت بعض سجائرها مقلوبة على وجهها فرجحت أنه يميزها عن غيرها اذ هى محشوة بالحشيش لابد ، غير أننى لم أتذكر ذلك ولم أنتبه اليه الا بعد ان دخلت آخر سيجارة من المقلوبة ، سرح دماغى مع الراديو ، شيء مليح والله يا بوى ، مليح قوى قوى ، هذا الشيء المسمى بالراديو ، يصدح بالغناء والكلام والموسيقى والقرآن والتشخيص والمسخة وكل شيء ، قال الرسول عليه الصلاة وآتم السلام : من علامات الساعة أن ينطق الحديد وها هو ذا الحديد قد نطق وملا الدنيا زبطة وزمبليطة ولم تقم الساعة بعد فمتى تقوم القيامة ؟ وما المقصود بهذه الساعة يا بوى ؟ انها ساعة القيامة بالطبع يا خال ، وما القيامة يا خال ؟ ما القيامة التى ينتظر أن تحدث ويكون نطق الحديد علامة من علاماتها ؟ عقلى يحدثنى يا بوى انها قيامة الخلق ! يقومون ليفعلوا شيئا كبيرا يا خال ! يقبلون الدنيا مثلاً فيجعلون أعاليها أسافلها لتتنفس خلق طال انكثام أنفاسهم وليجرب آخرون انكثام الأنفاس !؟ وأن من يكتم أنفاس الخلق يقوم الخلق عليه ذات يوم فيفكوا قيود السجن عن الهواء الذى استلبه فيمرح الهواء فى فراغاته الحميمة يعانق الخلق ينبت الزرع ترقص فروع الشجر تتبخر الأنفاس تنزل غيثا يهيم على الخلق بالحياة !! فى ظنى يا بوى أن الرسول عليه السلام قد صدق وأن القيامة سوف تقوم حتما حتما قسما عظما لكن حين يؤون الأوان لينطق الحديد — هذا الحديد الناطق — بكلمة السر الحقيقية ! التى لست أعرفها بالضبط يا بوى !.

شيئا فشيئا راح صوت الراديو يشحب وينداح ويهزل ، فتذكرت انه يعمل بالبخارة البطارية مما يباع لدى البياعين فى سوق العتبة وسوق غزة والدكاكين البندرية . اغتممت لما تذكرت أن حجارة البطارية هذه ستكلفنا كل يوم والثانى ، وازددت غيظا لما تذكرت اننى لا أعرف كيف تنزع البطارية القديمة وتركب الجديدة . خفت

ان تنفذ البطارية قبل وصولي الى الميال فيصير الراديو مجرد صندوق غير ذي قيمة . اطلقتها وركنته في حجرى محلقا عليه يدي واستسلمت للأفكار : ماذا ستفعل يا ولد ؟ غذا او بعد تنفذ وتبقى انت على الحديدة وتمود ريمة لمادتها القديمة . شيء الهى قال لى : يا ولد سلمها لله فليس من المحقول ان يعمل هو عقله بمقلك الصغير ويمسك لك على الواحدة ، انه الاب الحنون ولا بد ان يرضى عنك في يوم من الايام ولكن بشرط ان تقدم انت فروض الطاعة والولاء يا حسن كما يقول عمى الفقيه الكبير ، وعموما فانه سبحانه يعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الملك وان شاء ان يعزك فسوف يفعل او يذلك فالامر بيده ، ولكن ، معلش يارب .. معلش يعنى بس في ذى الكلمة التى اوجهها اليك الان بقلب صاف ونية خالصة : كيف اتوب يا بوى والفقر والعوز يلاحقانى اينما سرت ؟! مز الفقر والعوز ان يحلا عنى ويرحلا من تحت اقدامى ! او فمر امى واخوتى ان يغلوا بطونهم ويدفنوا عريمهم تحت التراب الوجيع ! اصدر امرك الى كل ثقب ابرة فى جسدى ان يتنازل عن كل مطلوب وكل مرغوب ! حينئذ - يارب - يصبح فى مقدورى ان اقول لك ان توبتى نصوحا ونهائية عن كل فعل بغضبك او يؤذى عبادك الصالحين ! اننى واثق يارب انك سبحانه قادر على كل شيء وما اظن ان هدايتى امر يصعب على قدرتك لكنه مفتقر الى مشيئتك ..

الدموع صارت تنهمر من عينى يا خال ، اتهمرت كما المطر حتى ارتجفت من شعور بالبرد القارس رغم اشتداد صهر القيقظ الماشى لصق شباك القطار . كلما جففت الدمع يزداد انهيارا كأنه البئر الزلال كلما اخلت منه يفيض ويمتلئ . شيء الهى فى نفسى يقول : ابك يا ولد مشتهاك ولا تترك فى مخازن الدموع قطرة واحدة دع كل المواجه التى ادخرتها فى الحبس امام الرجال وفى التلطيم فى سود الليالى تنز وتعصر كل قبحها قلبها يسكن الوجع الى حين او الى الابد ..

وهكذا يا خال بدأ فسيل عيني يجف شيئا فشيئا وبدت الدنيا امامى زاهية مخضوضة عليها يلعب الندى .. فشعرت ان ارض الحباب قد هلت منذ يضع محطات سابقات فصرت استنشق ريح محطة « صدفة » التى تحمل فى ثناياها ريح دارنا وامى واخوتى . قيمت فسويت طوقى واصلحت قفاى ونفقت حداثى وسحبت من

ألف جمبة ورق مطوية على خمسة كيلو من فاكهة مضر الطيبة
اشتريتها من فاكهي في قفا المحطة فملأت الجمبة بعنّب ورمّان وخوخ
وتفاح مما يشتهي العيال ويسمعون . تابلت الجمبة يرفق يا خال ،
تماسكت في عامود الباب أترقب الرصيف محطة « صدفة » وهو يزحف
داخلا تحت سلم الباب كان الرصيف هو الذي يجري . لم أكن
لاطبق صبرا حتى يقف القطار نهائيا ، فما صدقت أن هذا لهاث
الرصيف وثناقل زحفه حتى رميت بنفسى مقلدا أولاد البندر ، ولم
أكن أدري يا بوى أن أولاد البندر حين يفعلون ذلك يجملون وجوههم
في اتجاه سير القطار حتى يمكنهم التماسك في الأرض ، لكننى لاحظتها
كنت مطلقا على سلم الباب ملقيا ببصرى في الاتجاه المعكس الذي يخلفه
القطار ورايه اذ أن عينى كانت ترقب الطريق الزراعى الذى سأرجع
كل هذه المسافة لاسلكه الى بلدتى « كوم سعيد » ، فلما القيت
بنفسى على الرصيف دفعتى الهواء المواجه بشدة وعنف فالقى بى
في الهواء بعيدا ، لافاجا بنفسى منطرحا على ظهرى على مبعدة من
سور الرصيف رافعا ساقى في الهواء ممددا ذراعى والالم في رأسى
وظهرى لا يطاق يا خال . صرخت من عزم ما بى وقلت آه يا عمرى .
لكننى لا أدري كيف نهضت مسرعا كلمح بالبصر ، لارى الأرض مبدورة
عنيا ورمانا وخوخا وتفاحا ، وليس ثمة من راديو ..

أخذت العلم وجهى وأشد في طوقى وأولول وأهلوس أصرخ لله
ما يفيشنى . جاء نفر من الركاب يهرولون نحوى بكل لهفة وبقايا
صراخ وصياح ، فلما راوئى واقفا على حيلى ظهر الاطمئنان عليهم
وصاروا يجمعون ما يمكن جمعه من فاكهتى وقد صارت كالكنافة
يا بوى ، كنافة معجونة بعيد عنك . حاولنا وضعها في الجمبة لكن
الجمبة كانت تفتقت وتهرأت . بحثوا عن جرنان مع أحد فلم يجدوا
فكوموها أمامى على الأرض وانصرفوا ، ووقعت عينى فجأة على
الراديو عند آخر الرصيف وقد صار الى ثلاث قطع منفصلة وان
اشتبكت في بعضها البعض بأسلاك وبدت السماعة كقبضة المجين
سوداء مخرومة مليئة بالقموض واللمعان كوجه النحوس التى تتصدى
لى هذه الأيام ظلما وعدوانا والله يا بوى . وليت نحو حطام الراديو
فرايت جوارها خرقه بالية كالحلة سرعان ما تعرفت عليها فاذا هى
الثوب الخلق الذى سبق أن جاءتنى به الولىة أم صاحبى « ميمى »
من جارتها وكان قطاء للمجين ، اذ اننى حين خلعتنى في دار صاحبى

احتفظت به بغرض الانتفاع به في لف شيء . قلت : ياما انت كريم يارب ، وانحنيت فجمعت أشلاء الراديو ووضعتها في الخرقه وقد داخلني شعور بأن أعرض امره على سمكري البلدة عله يتمكن من إعادة لحمه وتشغيله وعدوت على بقايا الفاكهة فجمعتها لفتها مع أشلاء الراديو في الخرقه التي كان مقدرا لها أن تلف جسدي نفسه في زنتي ولكن ها هي ذى تلف أشلاء ذنبي تزفني الى الأهل خائبا أقول يا سابل أستر كفاني ما لحق بي من الكسفة والمذلة وأسلمني برحمانيك الواسعة .

من حسن الحظ يا خال أن احدا لم يتعرف على في الطريق والكل يرد على سلامي كالماكيئة : عليكم السلام ورحمة الله وبركاته اتفضل يا ابو العم . الوحيد الذي تعرف على حقا هو أمي يابوى . فتحت لي الباب فشقت فدبت صدرها بالحيل صائحة بأشد عزم في قلبها: ولدي . فرميت بنفسى في صدرها عابس الوجه كظيما . فما أن ردت وراءنا الباب حتى تفجرت باكيا ، كان كل بكائي داخل القطار كان الزلازل تسبق انفجار البركان الذي ينعطف على الأرض الملائمة . لم أكن أدري أبكائي هذا أم بكاء أمي .. لكننى كنت أوقن يا بوى أن صخور الحياة وكلاكيح المر المتكورة بأحشائي وفوق صدرى قد انصهرت وذابت من لحظة ما لامس خدى صدر أمي . بكيت نيابة عن كل الحوادث المرعبة التي وددت لو أحكيها لها يا خال ، وعن كل الأخبار المؤلمة التي طالما استشعرت لذة حين أرى حالها اذ تعرفها . كان كل ما أريد أن أحكيها لها كثير يابوى ، معقد ومؤلم ، فاكثفيت بالبكاء كلما تصيدت أمي مناسبة تجرني فيها للحديث عن مصابي وغيابي كل هذه الشهور بدون حس ولا خبر . كنت في بعض اللحظات أشرع في أن أحكى لها يابوى ، لكن عبرة البكاء تكتفني عن الكلام فلا أكمل و لا تكلم من الأساس ..

الى أن جاء يوم تأكدت فيه أن أمي قد تمكنت من ترجمة كل ذمعة دمعها يا خال ، وباتت تعرف عنى كل شيء دون أن أحكيها بالكلام . ولما تأكدت هي أن مخزون الدمع في عيني قد نضب ، بدأ دورها هي في البكاء وما أفضح بكاء الأم عندنا يا خال ، أمي أنا بنوع خاص ينبوع بكاء ، لم أر لبكائها ضربا في البر كله ، تبكى لشهور وسنين خلت كان حالي فيها - وحالهم - يستحق البكاء الأليم . تحلف اليمين يا خال انها لم يشغلها عن الاستمرار في البكاء سوى

نجاح السمكري المغربيت في لحم صندوق الراديو وتجميع عدته
 والعكرشة في أسلاكه حتى وش ونطق وصار عال العال ولكن بشرط
 أن نضع حجارة البطارية من الخارج في صندوق صغير خاص بها
 وموصول بالعدة بسلك ومربوط في صندوق الراديو بحزام من
 الأسلاك . بات فرجة حقيقية نفخر بها على أهل الشارع كله ونلقى
 من أصواته العجائب والمدهشات ، حتى أن سحنة وجه أمي قد
 تغيرت والله يا خال وانشدت بعد تهديل وكرمشة امتلات بدم الحياة
 من أنفاسي في الدار بعد جفاف وتحرق . صارت كل يوم تتنازل عن
 شيء من همومها وتخشبها حتى جاءت لحظة صارت تتمايل فيها
 مع موسيقات الراديو الراقصة ، ولولا الحياء لهزت جزعها ، لكن
 الحياء والحق يقال يا خال لم يكن يمنعها من أن تغنى أحيانا مع
 المغنى . تحلف اليمين يا خال أنني أنحرق قلبي حزنا عليها وعلى
 نفسي من أجلها . أيقنت أن ابلية - أمي - في نفسها الفرح على
 أشده ، واخوتي البنات يعرفن ذلك ويحببته حتى شوشة الدماغ ..
 فمن تراءد يكون ذلك الشيطان الرجيم الذي يحكم علينا جميعا بأن
 نتوق للفرح ونشتهيه حتى الحزن الأليم حتى صار الحزن طبعنا
 وغيرنا في ملذات النعيم غارق يلهو . قلت في نفسي : والله لأفرحك
 يا أم ويا أخوتي مهما كان الثمن باهظ التكاليف ، سوف أفرحك
 أشد الفرح ولو على جثتي وجثة الشيطان نفسه ..

رقم الإيداع : ١٩٩٠/٣٩٦١

J . S . B . N

977 - 07 - 0007 - O

- كتاب الهلال القادم :

البنك الدولي والعالم العربي

بقلم : الدكتور
إبراهيم شحاته
نائب رئيس البنك

يصدر : ٥ يونيو ١٩٩٠

روايات الهلال تقدم

أول رواية تكشف أسرار أعماق البحار

حسناء بحر كورتيز

تأليف

بيتر بنشلي

مؤلف رواية الفك المفترس

ترجمة

عبدالعزیز مصطفى أحمد

تصدر: ١٥ يونيه ١٩٩٠

هذه الرواية

لاشك أن شخصية « حسن أبوضب » سوف تصبح إحدى الشخصيات الروائية المشهورة في الأدب العربي لما اتسمت به من صفات إنسانية متناقضة وجذابة في أن واحد ..
« أولنا ولد »

صياغة جديدة في الرواية المصرية ، وعالم مزخوم بالأشخاص والأحداث ، وبناء أدبي هندسى استمدته المؤلف ، خيرى شلبي ، من إعجابه الشديد بالعمارة الإسلامية في المساجد والتكايا والمعابد والأسيلة والمنازل ، وهو من الاتقان إلى حد الاختفاء تماماً ، خلف بساطة ممتعة وشائقة بايقاع روائى متدفق وغزير ، يقدر على استيعابها كاملة كل من يستطيع فك الخط .

وفي الوقت نفسه فإن القارئ المتذوق المتعمق سوف يجد في بنائها الداخلي الكامن أبعاداً وأعماقاً لا نهاية لها ، فإذا كانت تتخذ طرائق المعمار العربى فإنها ترتبط أوثق ارتباط بـ جسر خفى مع الحضارة الفرعونية القديمة سوف يتكشف لكل قارئ مدقق .

« أولنا ولد »

وثيقة أدبية لمن يبحث عن المتعة في الخيال والواقع .



خيرى شلبي

○ روائى مصرى يكتب
القصة القصيرة والمقال
الأدبى

○ حصل على جائزة
الدولة التشجيعية فى عام
١٩٨٠

○ قدم للمكتبة العربية
أربعين كتاباً ومن أشهر
رواياته « الأبواش »
و « السنيورة » ، و « اللعب
خارج الحلبة » ،
و « الشطار » ،

و « العراوى » ،

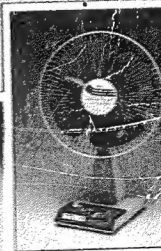
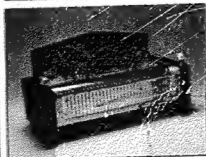
و « الود » ، و « فرعان من
الصبار » ، و « رحلات
الطرشجى الحلوجى »
وغيرها من الأعمال .

○ تدور أحداث أغلب
أعماله فى البيئات
الشعبية المصرية ، سواء
فى أحياء القاهرة القديمة
أو فى المناطق الريفية
العنيفة

عالم الأجهزة الكهربائية تحت اسم واحد... أوليبيك الإلكتروني



OLYMPIC



موقع: شركة القاهرة للصناعات الخفيفة - القاهرة - طناش ت: ٢٤١٤٨٢-٧٦١. الوكلاء الوحيدون: شركة المنتجات

Bibliotheca Alexandrina



0209693